طه عبد الباقي سرور

دولة القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

... إلى الذين يقلبون وجوههم فى السماء يرقبون الآفاق ويرجون أيام الله ويترقبون فجرنا القـــادم أهـــدى... « دولة القرآن »

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

حضارة وجاهلية

« . . . الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

ذلك هو ميراث الحضارة المادية اليوم ! ؟ سخر لها ما فى السموات وما فى الأرض ، وتمت لها الخلافة على كل جوهر من جواهر المادة ، وعلى كل طاقة من طاقاتها .

ولقد استعصت الطبيعة طويلا واعتصمت أمام الغزو البشرى ، مقدسة الأسرار ، منيعة الأسوار ، لايدور الحديث عن خواصها ، وما تدخر من قوى ، وما تخفى أجنحتها من بأس ، إلا همسا فى أروقة الكهان ، ودمدمة فى سراديب الكهنة .

وفجأة ألقت إلى الإنسان ما استودعها الله ، وبما أمرها أن تؤديه له فى حينه وميقاته ! ؟

لقد كان الحديد ببأسه الشديد ، سرا مغلقا يحتاج إلى نبى حتى يسيل ويلين ، وتصنع منه سابغات الدروع ! ؟

وكانت الرياح لا تخضع إلا لرسول ، يوحى إليه ، فتجرى بأمره رخاء حيث شاء ! ؟

وكانت الصناعات فى حاجة إلى مردة وشياطين ، يسخرهم الله لرسوله

سليمان ، فيصنعون له بجبروتهم ما يريد ، من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجوابى ، وقدور راسيات

ولو بعث جن سليمان اليوم لأخذتهم الرجفة من الإنسان ، فقد فاقت تهاويله وما تصنع يديه ، تهاويل الشياطين ، وما تبدع المردة

فالحديد اليوم ، لم يلن فحسب ، كما لان لنبى الله داود ، بل لان كل شىء فى هذا الكوكب الأرضى ، لان واستجاب ، وألقى بيديه ، وفض كنوزه ، وكشف أسراره

والرياح سخرت وذللت ، حتى عادت بساطا سحريا ، لا يحمل أجنحة الإنسان فحسب . بل يحمل لخدمته الموجات الأثيرية ، والطاقات الكهربائية ، والأشعة المرئية ، وغير المرئية ، وينقل همساته وصيحاته وحركاته ، عبر أمواج البحار ، وفوق شامخات الجبال

لقد أطلق الإنسان كل جبار مارد ، من قمائم الطبيعة ، وحرر الطاقات الهائلة الملتهبة ، فى النواة والذرة

كل شىء مسخر لأمره ، مستجيب للمسات علمه ، يقبس من الأحجار شعاعا ، ويستخرج من البحار ناراً ، ويرسل الصواعق ، وينير الظلمات

لم يعد قزما بين عمالقة الطبيعة . يخيفه الرعد ، ويرعبه البرق ، وتهوله النار ، بل أصبح فجأة متحكما جباراً ، طويت له المسافات ، وذويت له الأرض ، وتكشفت له الألغاز والأسرار ، وألقى إليه كل معدن وجوهر ، بسره وعنانه

تلك هى قمم المجد البشرى ، التى حققها فى ميادين المادة ، وكان كفاء ذلك ، أن يرفل كوكبنا فى حلل السلام ، وأن يرتع فى جنات الرخاء ، وأن ينعم بالطيب من الخلق ، والكريم من الصفات ، والمزيد من الأمن

ولكن لا يستطيع إنسان أن يزعم اليوم ، أن سكان هذا السيار الأرضى فى حاضرهم ، أسعد عيشاً ، وأهنأ حياة ، وأسمى خلقا ، وأكبر أمنا وسلاما من أمسهم ، يوم كان الحديد ، لا يلين إلا لنبى ! ؟ والرياح لا تسخر إلا لرسول ! ؟

لقد انتصر الإنسان نصره الكبير ، وفتح فتحه المبين ، فى عالم المادة ، فتقمصته أرواح المردة ، وركبته أهواء الشياطين . وكمن تحت ردائه العلمى الباهر السناء ، روح ملحد ، جاهلى متمرد ، وأمسكت بقلبه ، نزوات مراهق ملتاث ، لا تحلو له الحياة ، إلا فى عنان الشهوات ، ومخادع الأحلام الملونة !

لقد ارتد الإنسان العظيم على عقبيه ، إلى الجاهلية الأولى ، فغدا ذئبا مفترسا هائما بالدم ، مغرما بلحم أخيه ، فهو قاتله أينما ثقفه ، ومستعبده أينما وجده ، ومذله حيثما أصابه ! ؟

وانقلب على ذاته ، فهو يدفع بها إلى ظلمات الحقد ومرارته ، وضيق الجشع ومذلته ، ويزج بها فى تيه الأمانى النهمة المسعورة ، التى لا تهدأ بل هى أبداً مشبوبة الأوار ، مشتعلة اللظى

إنه أينما تراه ، إنما يعب من شهوة ، أو منكفأ على جثة ، أو متطلعا إلى آلة براقة ، يعدها ويشحذها ليصب على الأرض وساكنيها عذابا غليظا

لقد سما علما ، وهبط حسا ، وارتفع مادة وسقط روحا ، وشمخ فاتحا لقوى الطبيعة ، وهوى كانسان ، له وجدان ، وضمير وإيمان

لقد فقد توازنه بين علمه المادى الصاعد ، وجهله الروحى الهابط فأصبح أحول البصر ، لا يستقيم له ميزان . أعرج الساق لا يثبت على

صراط ، ومن هنا كان سوط العذاب الذى يلهب ظهره ، وكان الخطر الذى يتربص بحضارته ، ويترصد لحياته ووجوده .

لقد فقد الإنسان روحه ، يوم أن أضاع إيمانه ، وفقد سعادته ، يوم أن ربطها بقوة المادة ، وغفل عن قوة الله .

لقد أسلم زمامه للمتفجرات ، ولم يلق بعنانه إلى الرسالات والمثاليات ، فحكمته المتفجرات ، بل أوشكت أن تطوى صحفه .

وأحس الإنسان العظيم ، بالفراغ الهائل فى آفاق روحه ، والتباين الكبير بين ألوان حياته ، فأخذ يستعيض عن الحقيقة بالخيال ، وعن الأصل بالصورة ، فراح يملأ جنبات الأرض بدور العبادة ، وأماكن الطاعة ، يزخرفها ويوشيها ، ويصعد بأجنحتها سموقا وشموخا ، ويجعل منها قلاعا وصروحا ، فى كل بقعة من بقاع عالمنا ، تقوم مساجد وكنائس ، ومعابد وبيع ، تتلى فيها كلمات الله ، وتمجد رسله ، يضىء جوانبها الكلم الطيب ، ويعبق فيها أريج الدعوات الخلقية ، والصيحات المثالية ، والمناجاة المنغمة الصاعدة إلى الله .

ولعل كوكبنا فى سبحه الطويل فى الفضاء الكونى ، لم يشهد من قبل مجموعة هائلة من أماكن العبادة كما يشهد اليوم ، ولم يستمع إلى كلمات حلوة ، منغمة مجلوة ، تدعو إلى الإيمان كما يستمع اليوم .

ولكن هل يستطيع الانسان مع كل هذا أن يزعم أن السيار الأرضى فى حاضره ، تهيمن عليه رسالات الأديان ، وتحكم فى قضاياه كلمات الله .

إنه الزيف والخدع إذا توهمنا ، أو أوهمنا أنفسنا باننا فى عصر من عصور الإيمان ، أو من عصور الأديان .

لقد نفت حضارتنا الإيمان عن واقع حياتنا ، واحتفظت به للنزات وللذكرى ! ؟ كما تحتفظ بالآثار والمتاحف ، أشياء للعرض ، والجمال الفنى ، أو للبلاغة اللفظية ، وطراوة اللحن وجمال النغم .

لقد افلت العملاق الأرضى من قبضة الاديان ، افلت فى عنف وفى جموح ، بل فى تعمد وأصرار ، وسار بعيدا عن أنوارها وهداها ، بعيدا عما تذكره به من سيادة الله وهيمنته وجبروته ، وكلماته القاضية النافذة .

لقد دخل الإنسان العظيم ، وهو فى أوج حضارته الهائلة ، فى عصر جاهلى ، تموج رحابه بالاصنام ، أصنام المادة المتحكمة ، والشهوات القاهرة ، والعلوم المنتصرة ، إلى آخر ما فى ساحاتنا من نصب وآلهة .

لقد امتلأ الإنسان بالغرور الارعن ، غرور السيادة ذات البأس الشديد ، والجاه العريض ، فاقام من عقله ربا يسبح بحمده ، ويحرق البخور فى معابده ، واتخذ من هواه ، إلـها يناجيه ويتبتل فى محاريبه .

لقد اندفع الانسان العملاق ، يعربد بين قوى الطبيعة ، وكلما كشف عن سر من أسرارها ، زاد جبروته ، وعظم تألهه لنفسه ، وعبادته لمعارفه ، التى تحكمت فى قوى المادة ، وفضت أسرارها ، وامتطتها ذلولا مسخرة لأمرها .

أننا فى عصر الجبابرة الضخام الهولة ؟! الذين لا يؤمنون أن فوق أيديهم يد باطشة ؟! وفوق معارفهم قوة قاهرة ، وأنهم فى أسر مهيمن عليم ، إن يشأ يذهبهم ، ويأت بخلق جديد .

فى عصر يقول علمه ، بملء فيه . فى غير حياء ولا خفاء : ــ

لقد آمن الانسان فى الماضى ، يوم كان ضعيفا ؟ يوم كان شيأ ضئيلا تافها بين عناصر المادة ، أما اليوم ، وهو القوى القادر ، سيد العناصر فليس ثمة حاجة إلى قوى غامضة ، غير مرئية ، فى معاهد العلم التجريبى ، وغير ملموسة ، فى معامل العلم الآلى ، ليس بحاجة إلى هذه القوى لتهيمن على شئونه ، وتدخل فى حياته ، وتفرض عليه ناموسها ، وشرعتها وآدابها ، فاذا طامن من كبريائه قليلا أو كثيرا قال فى سماحة العقلاء : حياتنا لنا نحن أربابها وسادتها ، ولتلك القوى سويعات فى معابدنا ومحاربنا ، وأشواق ووجدانيات نذكرها ، ونلقى لديها عزاء ، كلما هفا بنا الحنين إلى المجهول ، والى الغموض ، والى من كرسيه على الماء ؟!

وفى أعقاب تلك الصيحة ، التى تعرف بصيحة العلم والعلماء ، تشب قارعة أشد جحودا ، وأكبر نكرا ، تأتى قارعة الشيوعية ، لتقول بأعرض الكلمات وأوضحها :

لقد انتهت آلهة الاساطير ، وولت أديان الاستغلاليين وذهب أفيون الشعوب المخدر إلى غير رجعة ، ودخلنا فى عصر الاقتصاد ، رب الارباب ، المتحكم فى رقاب العباد ، عصر الجماهير الزاحفة المتحررة الواعية ، التى لا تعرف كهنوتا ولا جبروتا ، وانما تؤمن بلقمة الخبز ، ونداء الجسد ، وتعاليم كارل ماركس .

وتمشى الحياة هنا وهناك ، تحت تلك الاعلام حتى تكاد أن تصبح هذه الحياة الجاحدة الملحدة ، فطرة وطبيعة ، وشيأ مألوفا معتادا لا غرابة فيه . ولا ثورة عليه .

والقارعة الكبرى أن الأديان قد سلمت بهدا وارتضته ، وتخلت عن مكانها ، وتركت مقعدها للغزاة الفاتحين .

فالمسيحية وهى دين الجبابرة ، دين العنصر الابيض السيد ، قنعت بأن تكون اشواقا تمر بالانسان فى سويعات فراغه ، وعظات جميلة حبيبة ، تلقى على نغمات الارغن ، أو على الحان الموسيقى الناعمة الحالمة فى صبيحة الاحد من كل أسبوع ، أو مواكب فخمة مزركشة ، تتصدرها الاردية الدينية ، فى الاعياد والمناسبات الرسمية ، وهذا هو نصيب الله عندها ، وللانسان بعد ذلك ما تبقى ! ؟

والاديان الكبرى فى الشرق الأقصى ، البوذية والهندوكية ، وهما يهيمنان على مايقرب من نصف البشر ، تكتسحهما الشيوعية المادية الملحدة ، وتستسلم تلك الجماهير الهائلة ، فى يسر و بساطة ، للدين الجديد ، الذى يخطف بريقه الابصار .

وأما اليهودية فقد شمرت عن ساقها ، لتواصل دورها التاريخى ، تجمع ذهب العالم ، وتتحكم فى اقتصادياته ، وتحتكر أسواقه ، وتشعل الحروب ، وتمد هؤلاء هؤلاء ، ليذكو اللهيب وتكثر الضحايا وينعم صهيون بثمرات الدماء .

إن شعارها المقدس . ليذهب الجميع الى الجحيم مادام شعب الله المختار ، يجلس على عرش المال ، ويشعل بأنامله مواقد الحروب .

هل انتهت رسالة الإسلام ؟

وبقى الإسلام .

وهو ليس أكثر هذه الأديان اتباعا ، وليس أبناؤه سادة الحياة ولا جبابرة هذا الكوكب ! .

ولكنه وحده تتصاعد منه صيحات الإيمان والبقاء ، ويراوده وحده ، الأمل فى النضال فى سبيل الله . وتخايله الأحلام فى أن يعود كما بدأ ، رسالة للدين والدنيا ، وهدى ورحمة ، وسلاما للعالمين .

ولست أزعم أن المسلمين بوضعهم الحالى شيئا فى الميزان ، ولست أدعى أنهم على الجادة ، وأن كتاب الله بينهم منارة ينبثق منها الشعاع الذى يهيمن على حياتهم ، ويقضى بينهم ، ويوجه قواهم إلى مايحب ويرضى .

ولكن فى الإسلام أشياء من مقومات البقاء ، ليست فى غيره ، إنه لايزال كدين ، قوة صامدة ، مرت به كل عوامل الفناء فلم تنل منه ، بل لعله قوة صاعدة ، متفتحة للحياة ، أشد مايكون التفتح كمالا واستعداداً .

إن روح الإسلام رغم كل الضربات التاريخية الهائلة ، لم ينطفىء نورها من نفوس المسلمين ، لقد توارت واحتجبت ، ولكن شعاعها لايزال يلمع فى الظلمات ، ويتسلل هنا وهناك هادياً وداعياً .

وآية ذلك أن شعوباً فى أوربا ، وشعوباً فى آسيا قد استسلمت للشيوعية فى غير فتح أو حرب ، ولكن ليس بين هذه الشعوب ، شعب واحد من شعوب الاسلام .

هذه واحدة .

وثانية : أن الإلحاد الفكرى ، والوجودية الانحلالية ، يتقاسمان المجتمعات الأوربية ، ويشيعان فيها سخرية مريرة من كل شيء ينتسب إلى الأخلاق ، أو يمت بسبب إلى رسالات السماء .

ولم يستطع الإلحاد ، أن يكون له بين المسلمين رسالة ، ولم تستطع الوجودية أن ترفع لها بينهم لواء .

وثالثة : أن كل النهضات والحركات الفكرية فى أوربا، حينما نشدت الإصلاح وتطلعت إليه ، نشدته فى كل شيء ، ورسمته فى كل أفق ، إلا فى ميدان مسيحيتها .

شهدت أوربا ، الحركات النازية والفاشستية والشيوعية والاشتراكية ، ولم تشهد حركة دينية قط ، تلبس ثوب الحياة ، وتزعم أنها رسالة للاصلاح والتجديد والقوة . لقد لجأت أوروبا إلى هذه المذاهب ، لتملأ فراغ حياتها ، لأنها تعلم أن مسيحيتها ليست رسالة للدنيا ، وأن قلب شعوبها لم يعد ينبض على موسيقاها .

والشعوب غير الإسلامية فى آسيا حينما نشدت التحرر من الاستعمار الأوربى ، لجأت إلى الشيوعية واعتصمت بها ، واتخذتها عدتها للتحرر ودرعها للنصر ، ووسيلتها للقوة والإصلاح .

أما العالم الإسلامى ، وفى كل بقعة من بقاعه وثبة للحرية ، وحركة للنضال ، ودفعة للاصلاح ، فلم يشعر قط بحاجته إلى قوة من خارج معتقداته ، ولم يلتمس أبدا ، نجدة من غير ايمانه وقرآنه .

فكل حركة ، وكل وثبة ، وكل نهضة فى رحابه ، إنما قامت على عقيدته الدينية ، أو تقنعت بها ، وتدثرت ببريقها .

وتلك دلالات ناطقة على إحساس المسلمين بدينهم ، وإيمانهم بأنه وحده ملاذهم وأملهم حين تدعو الأحداث إلى النضال والوثوب .

ورابعة : لايستطيع دين عالمى ، أن يزعم لنفسه ، أنه نظام اجتماعى وخلقى واقتصادى وتشريعى ودستور كامل شامل لكل مايضطرب فيه الناس من شئون الحياة ، كما يدعى الإسلام ، وكما يثبت قرآنه ، وكما طبق ونفذ فعلا فى ماضيه .

وخامسة : لم يدع اتباع دين من الأديان العالمية الكتابية وغير الكتابية ، أن لديهم فى دينهم تشريعات وأنظمة حضارية ، وقوى مادية وروحية ، كفيلة بانقاذ هذه الحضارة ، من إلحادها وفجورها كما يدعى الاسلام.

فالإسلام بلا ريب ، هو القوة الإيمانية الربانية الباقية فى هذا الكوكب ، ومن هنا كان يمان اتباعه رغم ضعفهم ووهنهم ، وفقدانهم لبأس دينهم وروحه العالية ، بأنهم وحدهم يملكون انقاذ العالم من عذاب غليظ ، توقد لهبه الحضارة القائمة .

إنهم ليؤمنون بأنهم خلاصة الأديان السماوية كافة ، وأنهم أمناء الله على رسالاته وكلماته ، وشهداؤه على الناس ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكون شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وإنهم يوم يعودون إلى دينهم من جديد لاينقذون أنفسهم فحسب ، بل ينقذون الإنسانية كافة ، ويحيون دين الله الذى ارتضى لعباده .

وهم من ربهم على موعد وعهد وميثاق ، أن يهبهم النصر من لدنه غلاباً قوياً ، وأن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وأن يزكى قواهم ويسدد خطاهم يوم يعودون من جديد إلى مولاهم « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

وقد جرت سنة الله ، أنه كلما وهنت حضارة وانحلت ، عقيدة وأخلاق ، ظهرت حضارة من جديد ، فتية عزيزة لتأخذ ، بيديها زمام العالم ، وكلما أخذت الجاهلية فى السموق والشموخ ، ظهرت دعوات لله منقذة مؤمنة ، ترد الإنسانية بأمر ربها إلى محاريبه ومنائره .

ولن يتخلى الله عن عباده وهم أكرم خلقه ، ولن يترك خليفته على الأرض لهذا الضريم المتأجج ، والبغى السافر ، والإلحاد الكافر (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

وأخيراً ... هل يملك الإسلام ، أن يلعب هذا الدور العالمى ، وهل فى طاقته وفى امكانياته، أن يهيمن على هذه الحضارة ليردها إلى ربها .

وهل له قوة تعينه على أن يقوم بدور الفارس المنقذ للانسانية، من قبضة الشياطين ، وصيحة الجاهلية .

بل هل يستطيع الإسلام أن ينفخ فى روح أبنائه فيبعثهم من مستنقعات الذل التى ألفوها ، ومن أعماق الهاوية التى يصطرعون فيها ، هل فى طاقته أن يرسلهم وهم شراذم متفرقة ، فى ذيل القافلة العالمية ، قوة موحدة ، تمسك بالزمام ، وتخطو إلى الإمام .

قد يبدو ذلك فى منطق الذين لا يرجون أيام الله شيئا مستحيلا، لا يليق بتفكير العقلاء ؟ ولكنه فى منطق الإيمان ، بل وفى منطق الواقع التاريخى ، شيئا أقرب مما يظن أكثر الناس تفاؤلا .

فالعالم الإسلامى فى حاضره ليس أقل فى امكانياته وطاقاته ، ولا فى عزته وعدده وعدده ،من روسيا فى سنة ١٩١٧ ، يوم أن كانت نهباً مقسما بين الغول الألمانى الزاحف ، والفقر المذل المهيمن . والجهل

الخانق المطبق ، والانحلال السيد المتحكم ، والفوضى التى لاحد لآفاقها ، ولانهاية لتهاويلها .

ومع هذا استطاعت روسيا فى خلال ربع قرن ، أن تكون دولة عالمية لها سطوتها وقوتها ، بل ومعها شعوب عالمية تدور فى فلكها ، وتأتمر بأمرها .

والإسلام بقرآنه وسننه ومبادئه ، ونظمه وشرائعه ، وآدابه ومثالياته ، ليس أقل قوة والهاما ، وجاذبية وإشراقا ، من انجيل كارل ماركس ، وصيحات لينين ، والدعوة الشيوعية الحمراء ، التى استطاعت فى خلال ربع قرن ، أن تكون مذهباً عالمياً قائماً بنفسه ، عزيزا غلاباً ، مؤثرا فى النظم الدولية ، بل لقد استطاع أن يوقظ وعياً عالمياً فى الجماهير ، واستطاع فى غير جدال أن ينال من النظم التى تجاوره ، وتشاركه فى الحياة القائمة .

لقد وجدت الشيوعية رجالا يؤمنون بها ، ووجدت حواريين وسدنة يبذلون دماءهم فى سبيلها ، ويقدمون حياتها على حياتهم ، رجالا حملوا رايتها فأوردوها ساحات النصر ، ورفعوها فوق هامات الشعوب .

ووجدت روسيا الممزقة الذليلة المتأخرة ، فكرة اعتنقتها ، فجددت روحها ، وألهمت قلبها ، وأيقظت أحلامها ، ووحدت مثلها العليا ، فإذا بالضعف قوة . وبالفرقة وحدة ، وبالذل عزة ، وبالجمود وثبة .

لقد نشأ من التقاء الفكرة بالأمة ، تلك القوة العالمية ، التى بزغت جبارة ، عاتية رهبة لقوم ، وأملا يرتجى لآخرين .

لقد انتصر الباطل يوم وجد المؤمنين به ! ؟ ألا ينتصر دين الله ، يوم يجد رجالا . . !!

— ٣ —

شبهات حول الإسلام

ثم تأتى بعد ذلك شبهات حول الإسلام ، وهى شبهات تثور وتغلى ، وتندفع فى أفواه الشباب ، ولحون الشيوخ .

شبهات تسمعها فيما يتجادل فيه الناس بأقلامهم وألسنتهم ، وفيما يتحاورون به فى مجالسهم وطرقاتهم ، شبهات عنيفة جامحة ، ترددها الرأسمالية حينا ، ويبعثها دعاة الشيوعية أحيانا ، ويثيرها الاستعمار دائماً ، وفى ثراكهم وفى عنائهم ، ينساق جانب ضخم من الأمة الاسلامية .

وفى طليعة تلك الشبهات . صيحة بأن العودة إلى الإسلام ، هو بعث لتشريع الصحراء ، وعودة إلى حياة البداوة ، وأنه لا يجوز فى فى منطق العقلاء ، أن نحبس الطاقة الإنسانية المتطورة ، فى عقائد ونظم وقيم ، كانت ملائمة لسكان الجزيرة العربية وما حولها ، قبل أربعة عشر قرنا ، أى قبل أن تتسع رقعة الدنيا ، وتسمو معارف الناس ، وتشرق أنوار تلك الحضارة .

ثم ما هو موقف الإســـلام من تلك الحضارة ، بثقافاتها وفنونها ومعارفها ، وما منحت البشرية من مصانع ومعامل ، وبنوك وشركات ، وحريات للقول ، وحريات للعقائد ، ومساواة طبقيـة ، وعدالة اجتماعيـة ، وما هو موقفه من الفنون الجميلة ، وهى ثمرة مباركة من ثمرات الحضارة القائمـة ، من تصوير ونحت وتمثيل وسينما ومسارح ومراقص وأغانى وموسيقا .

وهل تعود المرأة إلى حياة الحريم ، رقيقا تضرب عليها الحجب ، وترخى عليها السجف ؟!

وهل نسلم الحكم إلى رجال الدين ، ليعودوا بنا إلى جاهلية الحكومات المقدسة وإلى الحاكم المطلق ولى النعم وظل الله فى الأرض ؟!.

وما هو موقفنا من الشيوعية ، وهل نملك نظاما اقتصادياً أكمل من نظامها ، وأرضى للجماهير مما تملك ، هل عندنا تحرير طبقى كما حققت الشيوعية لأربابها ؟ وأليس من الخير أن نهرع إلى الدين الجديد القائم القوى؟ نلتمس لديه عوناً وعدلا ، بدلا من أن نضرب فى الظلمات ونسبح وراء الماضى البعيد .

وهل دولة القرآن هى الدولة المثالية ، التى تمنح العالم أمنه وسلامه ، وتحميه من الذئاب التى تتواثب حوله ، والمتفجرات التى يخنق دخانها حياته ، وهل فى طاقة الإسلام أن يهب الدنيا حضارة أزهى من هذه الحضارة الضاحكة ، وهل يتمتع الناس تحت لوائه بما يتمتعون به اليوم ، من مناعم ومباهج ، وترف كريم ، وعلم فاتح منتصر .

وماذا نفعل بالأقليات غير الإسلامية التى تعيش بيننا ! وماذا نفعل لو تألبت علينا أوربا وأعلنتها حرباً مقدسة ! ؟ حرباً صليبية جديدة ، بكل مافى الحروب الدينية ، من عنف وبطش وتدمير .

ثم ما للأديان والتشريع والحياة ، إن الأديان كتباً مقدسة للخير والبركة ! وفضائل خلقية تتعلق بالسلوك الخاص ! وأشواقا قلبية لمن ينشد العزاء لدى المجهول ! ثم لاشأن لها بعد ذلك بتصريف شئون الحياة . والبت فى قضاياها .

وتأتى بعد ذلك شبهات أخرى ! :

ماهو الإسلام !؟

هل هو الذى نشاهده مطبقا فى بعض البقاع الصحراوية ، حيث تتجلى الفوارق الاجتماعيـة الهائلة بين الحاكمين والمحكومين ! ! وحيث لانرى سموا ولا ارتفاعا فى المقاييس الخلقية والعمرانية والاجتماعية والمدنية .

أم هو الذى نشاهده فى طوائف المتصـوفة وأذكارهم ومواكبهم، وما تحتوى عليه من دراويش ومجاذيب من مخلفات الانسانيةالجاهلة!!

أم هو الذى نراه فى طوائف انتسبت إلى السنة ، ونادت بها ، ثم قبعت داخل قماقم لاتتصل بالنور ، ولا تتعرف إليه ، واكتفت من الحياة المتحركة الصاعدة ، بمظاهر شكلية لاتتعدى الزى والهيئة ، والجمود على بعض تقاليد ، ليست من الحياة ولا من الدين .

أم هو الذى نراه فى تلك الطائفة التى تسلحت بالناب والمخلب ، وانطلقت تدبر فى الظلام ، وتتآمر على الخراب !

أم هو الذى نراه واضحا على سمات المتزمتين المتعصبين الذين يريدون أن يضربوا على وجه المرأة بالأقنعة ، وعلى الفنون بالحجر ، وعلى الحضارة بالموت .

شبهات مجنحة فى وجه الإسلام ، وفى وجه الدعاة له ، شبهات تعالت وسمقت ، فكانت أسواراً مدرعة تحجب عن المسلمين حقيقة قرآنهم ، وحقيقة رسالتهم .

وبكلمة واحدة ليس هذا هو الإسلام ، وإن تعالت تلك الشبهات ، وإن سمقت تلك الاسوار ، فالاسلام ليس ملكا لفرد ، ولا لجماعة ، ولا لأمة ، إن الإسلام كتاب كريم مطهر محفوظ ، لا يزول ولا يتغير ولا يدنو منه تحريف ، ولا يتطاول إليه عبث « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين».

هذا الكتاب الربانى الكريم هو الإسلام ، وفى أعقابه وعلى أثره سيرة رسوله العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، وسنته وأحكامه وتبيانه للناس .

يقول الصادق الأمين

« أتيتكم بالمحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وتركت فيكم ، ما إن أخذتم به لن تضلوا . كتاب الله وسنة رسوله » .

ومن كتاب الله وعلى هداه ، ومن سنة رسوله وعلى نورها ، ومن واقع الحياة الاسلامية الصادقة ، ومن روح الفكرة الاسلامية المتطورة نقدم هذا الكتاب . عارضين للاسلام من جديد ، ـ وما جديده إلا قديمه محجبة بيضاء ، وحنيفة سمحة ، وحياة سامقة طاهرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها . ودينه الذى ارتضى لعباده ، ليحكم بين الناس بالقسط ويبعثهم على الصراط المستقيم .

الاسلام كعقيدة تعبدية ، وقانون تشريعى ، ونظام اقتصادى ، وفلسفة للحكم ، ورسالة للأخلاق وعدالة اجتماعية .

[كدستور شامل لكل ما فى الحياة دستور كامل ، تتسع آفاقه لكل ماتتطور إليه المجتمعات الانسانية ، والثقافات العلمية ، والألوان الحضارية ، أيا كانت زمانا ومكانا .

الاسلام الذى جاء كما قال البطل الاسلامى : زهرة ، لرستم قائد الفرس ، ليخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ، ومن جور الحكام إلى عدالة القرآن ، ومن ضيق الجهل إلى سعة الايمان ، وأن الناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم .

الاسلام الذى حرر الفرد ، ضميرا ووجدانا ، وقولا وعملا ، وعقيدة فى غير استهتار أو نزوات ، وحرر الجماعات من رق الفوارق وسموم الحقد ، فى غير صراع ولا شهوات ، وحرر المحكومين من قبضة الحاكمين إلا بالعدل والحق ، فلا طاعة فى معصية ولا استجابة فى باطل ، وحرر الأمم من شهوة الاستعمار ، فلا عدوان ولا قتال للتملك والاستعلاء ، فان بغت أمة على أمة ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، وحرر كل شىء سواء أكان ماديا أم روحيا بكلمة واحدة ، هى ميزان السموات والأرض ، وهى صلات الناس ، وهى عدالة الخلق ، وهى عقيدة الدنيا : لا إله إلا الله

فلا خوف من طاغية ، ولا رعب من ظالم ، ولا نفاق لزائف ، ولا خديعة لربح ، ولا جزع لمصاب ، ولا تمرد لشهوة ، لأن كل هذا وما يجرى فى عنانه ، ينافى كلمة التوحيد ، كلمة الحرية ، كلمة العدالة ، لا إله إلا الله

الاسلام الذى جعل المال مال الله . وعباده فيه مستخلفين ، لخيرهم ولخير الناس ، فلا احتكار للارزاق ، ولا ملكية تقول أنا حرة التصرف فيما أملك ، فالمال ، ليس ماله وإنما هى موظفة فيه للخير العام ، فان

انحرفت فالمال مال الجماعة ، وان اكتنزت وتضخمت ، لاحقتها القوانين ولاحقتها حقوق المحرومين والعاطلين والغارمين ، لأن الله لايحب أن يكون المال دولة بين الأغنياء .

والأرض لمن يفلحها ، لمن يزرعها بنفسه ، فان لم يفعل ثلاث سنوات فقد عطل مرفقا عاما ووجب أن تنتزع منه ، وتعطى دون مقابل لمن يحييها ويزرعها .

الإسلام الذى فرض لكل انسان بيتا وزوجة وعملا ، يتكفل أجره بحاجاته على السعة ، من كساء وغذاء ودواء ، من غير ضيق ولاعسر ، فإن لم يجد فعلى بيت المال أن يقوم به وبأسرته ، حتى تدبر الدولة له عملا ، فإن الحاكم مسئول عن أقوات الرعية .

الاسلام الذى فرض لكل جاهل معلما يعلمه ، ولكل أعمى قائدا يأخذ بيده ، وأمر بان تكون المكتبات فى الحدائق العامة للناس جميعا حتى ينعم الشعب بصحة الجسد ، وصحة العقل .

الاسلام الذى جعل فريضة مقررة فى بيت المال لكل مولود يولد فى الاسلام ، ويمشى الاجر مع حياة الطفل صعودا ، حتى يبلغ أشده ويأخذ حظه ، من التعليم ، أو الصناعة ، أو التجارة ، أو الجندية .

الاسلام الذى حدد وظيفة الحاكم فجعله راعيا يسوس الناس لخيرهم ولاقامة شريعة ربهم ، وهو بعد كاحدهم لايجوز له أن يكون له فى مطعمه وملبسه ومركبه أكبر مما يطيق أواسط الناس ، وجعل له على المسلمين الطاعة والنصيحة والعون مادام على الصراط ، فإن انحرف فكتاب الله الفيصل ، والأمر شورى ، والحقوق قضاء ، والافالصيحة الاسلامية الحرة

«لو رأينا فيك أعوجاجا، لقومناه بحد سيوفنا» فى غير بغى ولاعدوان ، والسيوف هنا ، هى إرادة الكثرة .

الاسلام الذى يدور تشريعه مع الحياة مع الصالح العام ، فى غير ضيق ولا حرج ولا تعنت ولا جمود فيقول قرآنه (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) ويقول رسوله « لاضرر ولا ضرار» .

فإينما وجدت المصلحة فثم شرع الله « كما يقول الإمام الطوفى » وحيثما وجد الضرر وقفت الحدود « سدا للذرائع » كما يقول المالكية « والله جل جلاله يحب لعباده الرحمة واليسر والسعة ، ويكره أن يصيبهم الضيق والضرر والشدة ، ولقد سن لهم شرائعا لتحقق لهم مايحب ويرضى ، فشرائع الله تدور مع الخير واليسر « أينما وليا وجههما » كما يقول ابن القيم ، ورحمة الله على عائشة إذ تقول « ماخير رسول الله بين أمرين ، إلا اختار أيسرهما » .

الإسلام الذى يحب العزة ويكره الذل ، ويجعل الخير فى اليد العليا ويقدس يد العامل لأنها يد كادحة صانعة ، حتى ليأمر الرسول بتقبيلها ويقول « أنها ليد يحبها الله » ويجعل من يهضم حقها أو يأخر أجرها خصيما لله ، كما يكره أن يرى إنسانا فارغا من عمل الدنيا ، أو عمل الآخرة لأن الفراغ حليف الشيطان .

الإسلام الذى وحد البشرية كافة ، فلا ألوان ولا جنسيات ولا عصبيات بين الناس ، بل الجميع سواسية لاتفاضل إلا بالتقوى وليست التقوى عبادة فحسب ، بل إن العمل الصالح فى الدنيا ، العمل

الصالح الذى ينفع الناس ويدفعهم خطوات فى طريق العلم أو فى طريق الرفاهية ، لهو أكبر التقوى .

الإسلام الذى يرقب صدور الناس وقلوبهم ، كما يرقب أعمالهم وألحانهم ، ثم لاينظر إلى وجوههم وأموالهم ، لأنها ليست شيئا فى موازين الخير والإيمان .

الإسلام الحضارى ، الرءوف الرحيم بكل ذى كبد حى ، حتى لتدخل امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ويدخل الجنة رجل رأى كلبا ظامئا فى الصحراء فسقاه فغفر الله له ، فأدخله جناته ، الإسلام الذى نهى عن القسوة أيا كان موضعها ، حتى لينهى عن المثلة بالكلب العقور .

الإسلام الذى جهله اتباعه فنكثوا عهد الله ، وتخلوا عن رسالتهم العالمية ، وافسحوا الطريق للجاهلية ، وأطفأوا أنواراً أراد الله لها أن تضىء ، وأغلقوا أبواباً للخير ، كانت هدى ورحمة للعالمين .

ونحن بهذا الكتاب ، نحاول أن نقيم للتشريع القرآنى نظاما سامقا مقارناً بكل التشريعات العالمية ، ونظاما اقتصادياً كاملا مقارنا بكل الأنظمة الدولية ، ونظاما لسياسة الحكم ، مقارنا بكل الأنظمة التى تهيمن على عالمنا .

ونظاما حضاريا اجتماعيا علميا متطورا ، له فكرته عن الحياة والعلم والمدنية ، وله رسالته فى العدالة الاجتماعية ، والأنظمة الطبقية ، والحريات فردية وعامة .

وبذلك نسهم فى تمزيق الحجب التى تحول بين المسلمين وبين فجرهم

المرتقب ، ونقدم ذخيرة للوعى الإسلامى الصاعد ، ونضع لبنات فى بناء القاعدة الإسلامية ، التى تجذب إلى قطبها البناة والدعاة ، وندفع الفكر الدينى المتطور ، ليجرى مع التطورات الحضارية العاملة فى الحياة .

فإن وفقنا فإنما التوفيق من الله ، وإن عجزنا عن الوفاء بما يبلغ بنا الغاية . فحسبنا أن نكون أدلاء فى الركب ، وحداة فى القافلة ، بل حسبنا أن نثير فى القلب الإسلامى تشوقا وأملا ، وأن نضع فى طريقه الذى يخنقه الضباب ، مصباحا يرشد إلى كلمات الله .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » ؟ ! . .

طه عبد الباقى سرور

الإسلام وحضارة الغد

أصدرت المطابع الأوربية أخيرا كتابا باسم : «الحساب الأخير» تحدث فيه مؤلفه ـ جوستاف يونج ـ عن الحساب الأخير الذى اقترب؟ الحساب الأخير الذى سيتولى القيام به العالم الإسلامى ، ضد أوربا الاستعمارية ، والصهيونية التى تحاكيها .

وخلاصته . إن العالم الإسلامى قد أفلت من قبضة الموت ! الموت الذى اعده ونسق اكفانه الاستعمار الأوربى ، وأن العالم الإسلامى قد ابتدأت العافية تدب فى أوصاله ، وأنه يسرع الخطا إلى الشباب ، إلى القوة من جديد ، ليصفى حسابه مع الإستعمار والصهيونية ، وهو حساب عسير رهيب ، ولهذا يسميه مؤلف الكتاب «الحساب الأخير»

وتحت عنوان : «الصناعات الفنية والخطيئة» نشر الوجودى المسيحى جبريل مرسل بحثا قال فيه :

إن حرب اللاويا ثانات ـ وهو حيوان أسطورى هائل ـ قد أصابها من الشمول ماجعلها بمثابة جريمة عامة ضد الحياة .

وإن القنبلة الذريه ، قد إرتفعت بالتهديد بالفناء ، إلى الكوكب الأرضى كافة ! ؟ أجل لا يزال ثمت احتجاج ينطاق فى إستحياء هنا وهناك باسم الشفقة على الحياة ـ لكن الصناعة الفنية التى لاترحم ـ يرى أصحابها الصفوة ! أن هذه الشفقة على الحياة ، صارت أمرا تتضاءل أهميته يوما بعد يوم حتى ليمكن اهماله ، ولهذا فقد دخلنا فعلا آمنا بذلك أو لم نؤمن مادامت الإنسانية أصبحت على أهبة الانتحار ، نقول إننا دخلنا فعلا فى عصر نشورى .

هذا من حيث المظهر الخارجى ، ومن حيث الباطن إن كنا نمن

يحتملون من غير تسليم بذلك ، سماع صرخة العدالة من حناجر البائسين الذين احتوشت عليهم المصانع الحاشدة فاوقعتهم فى مضايق مشابكها . هناك نستشعر لمس خطر الخلاص يقبل علينا من أمم أخرى خلف أسوار الحياة الأوربية » .

ونشرت المجلة الفرنسية «الله حى» مقالا قالت فيه « بينما نشاهد أنه قد أنشىء حديثا فى باريس لجنة مسيحية للتفاهم بين فرنسا والإسلام فى نفس الوقت الذى تدأب فيه اقلية من الزعماء الاستعماريين فى أوربا وأمريكا على معامله الـ ٤٠٠ مليون مسلم الذين فى العالم ، معاملة المنحطين بينما يحدث هذا كله ، يحك فى صدورنا الشعور بان الانسان الكامل ، لن يكون هذا الإنسان الآلى الذى توجده الهندسة الصناعية المغرورة التى يهىء أسبابها ، التقدم الفزيائى الكيمائى ، بل أنه سينبثق من الأوساط الإنسانية متخذا صوت قاض ، قد الجىء إلى النطق بالحكم الفاصل .

وللفيلسوف الألمانى الكبير شبلنجر كتابا باسم «افول الغرب» قرر فيه أن الحضارة الأوربية طغت فيها المادية على الروح ، وهذا بداية النهاية لها ، رغم ماتخدع به البصر ، من التقدم العمرانى والمادى .

ثم يقول : وما مرحلة الحضارة الحالية إلا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى ، فهى سائره بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة ، تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله .

ثم يقول : إن الحضارة دورات فلكية ، تغرب هنا لتشرق هناك ، وإن حضارة جديدة أو شكت على الشروق فى أروع صورة هى حضارة الاسلام ، الذى يملك اليوم أقوى روحانية عالمية نقية » .

والمتتبع للمكتبة الأوربية ، يرى سيلا من الكتب المتلاحقة ، تبكى حضارة أوربا الغارقة فى اللهب. المنبعث من مصانعها ومعاملها ، وترثى قلبها الذى أوشك على الهمود ، بعدأن جحد والحد ، وابتعد عن رب الحياة وخالقها .

وفى الوقت نفسه ، تتحدث هذه الكتب عن الإسلام فى حسرة ومرارة ، الإسلام الذى أوشك أن يصفى حسابه مع الإستعمار ، حسابه الأخير الحاسم ، كما يقول جوستاف يونج .

الإسلام الذى سينبثق من أوساطه ، الإنسان الكامل ، هاتفا بصوت قاض رهيب ، ناطقا بالحكم الفاصل . كما تقول المجلة الفرنسية ، الله حى .

الإسلام المنبعث من خلف الأسوار الأوربية يحمل رسالة الخلاص للعالم ، كما يقول جبريل مرسل .

الإسلام الذى أو شكت حضارته على الشروق ، لأنه يملك وحده ، أعظم القوى الروحية النقية المنقذة كما يقول شبلنجر

ذلك هو الغـــد الذى ينتظر الإسلام ، وتلك هى نظرة المفكرين الأوربين إلى قوته وروحانيته ، ووثبته العالميه القادمة ،

وليس معنى إستشراف العالم الينا ، وترقبة لاشراقنا المنقذ ، أن يطيش الميزان فى ايدينا ، فنظن أننا حقا قد بدأنا الخطا الجبارة إلى الغاية الكبرى .

إن من يرقب نهضتنا ، ويتنبأ بغدنا ، إنما يرصد الأفق الإسلامى الأعلى ، فيلمس الطاقات الروحيـــة الهائلة المنبثقة من لحن قرآننا ، ويحس وهج البأس الشديد ، المدخر فى عقيدتنا .

ولقد انفصل ما بيننا وبين الاسلام من عهد وميثاق ، وبعد ما بيننا وبين حقائقة من روابط وصلات ، بل لقد انقلب الإسلام العظيم مسخا مشوها فى ايدينا ، فاصبح العملاق السيد عبدا ذليلا .

يقول العلامة «ليوبولد فايس» (١) (إن الحياة الإسلامية فى الواقع تظهر على كل حال فى إيامنا الحاضرة، بعيدة جدا عن الامكانيات المثلى التى تقدمها التعاليم الدينية فى الاسلام . من ذلك مثلا ، أن كل ما كان فى الاسلام تقدما وحيوية ، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا وكل ما كان فى الإسلام من قبل، كرما وايثارا ، أصبح اليوم بين المسلمين ضيقا فى النظر ، وحبا للحياة الهينة .

ثم يقول أن ثمت سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين ، وذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا اشياء فشيأ ، يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية، فنتج من ذلك أن الاسلام ظل بعد ذلك موجودا ، ولكنه كان جسدا بلا روح ثم أن العنصر الذى خلق قوة العالم الاسلامى من قبل ، هو المسئول عن ضعف المسلمين ؟ فان المجتمع الاسلامى بنى منذ أوله على أسس دينيه وضعف هذا الأساس، قاد بالضرورة، إلى ضعف البناء الثقافى فيه . وربما كان سببا لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهما لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية ، وعظم ناحيتها العلمية ، ازددت رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها ، تطبيقا تاما على الحياة الحقيقية » .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ١١ .

وهذا السؤال الذى يراود هذا الرجل الأوربى ، الذى هدى الله قلبه للاسلام ، هو السؤال الطائر الحائر اليوم فى أفق العالم الإسلامى .

لماذا هجر المسلمون دينهم ؟! ولماذا نفوا كتاب الله بعيدا عن حياتهم ، ولماذا نبذوا أنظمة القرآن وشرائعه ، عن أن تكون حكما بينهم ، ونورا يأخذ بأيديهم ، كما أخذ بأيد المؤمنين من قبل ؟!

إن الوعى الإسلامى اليوم ، فى يقظة متحركة ، فقد اجتاز العالم الإسلامى مرحلة الموت ، ولكنها يقظة مهزة ، تتعثر فى كل خطوة ، بفجوات شق لحدها ، الجهل والضعف ، وتصطدم فى كل وثبة بعوائق شامخة كالأسوار أقامتها تقاليد جاهلية ، وعادات بدائية ، وظلال حضارة مادية شهوانية وتيار عام ، انحرف وطال إنحرافه عن روح الإسلام وهداه .

إنها نهضة تشق طريقها فى الضباب والدخان ، وتلتمس السبل ، لاهثة الانفاس ، مخدرة الحواس ، لم تتبين بعد نجمها ، ولم تهتد إلى صراطها .

فكل مسلم بيننا يتحدث عن الاسلام ، وعن نهضته ، ويحلم بغده ، ويتمنى على الله الأمانى ، أن يسود ويهيمن ؟! وهو لا يفقه هذا الإسلام ولا يبذل جهدا صادقا فى نصرته .

وكل مسلم اليوم ، يتلو كتاب الله ، أو يستمع إلى آياته ، وهو يؤمن فى خشوع ، بانها كلمات الله وهداه ، ويؤمن بأن الله ، قد حد حدودا ، وسن قانونا ، وشرع شريعة ، وأن كل ما سن وشرع لعباده ، فهو خير وهدى ونور ، ورحمة للعالمين .

يؤمن بكل هذا قولا ، ويقسم عليه تأكيدا ، ولكنه إذا دعى إلى

التطبيق ، أوطلب منه أن يعمل لعودة الاسلام، كاملا بدستوره وتشريعه ونظمه ، أذهلته المفاجأة ، بل أغضبته ، لأنها ستحمله رسالة الكفاح والنضال ، وهو يريد الاسلام غير ذى شوكة ، يريده هينا لينا رغوا لاجهاد فيه ولا عناء .

إنها لمفاجأة كبرى ، لم تمر يوما بخاطره ، ولم تعش لحظة فى خياله ، لأنه امتلأ عقلا وقلبا ووجدانا ، بما تلقنه الحضارة القائمة ، كل يوم ، وكل ساعة ، من أنها قد منحته من لدنها نظما وعدالة وديمقراطية ، هى اسمى ماعرف البشر ، وأعلى ماشهدت الحياة .

ولأنه قد امتلأ ، عقلا وقلبا ووجدانا ، بما يقذف فى تفكيره كل يوم وكل ساعة من الاقلام والألسن ، وغير الاقلام والألسن، من أدوات التعبير والإبانة ، من أن الأديان حسب المرء منها عبادات واخلاقيات وسلوك خاص .

فاذا صلى وزكا ، وحج وصام ، وسبح الله وذكره آلافا وآلافا فهو عبد مؤمن تقى نقى ، له جنات عرضها السموات والأرض ، وحور عين يملأن الآفاق .

فاذا تسامى إيمانه ، فحسبه وحسب دينه منه ، أن ينكر بقلبه ، ويخضع بعمله . والحيرة كما يقول ، فيما اختار الله .

وهذا الفهم الخاطىء ، أضر بالاسلام من الكفر به ، لأنه أهدار لروح الاسلام، ولأنه تمزيق بشع لكلمات الله ، وإيمان بآيات وكفران بآيات ، وعصيان صريح سافر لله ولرسوله .

فمن لم يحكم بما أنزل الله ، فقد كفر بكتاب الله وفسق بعقيدة الإيمان

واستبدل الأدنى بالذى هو خير ، هذا هو حكم القرآن .

« وأن أحكم بينهم بما انزل الله ، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك — فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

والاسلام إما أن يأخذ وحدة كاملة ، عبادة وتشريعا ، وحدة ربانية لا تتجزأ ولا يمسسها باطل ، ولا يدنو منها لغوب ، وإما أن يترك كله ، حتى لا يصاب بالشلل والتشويه والجمود.

فمن أقام الصلاة وأبطل الجهاد ، فقد مزق الاسلام ومات ميتة جاهلية ، وعاش على شعبة من نفاق ، هكذا علمنا رسول الله ، وبهذا نادى القرآن .

والزكاة فريضة ، والحج فريضة ، وكفاح الغاصب فريضة مقدسة ، وكلمة الحق فريضة مقررة . فلا زكاة لمن استكان لمستعمر ، ولا حج لمن خنع لطاغية ، ولا تقوى لمن رأى حدود الله ، ولم يقل فيها قولا ، ولم يرق فيها جهدا .

فسياسة الحكم ، وفنون الاقتصاد ، وحقوق الأفراد والجماعات . فى القضاء والقصاص ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومكارم الأخلاق والفضائل النفسية على اختلاف ضروبها وألوانها ، أوامر إسلامية قرآنية من حاد عنها فقد بطلت صلاته ، وبطل حجه وصيامه ، « ومن لم يدع قول الزور وشهادة الباطل ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »

ومن عجب إننا إذا قلنا لمسلم مثلا ، لا تصلى ثار كالزوبعة ، وغضب

كالعاصفة ، وظن أن السماء قد دمدمت بالغضب ، والأرض تفجرت باللهب ولكنه يرى الدنيا سلاما وأمنا وابتساما ، وحدود الله معطلة وشرائعه مهدرة ، وفرائضه منبوذة مقهورة .

أى فرق بين فريضة الصلاة . وشريعة الله ، الم يعتبر أبو بكر وصحابة رسول الله، منع الزكاة ردة كافرة ، تسل فيها السيوف وتستباح فيها الدماء ، وتقدم معركتها على كل معركة فى تاريخ الإسلام

يوم يفقه المسلم هذه المعانى ، ويوم يدرك أن العبادة لاتنفصل عن التشريع ، وأن الاسلام لايقوم بشق واحد ، ولا يحيا مفصول القلب عن الرأس ، يومئذ يفرح المسلمون بنصر الله ، ويومئذ تعود للدنيا راية الايمان والاسلام والسلام .

وصلوات الله على رسولنا فقد كانت سنته إذا عاد مريضا أن يقول «اللهم اشف عبدك ، يشهد لك صلاة أو ينكأ لك عدوا» وتلك رسالة الاسلام ، عباده لله وعمل للحياة .

إن الاسلام ليس بالأمانى ، ولكنه جهاد لايهدأ ، وعمل لايفتر ، وطاعة متصلة ، وعزة قائمة ، وكلمة لله حاكمة .

فان أرادنا أن نعود إلى الاسلام مؤمنين به كما أنزله الله . عبادة وتشريعا وعملا للدين والدنيا ، فان أرادة الله معنا ولا غالب لنا يومئذ

وان قنعنا بقسمة الاسلام إلى عبادات وتشريعات وأخذنا منه أهون الجانبين على أنفسنا ، وقنعنا بغير ذات الشوكة نصيبا ، وقلنا فى كل مسألة اسلامية تدعو إلى الكفاح كما قال عصاة اليهود لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» أو بتعبير مسلمى اليوم إن للدين ربا يحميه

وانتظرنا أن يأتى الله فى ظلل من الغمام والملائكة ، ليدفعوا عنا ماجنت أيدينا ، فليس انا من دنيانا إلا تلك الحياة الذليلة الخانعة المجللة بالخزى المكللة بغضب الله ، وليس لنا أن نتمنى على ربنا الأمانى الكذاب .

« وأتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » .

ولقد رأى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، رجلا يتعبد بالحصى ويقول « اللهم زوجنى الحور العين ! ؟ فقال الرسول . بئس الخاطب أنت ! ؟ أتخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى ! ؟ » .

وغفر الله لهذا الأعرابى الساذج الأبله ! ؟ فلقد ورث المسلمون اليوم ، عقليته وهمته وغفلته ، فكلهم اليوم هذا الاعرابى الحالم ، ولبئس الحالمين .

يعبثون ويحلمون بالعزة والقوة والحرية ، ويطقطقون بالمسابح ، بينما تضرب بلادهم بالمدافع ، وتطأ هاماتهم حوافر الكافرين ، ويحسبون أنهم عبدوا الله فأحسنوا العبادة ، وأدوا رسالة الإسلام كما جاء بها رسوله ، وآن لهم أن يظفروا بملك الدنيا . وبالحور العين يوم القيامة .

لم يبق من الإسلام إلا عبث بالحصى ، وأحلام باليقظة ، ثم اخلاد إلى الارض ، ولصوق بالتراب ، وأن يتمنى الكسالى الأذلة ، على الله الأمانى .

إن الإسلام ليس دين الكسالى الأذلاء ، ولا دين المسبحين

بالحصى ، الحالمين بحور النساء ، ولا دين العجزة الذين لا يدفعون ظلما ، ولا يحمون راية ، ولا يزجون خيلا فى سبيل الله .

إن الإسلام أخلاق ومثاليات وعبادات ، ونظم ومبادىء وتشريعات ، ولكنه من قبل هذا وذاك ، قوة ذات بأس وصولة ، قوة تعلو بها كلمة الله ، وتصان بها الأخلاق والعبادات ، وتعيش تحت ظلالها الأنظمة والتشريعات ، قوة إذا زالت ، زالت العبادات ، وضاعت الأخلاقيات ، واختفت التشريعات ، وعلت كلمة الجاهلية ، وصلوات الله على رسولنا العظيم الذى هتف فى وجه الدنيا

« أنا نبي الرحمة أنا نبي الملحمة ، أنا الضحوك القتال » .

إنه صلوات الله عليه لنبي الرحمة بكل مافى الرحمة من مثاليات ، ولكنه إذا جد الجد ، أو خدش الحق ، فهو نبى الملحمة ، حتى تعلو كلمة الإيمان .

إنه الضحوك اللين ، السمح الكريم ، الرءوف الرحيم ، حتى إذا أوقد الظلم ناره ، أو اعتدى المعتدون على حدود الله ، فهو القتال شديد البأس ، يقول على رضوان الله عليه « كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس واحمرت الحدق ، لذنا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

وصلوات الله على الصادق الأمين إذ يقول « بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

روى أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى سننه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق تداعى الأكلة على

قصعتها : فقال قائل : ومن قلة يومئذ يارسول الله ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء ، كغثاء السيل ! ؟ ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : وما الوهن يارسول الله ، قال : حب الدنيا وكراهة الموت .

الأمم من أقطارها من كل أفق ، تتداعى على المسلمين بالأنياب والمخالب ، مفترسين نهمين إلى المأدبة الذليلة ، إلى الطعام الدسم الهين ، وما هذا الطعام السائغ اللين ، إلا لحومنا وبلادنا .

صورة صادقة كاملة ، للتحالف العالمى ضد الإسلام ، التحالف العالمى الذى مزق حريتنا واستعبد بلادنا ، وتألب على قضايانا فى مجامع الشعوب ومجالس الأمم .

صورة فيها بلاغة النبوة ، وفيها صدق المرسلين .

وعجب المسلمون الأولون أولى البأس والعزة من أن يذل المسلمون ولو أطبقت عليهم الأمم من أقطارها ! ؟ فقال قائل ، أمن قلة يصاب المسلمون يارسول الله ؟! قال الصادق الأمين . إن المسلمين يومئذ كثير ، ولكنها كثرة كغثاء السيل ، صورة رسمها نبى ، بل أكبر الأنبياء ، صورة أربعمائة مليون مسلم يموجون من المحيط إلى المحيط ، لا يغلبون من قلة ، ولكنهم غثاء كغثاء السيل .

ولك أن تتصور الغثاء ، تلك الرغوة الهينة التافهة السابحة على وجه الماء والموج يضربها والرياح تمزقها ، لاتتماسك ولا تقاوم ، لأنها اذل من أن تكون شيئا يتماسك أو يتطلع إلى كفاح .

ثم توضع الألوان والظلال على الصورة المهينة ، ولينزعن الله من صدور عدونا المهابة منا . ويقذف فى قلوبنا الوهن .

قال قائل من المسلمين الذين لا يعرفون الوهن لأنه ليس من لغتهم، وما الوهن يا رسول الله قال : حب الدنيا وكراهة الموت .

بكلمة واحدة حسم الرسول الموقف كله . كراهة الموت ، وحب الدنيا ، ذلك هو الفيصل بين ماضينا وحاضرنا ، وذلك هو الحكم فى موازين الضعف والقوة

إننا اليوم المواد الخام أرضا وأناسا ، يشكلها السيد الذى يملكها كما يشاء ، ويسخرها كما يحب ويعدها لتكون وقودا لنار حربه ، وسلاحا فى وجه خصمه .

إنها لصورة ذليلة ، ولكن هذه الصورة لا ترسلنا إلى اليأس ، وإنما تدفعنا إلى العمل على الصراط المستقيم ، لقد رسمت الداء والدواء وبينت مسببات الضعف ، وملهمات القوة ، واليأس من النصر ، ضد كتابنا وضد ديننا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، والله جل جلاله قد أعطانا وعدا ربانيا صادقا «إن تنصروا الله ينصركم» — وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين — .

إننا لا نزال نملك وحدتنا الاسلام ، ولا يزال كتاب الله بيننا ، ولا تزال سنة رسول الله ميراثنا ، وهذا وحده يجعلنا قوة عالمية ترتجى .

إن بيننا وبين النصر خطوة واحدة ، بيننا وبين العزة والقوة أن نمسك بكتاب الله وأن نعيد التحالف معـــه ، وأن نعود مسلمين من جديد .

ويومئذ تتكرر المعجزة التى أرسلت نصف مليون عربى كانوا هم كل

سكان الجزيرة العربية فى عهد الرسالة ، أرسلتهم فاذا بهم يرسمون بسيوفهم حدود الأرض ، وينيرون بكتابهم آفاق الحياة .

إن الإسلام هو السلاح السحرى السرى ، السلاح الذي تفوق طاقاته كل أسلحة الهول التى أعدتها الجاهلية ، إنه لقوة اذا تفجرت فى القلوب لاتصد دفعاتها قوة فى الأرض .

(يقول أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حينما سئل عن معجزة الفتح الكبرى . ماانتصرنا بعدد ولاعدة وإنما بشيء وقر فى الصدور من هذا الدين) .

إننا غثاء كغثاء السيل بدون عقيدة ، ولكننا بعقيدتنا أصلب القوى العالمية . إننا كالمصباح الذى انطفأ نوره فجأة ، والمصباح عامر بالزيت ، ينتظر النار التى تشعله ليغدوا نورا وهاجا

لقد ضرب علينا بالوهن ، لأننا أحببنا الدنيا وكرهنا الموت . وضرب علينا الذل لأننا عبثنا بالحصى وحلمنا بالحور العين ، وكتب علينا التأخر ، لأننا زعمنا الإسلام وأهملنا كتاب الله .

إننا نستطيع بضربة واحدة أن ندير محركات قوانا من جديد ، فبلادنا الإسلامية هى محور الأرض وقلب العالم ، ومواردنا هى التى تدير عجلات الحضارة ، ودينا من وجهتيه الروحية والمادية لايزال بالرغم من العقبات الهائلة التى خلفها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة عرفها البشر

على هذا النور الاسلامى ترانا اوربا ، وتتنبأ بأننا خلفاء حضارتها بل منقذيها .

المسلمون على مفترق الطرق

منذ أربعة عشر قرنا وقف يهودى من علماء التواره الربانيين على أحد آطام يثرب يرقب السماء ، ويرصد الآفاق ، منتظرا حدثا كونيا . وعلامة بين الكواكب ، هى الفيصل بين الجاهلية ، وأيام الله

وفى ذات مساء ، أخذ يصيح، طلع الليلة نجم أحمد ؟ نجم التوحيد. نجم الخير والهدى للعالمين .

لقد كان الأسلام ممثلا فى رسوله ، نجما تترقبه الدنيا ، وتتطلع اليه البقية المؤمنة ، ومن جديد تتطلع الدنيا، وترقب المؤمنون نجم أحمد ؟ نجم الاسلام ، وسيعود النجم باذن الله وأمره ، لينقذ الآنسانية من الجاهلية القائمة ، كما أنقذها منذ أربعة عشر قرنا من الجاهلية الذاهبة

وواجب كل مسلم أن يسهم فى تمزيق الحجب التى تخنق النجم وتحجبه عن الأبصار ، وتعوقه عن الأشراق ، وفريضة على كل مفكر فى أى بقعة من بقاع العالم الأسلامى ، أن يدخل المعركة فورا بكل قواه ضد الظلام ، وفى سبيل النور

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى:

فكل مسلم اليوم هو رسول إلى قومه ، وكل مؤمن هو خليفة لنبيه، وكتاب الله بيننا ، هو شريعتنا ومحجتنا وهدانا ، وهو أمام كل نهضاتنا

روى الترمذى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أنه قال . سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ؟؟ قلت يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفيصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره ، أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم» .

والنهضات اليوم لا ترتجل ، وإنما تبنى لبنة لبنة ، بأيد الصناع المهرة المدربين ، وتعد خطوطها العريضة فى رؤوس المفكرين ، وقلوب المؤمنين وعقو المشرعين ، وتلسق قواعدها ، وتنسج دروعها فى معامل العلماء ، وصحف الاجتماعيين ، وأندية الاقتصاديين .

إن النهضة الإسلامية يجب أن تخرج من نطاق الكلمات الجوفاء ، والصرخات الرعناء ، والعصبيات الحمقاء ، والدعوات المرتجلة ، والحماسات الجاهلة ، إلى ساحات التنظيم والأعداد ، والتلسيق الكامل والكفاءة العلمية ، والخبرة الفنية .

يجب أن يمسك بزمامها العلم المؤمن ، والوعى اليقظ المتطور ، والخلق الرفيع الواقعى ، والقلب الخاشع الحى ، والحزم المتوثب المحدد ، والفداء الحكيم الصاعد إلى الله بغاياته وأهدافه ، حتى لا تنحرف أو تضل ، أو تتفرق بها السبل .

يجب أن ترتكز على بعث عقلى جديد ، يقوم على اكتشاف الاسلام من جديد ، بكل مافيه من إمكانيات وقوى وصلاحيات عالمية ، وأن يستضاء فى كل هذا بالمصدرين الأساسيين للاسلام ، كتاب الله وسنة رسوله ، كما يوضع فى الميزان مناهج الحضارة الإسلامية فى عصورها

الإيمانية ، وما رسمته للمجتمعات البشرية من نظم وتشريعات . وما حققته لأبنائها فى ميادين العدالة الاجتماعية ، والقوة الاقتصادية ، والعظمة العلمية ، والكفاءة الحربية ، والمثاليات الأدبية والخلقية .

وأن تساهم الأقلام العالمة المستنيرة فى هذا البعث وتسانده ، بالدراسات المتلاحقة ، التى تعنى أول ما تعنى بتقديم دستور اسلامى ، أساسه الشورى والحرية والمساواة ، والعدالة الاسلامية الشامخة ، وتشريع قانونى ، من الأفق الاسلامى ، يمشى على قدميه حيا تشاهده الأعين وترى فيه جوابا واقناعا وعلاجا لكل ما تضطرب فيه من شئون حياتها ، وتعرض أنظمة اقتصادية اسلامية مدروسة محررة محددة ، تسامق الأنظمة الاقتصادية الدولية ، وتكفل إقامة مجتمع إسلامى عالمى ، على دعامات اقتصادية متفوقة ، أنظمة اقتصادية ، يقرها الوضع الحضارى ، ويقبلها المنطق الاقتصادى ، ويرضى عنها الإيمان الإسلامى .

كما تعنى برسالة الإسلام الاجتماعية ، ونظمه التعليمية ، وموقفه من التشريعات العمالية ، والمجتمعات المهنية . وما فرض من قداسات للحريات والعقائد ، وما قدم من حلول حاسمة لكل ما تحتاج اليه حياتنا المتشابكة وما يلابسنا من تيارات عالمية وما يحيط بنا من مشاكل دولية .

كما يجب أن تحدد موقفنا من هذه الحضارة المادية المنحلة ، ذات البريق العلمى الباهر ، والروح الجاهلى الملحد الفاجر .

هذه الحضارة التى تسللت إلى عقولنا ، وعاشت فى قلوبنا ، وأخذت علينا سبل تفكيرنا وضربت على أبصارنا الرغبة والرهبة ، وهيمنت هيمنة كاملة على أخلاقنا ونظمنا .

هذه الحضارة التى تضاد الإسلام ، روحا وتقنينا ، وتخالفه صراحة . فيما يتنـــاول من شئون الحكم ، وفيما يرسم للمجتمعات من عادات وأخلاق ومثاليات .

والإسلام بناء كامل ، له أفقه الحضارى ، وله جهازه الثقافى ، وقانونه التشريعى ، ومجتمعاته التى تقوم على الأخلاق ، ومدارسه التى ترتكز على الروح والآداب ، ومثالياته التى تبنى عليها الحياة ، وتصعيده لكل عمل من أعمال الدنيا إلى الله .

وهو أعز من أن يفنى فى غيره ؟ وأكبر من أن يذوب فى ثقافة تجاوره ، ولقد أنزله الله دينا سيدا مصدقا لمـــا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، وجعل من كل مؤمن به إماما للناس ، يقود مواكبهم للحق ، ويأخذ بأيديهم إلى كلمات الله .

إنه دين ورث النبوات والرسالات كافة ، وارتضاه الله أفقا لجامعة الرسل ، وعنوانا لكل كتاب مقدس ، فأى تنازل منه فى ميادينه التشريعية والخلقية والتعبدية ، هو اهدار لكل الأديان ، وتفريط فى أمانة الله ، ومساندة للجاهلية .

ولكنه أيضا لا يعرف الجمود والتزمت ، والانفصال داخل الأسوار إنه لدين يمشى بالحياة ولا يقف ، ويمتد مع الناس إلى الخير ولا ينكص

إنه رسالة للدنيا ، كما هو رسالة للأخرى ، رسالة للعلم والقوة ، وإنه ليتناول من وسائل العلم والقوة ، كل ما يهيئه للوصول إلى الذروة ، وكل ما يعينه على أن يكون القوة الأولى .

وعلى هذا الضوء نحدد موقفنا من الحضارة القائمة ، نأخذ منها مسببات

القوة والبأس الشديد والعلم العريض ، ونعرض عن تحللها وعدوانها ، وجاهليتها الشهوانية الملحدة .

إن من مقومات نهضتنا أن ننتفع بالمعارف العالمية التى كسبها الانسان فى تطوره التاريخى ، وأن نضم إلى قوتنا الذاتية تلك القوى التى تعمل فى حقل الحضارات المعاصرة ، وأن نقتبس من نظمها كل نافع لنا ، وكل معين على نهضتنا .

علينا أن ننتفع ببرامجها فى الأعداد والتنظيم والانتاج ، وأساليبها فى الدرس والتحصيل والابتكار ، وأن نأخذ من قوانينها العامة المنتقاة كل ما لا يتعارض مع روح الاسلام .

كما يجب أن ندرك أننا فى عصر صناعى جبار ، ولا حياة لأمة لا تبنى نهضتها على بأس الحديد وطاقات المعادن ، وتفجرات خواصها ، ولا وجود لشعب ينطوى على نفسه داخل القماقم .

إننا لا نتشبه بأوربا ، ولا نذوب فى حضارتها ، ولكننا لا نجحد صولة ما وصلت اليه من قوى ، ولا عظمة ما ابتكرت من معارف ، ولا إشراق ما نظمت من فنون وبرامج .

وعلينا أيضا أن نحدد موقفنا ، ونحن نتناول الاسلام من جديد ، موقفنا مما ابتلى به الاسلام من طوائف ونحل ومذاهب ، مزقت وحدته وطمست أنواره ، وبددت قوته وطاقاته .

وما أبتلى به المسلمون ، من إنحراف وضلال فى فهم الرسالة العامة للاسلام . والروح الشاملة لعقيدته .

إننا بعث جديد للاسلام من جديد ، بكل مافيه من تطور وتحرر ، وبكل ما اشتملت عليه آفاقه وانطوت عليه أجنحته .

إننا لا نعرف الاسلام مذاهبا سياسية أو كلامية ، كما حاول الخوارج أو المعتزلة ، ولانعرف الاسلام جدلافقهيا ، وحوارا فلسفيا وعزلة صوفية ، ولا نعرفه ممزقا بين مبتدعة وسلفية .

إننا نؤمن بالاسلام القرآنى ، الاسلام ذى الافق الشامل العام الحى المتطور ، الافق الذى يسع التصوف ، كما يسع الفقه ، ويحتضن السياسة ، كما يتبنى الاقتصاد ، ويرضى عن المادة ، رضاؤه عن الروح

إن من أسرارضعف النهضات الاسلامية التاريخية . أنها كلها حركات جانبية تتناول جزءاً من الإسلام ، وتهمل أجزاءاً ، وتقبع فى زاوية حادة تدير وجودها الإيمانى بأسره حولها، معرضةعن الزوايا الأخرى، بل ومحاربة لها ، ومبددة لكل قواها فى سبيل هذه الحرب الطائشة .

لقد شـــاهد المسلمون عبر التاريخ ، دعاة للإصلاح ، ونهضات للكفاح ، وصيحات للإيمان ، ولـكنها فشلت جميعها ، ورأينا مصرعها لأنها لم تكن متماسكة القوى ، متوازنة التفكير .

كان منها الحركة السياسية التى تنادى بالسياسة وتهمل العبادات ، وكانت فيها الصيحة الدينية التى تجمد على التقوى،ولا تعترف بالاقتصاد وكان بعضها روحانيا ، ينادى بالروحانيـة الإسلامية ، ويتنكر لمـا سواها ، وبعضها عقليا ، يحيل الإسلام فلسفة للحوار والجدل ، ويحيل العقيدة إلى متشابهات وتفريعات .

هكذا فعل ابن تيمية، الذى حصر كل دعوته الإصلاحية الانبعاثية فى زيارة القبور !؟ والتوسل بالصالحين !؟ وشـفاعة الرسول !؟ ومشاهد أهل البيت ؟! وشطحات الصـوفية !؟

ومن بعده جمال الدين الأفغانى ومدرسته ، واحمد خان وعصبيته ، ومحمداقبال وأنصاره ، لقدجعلوا الاسلام سياسة فحسب ، وأهملوه اجتماعا واقتصاداً وتشريعاً .

ومن قبلهم ومن بعدهم وعلى اليمين وعلى الشمال طوائف متلاحقة متعاقبة من المتصوفة صبوا قواهم الفارغة ، ووجهوا جماهيرهم الضخمة، إلى تيار واحد ، هو تيار الروحية ، ولم يرفعوا أعلامهم فى غير ميادينها، ولم يدفعوا جماهيرهم إلى غير ساحاتها .

إن هؤلاء وهؤلاء وأضرابهم واشباههم ، لم يقوموا بشريعة الله ، ولم يفقهوا كتابه ، ولم يستنيروا بسيرة رسوله ، ولم يتبينوا رسالة الإسلام وأهدافه .

فالإسلام ليس تصوفا ، ولا سياسة ، ولا اقتصادا ، ولا اجتماعا ، ولا عبادة فحسب ، إنه كل هؤلاء جميعا ، ومن سائر هذه الفروع تتكون القاعدة الكبرى ، وينبثق الأفق الأعلى .

إن معجزة الإسلام ، وهى معجزة المعجزات ، أنه أفق عالمى يمشى مع الفطرة الإنسانية للناس كافة ، ورسالة عامة ارتفعت على الزمان والمكان ، لتكون كفاء لحاجيات الانسان أياً كان هذا الانسان زمانا ومكانا .

أفق رحب وسع النفس البشرية بكل ما ركب فى هذه النفس من قوى ، ووسع القلب الإنسانى بكل ما يحتوى عليه ، ويتطلع اليه ، واتسع للعقول على اختلاف مواهبها ومداركها ونظرتها إلى الحياة وتناولها لشئونها .

ورسالة عالمية ، تسوس الناس جميعا . وتفصل فى قضاياهم ، وتبنى

حياتهم ، وتهديهم إلى خير السبل فى التشريع والتقنين ، وأكمل السياسات فى الحكم والتنظيم ، وأعلى المثاليات ، فى الأخلاق والاجتماع وأسمى المبادىء فى الاقتصاد والآداب . ولا ينهض الإسلام إلا مرتكزاً على هذه الأنظمة كافة ، ولا يثب إلا بقوى المسلمين عامة .

وإننا إذ ننادى بعودة التشريع والسياسة والاقتصاد إلى الأفق الاسلامى ، فإنما نطالب بأن يستكمل هذا الأفق مقومات وجوده ، ودعائم سموقه ، وأن ينبثق من هذا الالتقاء ، الروح الاسلامى الذى يطبع الحياة بطابعه ، فيعرف المسلم بسيماه ، ويقرأ فى وجه كلمات الله .

هذا الروح الذى نريده حيا مهيمنا فى التربية والتعليم والمعاملات ، كما نطالب به أخلاقا فى بيوتنا ، وإيمانا فى تفكيرنا ، ونهجا فى واقع حياتنا .

فاذا تكون لدينا هذا الروح ، واستند إلى العقيدة الكاملة ، وأمده مجتمع صالح ، قوى متطور ، مسلح بوعى صناعى يمشى جنبا إلى جنب مع المفتوحات العالمية الصناعية .

إذا اجتمع للمسلمين روح دينهم . وشرائع قرآنهم ، وأخلاق نبيهم ، مع ثقافة العلم التجريبى ، وحضارة المصنع الأوربى ، أصبح للمسلمين ما لأوربا ، من صناعة الحديد وبأسه ، وخواص المعادن وقواها وأصبح لديهم ما ليس لأوربا من عدالات اجتماعية واقتصادية وسياسية وروح إيمانى متصل بفاطر السموات والأرض ، وطاقات روحية ، تكبح عنان الشهوات ، وتعصم من النزوات ، وتطفىء هذا اللهيب المستعر بالحقد والخصومات .

وأنا أعلم اننا لا نملك تعويذة سحرية نطلقها ، فتعود الحياة الاسلامية فجأة إلى مجتمعاتنا ، ولا نهيمن على طلسم خفي ، نرسله فاذا بالقوانين الإسلامية ، والشرائع القرآنية قائمة بيننا .

ولا أقول اننا بأوضاعنا الحاضرة ، أصبحنا مهيئين لعودة هذه الحياة فجأة ، لتحملنا على أجنحتها البيضاء إلى قمة الحياة البشرية .

لست ازعم هذا ولا ذاك ، وإنما أنادى بضرورة العمل السريع لوضعنا فى مرحلة انتقال تعدنا للحياة الاسلامية الجديدة .

وعلينا أن نعد من الآن الرجال الذين يحملون أعباء التنفيذ لشرائعنا الجديدة ، نعد المواطن الصالح . والصانع المؤمن ، والموظف الأمين ، والعامل الراضى ، والحاكم التقى المقتدر ، والقاضى الفاهم لروح الإسلام وبجوار كل هذا ، الدراسات العامه التى تضع بين أيدينا الأنظمة الكاملة لكل ما ننادى به وندعو إليه .

إننا اليوم على مفترق الطرق ! ؟ فإما أن نصل سريعا إلى ربط وجودنا بعقيدتنا ، شريعة واقتصاداً ، وحكما وعبادة وأخلاقا ، فنصبح قوة عالمية ، لها حضارتها ورسالتها وبأسها القوى الغلاب المؤثر فى الحياة .

وإما أن نبقى القطيعة بيننا وبين الله ، وبيننا وبين الإيمان ، بيننا وبين كتابنا المقدس ، ويومئذ ليس لنا من الحياة ، إلا المكان الذليل ، فى المؤخرة من الركب العالمى ، وفى الذيل من هذه الحضارة ، حضارة الجاهلية الشهوانية الملحدة .

« وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به »

دولة القرآن

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

هذه الآية الكبرى من سورة النور. هى أفق الإسلام الأعلى، وهى تاريخ المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم وغدهم، وشرعة الله بيننا، وحجته علينا إلى قيام الساعة.

وهى الميثاق الأعظم، والعهد القدسى، الذى ارتضاه سبحانه، ليكون الميزان القسط بينه جل جلاله، وبين تلك الأمة التى اصطفاها لتكون خير أمة اخرجت للناس، وزكاها وطهرها وارتضاها لدينه، وأكمل عليها نعمته. وأسبغ عليها عطاياه. ظاهرة وباطنة.

فإن وفت بالميثاق، وحفظت العهد، وقامت بالإيمان، واستضاءت بشريعة الله، وحكمت بكلماته واستظلت بقرآنه، ونفذت حدوده، وحملت راياته، وعبدته عبادة لا شريك له فيها من هوى مطاع، ونفاق ورياء، ومن جبابرة وطغاة، وأصنام الشهوات، وآلهة الرغبات؟! منحها جل جلاله، تأييده القوى المنتصر، وأسلمها زمام الأرض، واستخلفها فى ملكه وعباده، وأفاض عليها من أمنه وسلامه، ومكن لها دينها مهيمناً سيداً.

فان جحدت وبدلت كلمات الله ، وتبذت شرائعه وأهدرت أحكامه وتعدت حدوده ، ورفعت لواء الجاهلية ، وأشركت فى عبادته هواها وشهواتها ، وما تخشى ممن يدب على الأرض ، وما ترجوه ممن له سطوات وبأس ، ألبسها لباس الذل ، واطلق عليها عواصف الرعب ، وتركها بين مخالب الناس ، وأفواه العباد ، يستباح حماها ، وتهدر عزتها ، وتستعمر مرافقها ، وتتحطم راياتها .

إنها لآية فاصلة ، وبرزخ مبين ، يرسم خطا بيانياً لا يمسه باطل ، ولا يدنو منه بهتان ، فان آمنت أمة القرآن . الايمان القرآنى ، بواجباته وتبعاته وأماناته ، فإن الله جل جلاله لا يخلف وعده ولا تتأخر كلماته .

وإن انحرفت وحادت ، فنبذت شرائع الله وأبطلت حدوده ، فاولئك هم الفاسقون الكافرون ، وأولئك هم الأذلون المبعدون

إنه لوعد الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أوفى بعهده من الله ؟!

وهى آية ترسل النور ، من بين دفتى الكتاب المقدس الطهور ، إلى قلب كل من يؤمن بها . آية قائمة لا تزول ولا تحتجب ، بل تطلق دائماً أبداً فى الأفق الإسلامى أملا متجدداً حياً .

آية لو فقهناها لاتخذناها عيداً ، وطفنا بها محجة ومنارا ، والتمسنا فى ظلالها نهضة إسلامية كبرى ترتكز على موعد من الله وميثاق .

لو آمنا وعملنا صالحاً لتبدل خوفنا أمنا ، وذلنا عزاً ، وضعفنا قوة ، ولاستخلفنا سبحانه فى أرضه كما استخلف آباءنا من قبل ، سادة أعزة ، مهيمنين أقوياء ، يصرفون شئون الحياة ، ويأخذون بأيديهم زمام العالم .

والإيمان الذى يضىء فى الآية ، يتشعب إلى شعبتين ، هما قوام الإسلام وروحه وأفقه ، العمل الصالح ، والعبادة الخالصة لله .

فما هو الإيمان الذى ينجب العمل الصالح ؟! وينبت العبادة الخالصة التى لا شرك فيها ، هل العمل الصالح المضىء فى الآية ، هو ما اصطلح علية المسلمون اليوم ، من صلاة وحج وصيام ، وزكاة فحسب ؟ وهل عبادة الله عبادة تخلو من الشرك والشريك ، هى ما تردده اليوم شفاه المسلمين من تسبيحات ودمدمات ، وحلقات للذكر ، وبجالس للمناجاة .

يجب علينا أن نعود إلى كتاب الله نستلهمه ونسترشد به ، وأن نستضىء ونحن نتلمس الطريق إلى الهدى بمقدمات هذه الآية ، التى تكون معها وحدة متناسقة متماسكة ينير بعضها لبعض ، ويكمل بعضها بعضا ، وأن نصعد إلى الأفق الذى بزغت فى سماواته ، أفق سورة النور سورة التشريع والتقنين وأحكام الله ، وصيحة الجهاد فى سبيله .

نزلت هذه الآية الكريمة والآيات التى سبقتها لتكشف الستار عن أدعياء الإيمان ، الذين تفنعوا بالصلاة والصيام ، وقالوا آمنا بالله ورسوله ، ثم وقفوا موقفا عجبا من التشريع الإسلامى ، لقد قسموا هذا التشريع المحكم إلى قسمين . فان كانت الأحكام فى صالحهم تنادوا بها ، وإن كانت عليهم أعرضوا وناءوا ودندنوا بأنها قاسية مجحفة ، لاطاقة لهم بها ولاجلد لهم عليها .

ووقفوا من الجهاد موقفا مريضا رخواً ، فقد تخلوا عنه وتهربوا منه ولصقوا بالأرض وأخلدوا إليها ثم اعتذروا عذر المنافقين ، لو دعانا الرسول لخرجنا ! ؟

وصفهم القرآن العظيم صفعات دوت فى التاريخ ، ولا تزال تدوى منـــذرة كل من أعرض عن شريعة الله وأحكامه وحدوده ، وجهاد فى سبيله

وإليك آيات النور من سورة النور .

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ، قل لا تقسموا طاعة معروفة ، إن الله خبير بما تعملون ، قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم .. إلخ »

هذه هى مقدمات هذه الآية العظيمة ، وهذا هو جوها وظلالها ، وعلى هذا الضوء ، نفهم الإيمان الذى يريده الله ، ونفهم العمل الصالح ونلمس عبادة الله التى لا شرك فيها ، العبادة التى تهيأ المسلم لخلافة الأرض وسيادة الحياة ، العبادة التى تقيم مع الله عهداً وميثاقا للنصر .

فالذين يقولون آمنا بالله وبرسوله ، ويكتفون من هذا الإيمـــان

بالعبادات ، فاذادعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، تولوا وأعرضوا ، فما أولئك بالمؤمنين ، إن فى قلوبهم لمرض وارتياب وخوف ان يظلمهم الله ورسوله ؟! أى تظلمهم شرائع الله وحدوده ، فاولئك هم الظالمون .

إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ، ويخشى الله ويتقه فاولئك هم الفائزون .

ومن هنا تتحدد معانى التقوى ؟ إن من يتقى الله ويخشاه ، هو من ينفذ شرائع الله ولا يرتاب فى عدالتها ولا يرهب جورها وشدتها ، هو من يسمع ويطيع فى إيمان وثقة ، إذا دعى إلى الحكم الإسلامى والحدود الاسلامية ، والأنظمة القرآنية ، التى هى عدالة الله فى أرضه وحق العباد فى دينه وهديه .

والمنافقون المرتابون يتحلون الأعذار أبدا ، إن فى قلوبهم لمرض ، وفى أعصابهم لوهن ورهق ، وفى أفئدتهم لرعب وجزع ، ومع هذا يقسمون كاذبين لو أمرهم رسول الله بالخروج للجهاد لخرجوا ؟؟ قل لا تقسموا طاعة معروفة ؟؟

طاعة معروفة ، تعبير قرآنى موجز معجز . طاعة ذليلة جبانة لاتحتمل جهادا ولاتطيق كفاحا ، طاعة رخوة هينة . تقواها زائفة عاجزة ، لا تكلف صاحبها إلا ركعات فى صلاة ، وإمساك عن طعام فى صوم ولا تريق له دما ، ولا تعرضه لحد من حدود الله ، يقوم بواجباته كما يقوم بنصرته .

أرأيت هذا الإيمان ، إنه الايمان الهش الذى لا ينتصر . وإنها

التقوى المغرضة التى لا تعبد الله خالصة ، وإنما تخشى معه العباد والشهوات ، فهى شرك صراح .

تقوى تهرب من الأفق الأعلى ، فلا ترضى بحكم الله وشرائعه ، خشية أن تحيف تلك الشرائع أو تقسو ، أو تتطلب جهادا وكفاحا .

هؤلاء الأتقياء المزيفون أدعياء لقطاء لا ينتسبون إلى الاسلام عليهم ماحملوا من أوزار ، ليسوا من الله ولا من رسوله ولا من المؤمنين وليس لهم من وعد الله بالنصر نصيب .

إن المؤمنين حقا الذين بذل لهم ربهم وعدا وعهدا ، علامتهم وسمتهم ، إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، قالوا سمعنا وأطعنا ، وإذا دعوا إلى الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا نفروا مسرعين فرحين

هؤلاء هم الأتقياء البررة عبدوا الله على المنشط والمكره على الهين والقوى ، اتقوه فى شرائعه وعبدوه فى حدوده ، وأطاعوه فى فرائضه وسننه ، أولئك لهم الخلافة فى الأرض ، والأمن والسلام والدين الذى ارتضى متحكما سيدا مهيمنا .

وعد الله قائم للمؤمنين الذين يقيمون حدود الله وينفذون شرائعه ، ويقومون بالجهاد ، ويعبدون الله لايشركون معه عبدا من عباده ، أو هوى من أهواء الشهوات والنزوات .

هذا هو الفيصل . إن عدنا إلى حقائق هذه الآية أشرق علينا وعد الله بالنصر والتمكين والخلافة ، والطريق واضح ، والايمان معروف ، وكتاب الله هو الحجة البيضاء . والنور الهادى إلى سواء السبيل .

« لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

إن كتاب الله لينادينا أن نخرج من الظلمات ، وأن نقبل على النور ، وأن نرتضى رضوان الله فى شريعته وحدوده وأنظمته ، لأنها وحدها التى تهدينا سبل السلام ، وتقيم حياتنا على الصراط المستقيم ولأنها وحدها هى العبادة التى لا تشرك مع الله أحدا ، إنها الطاعة العالية والجهاد الأكبر ، الذى يستنزل وعد الله من فوق سبع سموات بالنصر لنا والتمكين لديننا .

إن أعجب العجب فى حياة العالم الإسلامى ، لهو هذا الاعراض الأعمى عن كتاب الله وشرائعه وحدوده ونوره ، واستبداله الأدنى بالذى هو خير ، وتتبعه لخطوات الشياطين ، وانغماره فى ظلمات الجاهلين

هل نسى المسلمون قرآنهم ؟ هل جهلوه ؟ هل اختفى من أفقهم ؟ هل ابهمت كلماته وغامت لحونه ؟

إن آى القرآن اليوم لتحملها الأجنحة الكهربائية إلى كل بقعة فى الكوكب الأرضى ، وتدخل بها على الناس بيوتهم وأنديتهم ، وتتسلل مع الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إلى مخادعهم وفرشهم ، تقرع آذانهم أينما كانوا ، وتصافح وجودهم حيثما اتجهوا وساروا .

وما استمع المسلمون إلى قرآنهم ، وما جودوا ألفاظه ، ورققوا ألحانه ، وأوقفوا على حفظه الهبات والخيرات كما يفعلون فى حاضرهم .

وبيننا بعد ذلك مآذن عالية تردد صيحة الأسلام ، ومعاهد شامخة البنيان تتخصص فى الإيمان ، ومساجد يخطئها الحصر تدوى بذكر الرحمن .

ومع هذا فما جهل المسلمون قرآنهم كما يجهلونه فى غمار هذا الدوى . وما نبذوا دينهم كما ينبذ ويقهر ، وما أهملت شرائعه كما تهدر وتهمل .

كأنما القرآن رسالة لغيرنا ، وكأنما الإسلام دين لسوانا ، وكأنما هذا النور المبين طلاسم وأحاجى ومبهمات لا نفقه لها لحنا ولا نستبين منها هدى .

وإلا فهل يعقل أن يستمع المسلمون إلى كلمات الله ، مصبح اليوم وممساه ، وعصره وضحاه ، مبينة مضيئة هاتفة بأحكامه وشرائعه وسننه وآدابه ورسالاته . فلا تحرك قلوبهم ولا تثير أحاسيسهم ولا تهدد إيمانهم ، بل لا تدفعهم إلى الانتفاضة الهائلة ، والعودة السريعة إلى سبل السلام ، التى تخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتهديهم صراطا مستقيما .

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

وأى غفلة أكبر من أن نمزق هذا النور الإلهى ، ونحطم هذا الصراط الربانى . ونعرض عن وعد الله وميثاقه ، وعهده لنا ، ونجعل من أنفسنا حكما على كلماته وشرائعه ، نأخذ منها ما يوافق هوانا ، وننبذ ما يثقل على شهواتنا وعزائمنا .

لقد قنعنا من الإسلام العظيم بتسبيحات وصلوات ، وعبادات لا روح فيها ولا حياة ، أما حكم الله فى سياسة الدولة وشرائعها ، وحدوده وفرائضه ، وما أضاء فى سنن الاجتماع ، ونظم الاقتصاد ، ومثاليات الأخلاق ، وما قرر من حقوق وواجبات للفرد والمجتمع والدولة والحياة ، فشىء فى القرآن ذكره ، وليس على المسلم اليوم حكمه .

إنها لطاعة معروفة ، طاعة من وصفهم القرآن بالخزى فى الحياة الدنيا ، والعذاب فى الآخرة

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »

لم يعد المسلمون اليوم يرجون لله وقارا ، ولا يخشون له عذابا ، ولا يقيمون لكتابه ميزانا ، فقد أضلهم الشيطان ولقنهم فلسفة عجبا ، تسمعها فى لحونهم خسيسة ذليلة كافرة .

ففريق منهم يؤمنون بقرآنهم ، عقيدة ربانية للعبادة والتشريع والحكم ، فاذا ناداهم القرآن بالوفاء بهذا الايمان ، قامت فلسفة الشيطان تريق حولهم السحر ، وتضرب على أعينهم بالوهم . وعلى آذانهم بالوقر وعلى عقولهم بالباطل .

إنهم لفى حرج من أمرهم ، وفى ضعف من أنفسهم ، وفى ضيق من عجزهم ، وفى ذلة أمام بأس خصومهم ولا طاقة لهم بأن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، وأن كل فرد منهم ، ليسعه مايسع الناس من صمت واستكانة !؟

ثم حسبهم بعد ذلك أفراداً وجماعات وشعوباً ، حسبهم من قرآنهم ، وحسبهم من إيمانهم ، وحسبهم من عقيدتهم ، صيام أيام معدودات ، وصلوات وتسبيحات ، ومواكب لها طبول وزمور تزجى إلى عرفات .

إنها لطاعة معروفة ، لا تحمل بأسا ، ولا تتكلف جهدا ، ولا تعين على حق ولا تنصر كلمات الله ، وإنها لتعبدات لا تغنى عنهم من الحق شيئاً ، ولا تزيل عن كواهلهم حكم الإسلام عليهم .

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها

وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره »

وفريق ثانى مثقف متحضر متحرر ! ؟ يمرق من أحكام الله ومن شرائعه مروق السهم ، وحجته وآيتـــه ، تعللات بالحضارة القائمة ، وتصوراتها وآدابها ونظمها ، وما يسرت للناس من أرزاق ، وما أقامت لهم من فنون ، وما أبدعت من مؤسسات واقتصاديات ، ونظم وتشريعات ، تضيق بالإســـلام . ويضيق الإسلام بها ، ولا سبيل لحياتهما معا !!!

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

وفريق ثالث ، جهل الإسلام ، وامتلأت رأسه بالنظريات الأوربية التى فصلت دولها عن دينها ، فهم لا يتصورون أبدا دينا سماويا ، حاكما أو مشرعا أو منظما للحياة وموجها لمواكبها .

وهم يتخيلون أن معنى الدولة الإسلامية ، أن تثب الذقون واللحى ويثب المتزمتون والمتعصبون إلى مناصب الدولة ومقاعد الحكم ، فيحيلون الدنيا إلى جاهلية بدائية . تنطفىء فيها مصابيح هذه الحضارة الباسمة المشرقة الفاتحة المنتصرة .

ثم تتطور هذه الدولة إلى خلافة مقدسة ، وحاكم هو ظل الله على الأرض . ومن ثم ، تسل السيوف المجاهدة لتغزو العالم ، وتغرقه فى الدماء .

ومعنى سيادة التشريع الإسلامى فى أذهانهم . أن تمتلىء الطرقات

بالأيدى المقطوعة ، والأجسام المرجومة والمشانق المنصوبة . حتى أن بعضهم فى حوار معى فى صحيفة سيارة قال بالنص :

« إن الإسلام أنبثق فى مجتمع وثنى بدائى ظالم ، فلم يكن معقولا أن يكلف الذين اعتنقوا الدعوة الناشئة أن يخضعوا لجاهلية هذا المجتمع أو يخنعوا لعدوانه ، ومن ثم وجب أن يكون لهم تشريع ينظم أحوالهم وأن يؤذن لهم برد العدوان ، ولم يكن معقولا أن يطفر التشريع عن ظروف ذلك المجتمع طفرة شاسعة بحيث يمكن أن يصلح لعصرنا الحاضر (١) .

يقول هذا القول مسلمون فى صحيفة اسلامية ، تصدر فى أمة اسلامية ؟ حاكمين على الاسلام بأنه دين جاء تشريعه لغاية واحدة ، هى أن لا يخضع الاسلام الناشىء لحكم الجاهلية التى جاء بين أهلها وأن يحمى أتباعه من الأجواء التى تحيط بهم .

وهذا التشريع الذى جاء به الإسلام تشريع يلائم البيئة البدائية ولا يسمو عن مقتضياتها ، بل ليس فى طاقته أن يسمو ليكون صالحا لبيئات أرقى ، وحضارات أعظم من تلك البيئة البدائية الجاهلة أو بمعنى أوضح . إن الاسلام لا يصلح ؟ ولا يليق بعصرنا وحضارتنا نحن أبناء القرن العشرين ؟

---

(١) من مقال فى الجمهور المصرى الصادر بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٥٢ بتوقيع الأساتذة — أحمد قاسم جودة ومحمد زكى سويدان ، ولويس دوس ، يهاجمون فيه دعوتى إلى سيادة التشريع الاسلامى .

وماذا لا يسمو هذا السمو الذى يؤهله للحياة بجوار الحضارة الأوربية ؟ لأنه لم يبح الزنا، وحرم الخمر والربا . وقطع يد السارق ؟ وهم لهذا لا يريدون بالتشريع الأوربى الراقى الحضارى بديلا .

« ألم ترى إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا »

وفريق رابع يزعم أن المسلمين كأمم وشعوب ، فى مرحلة ضعف ووهن ، وفقدان للعزة والسطوة ، وأنهم لهذا لا يستطيعون أن يتحرروا فى قوانينهم وشرائعهم ، بحكم صلاتهم بالعالم القوى الذى لن يسمح لهم بحرياتهم التشريعية ، ولقد لقنهم الشيطان شبهة عجيبة إذ أوحى اليهم أنهم اليوم أشبه بمسلمى مكة ، يتخطفهم الناس ، وتحيط بهم العداوات والمسلمون فى مكة لم تكن لهم شرائع حاكمة ولا حدود نافذة ، وإنما بدأت الشريعة تسود وتنفذ ، يوم انتقل الاسلام إلى المدينة ، وأصبحت له قوة تحميه ، وصولة تدفع عنه .

وغاب عن هؤلاء المتفيهقين أن شرائع الإسلام وحدوده ونظمه الحاكمة ، والآيات القرآنية الدالة عليها الآمرة بها ، لم توجد فى مكة ولم تنزل بها ، وإنما نزلت هذه الآيات فى المدينة حينما تكونت الأمة الإسلامية .

فكيف ينفذ المسلمون فى مكة شريعة لم تكن قد نزلت عليهم بعد ؟ وكيف يمكن المقارنة بين هذا العهد المكى وعصرنا . هل يمكن أن ندعى

أن القرآن الذى بأيدينا اليوم قد خلا من آيات الأحكام والحدود والشرائع . ؟

وهل لدى هؤلاء المفتين شهادة ربانية تجيز لهم تعطيل حدود الله وإهدار شرائعه أو وصية نبوية سرية بتقسيم القرآن إلى قسمين . قسم تعبدى نؤمن به ونقتدى بتعاليمه ، ونحافظ على آياته ؟ وقسم تشريعى نلغيه ونهمله ونعرض عنه ، ونستبدله بشرائع الأوربيين ، وأنظمة الغربيين .

«وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون »

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا»

« . . إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أمرك الله ولا تكن للخائنين خصيما » .

«وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق »

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »

« وإنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا واولئك هم المفلحون »

آيات هى النور المبين لا يدنو منها لغو ، ولا يمسها باطل ، ولا

تأخذ بأجنحتها تعلات المنافقين ، ولا تطفىء أنوارها دعاوى العابدين الطائعين ؟ أصحاب الطاعة المعروفة ، التى حدثنا القرآن الكريم عنها .

آيات ناطقة بأن الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده ، وأتم نعمته عليهم به ، هو دين ودولة وحكم وشريعة ، ومنهج ورسالة ، وإن من لم يحكم بما أنزل الله ، فقد مرق من الإسلام ، وبرىء من الإيمان وعصى الله ورسوله ، وأطفأ نوراً ربانياً ، وأشعل مواقيد الجاهلية .

إن الحكومة الإسلامية القائمة بأمر الله ، المنفذة لشرائعه ، الحاملة لرسالته ، المدافعة عن فكرته ، المستظلة بلوائه ، القائمة بأحكامه ، هى عنوان الإسلام ، وهى سمته ، وهى روحه وجوهره ، وهى عدل الله بين عباده ، وهى التقوى التعبدية السامية ، والطاعة العالية ، التى لا يرضى الله عن سواها .

ولا حياة الإسلام ولا وزن لتعبداته ، إذا لم تقم بين المسلمين تلك الحكومة ، لأن الله جل جلاله لم يرسل رسوله الأكبر بتشريعات العبادة فحسب ، بل أرسله بالنظام الأكبر الشامل المنظم للحياة كافة حتى تكون الحياة البشرية ، جديرة بالانسان الذى اصطفاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له الكون كله أرضه وسماواته ، وهل يمكن لرسالة عامة للدين والدنيا أن تقوم فى ظل أنظمة وقوانين وشرائع تضاد الفكرة الأساسية لتلك الرسالة ، وتتنافر مع ما أمرت وفرضت وسنت . ؟

وهل يمكن أن يحرم الله شيئا فنحله ؟ ويقرر حدوداً فنهملها ؟ ويفرض شرائع فننبذها ؟ ثم نزعم بعد ذلك بأننا مسلمون ؟ وبأننا أمة

القرآن ؟ وبأننا على الصراط المستقيم ؟ صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وهل نرجو من الله نصرا ، ومن لدنه تأييداً ، ونحن ننابذه العداوة ونبارزه الخصومة، وننازله ،ونقارعه قانونا بقانون،وفريضة بفريضة.

إن تحطيم فكرة الحكم الاسلامى ، هو تحطيم كامل لكل مقدسات الأسلام ، وانهيار شامل لحياتنا ورسالتنا كمسلمين لنا كتاب ، ولنا شريعة ، ولنا عقيدة .

إن الاسلام وحدة متماسكة ، وأنظمة يؤيد بعضها بعضا ، وعقائد متساندة ترتكز كل عقيدة على أخواتها ، وانتزاع أى لبنة من هذا الصرح الشامل يزلزل أسسه ، ويحطم بنيانه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه الاسلام دائما بالعرى المتماسكة ، ولقد حذرنا موقفنا اليوم فى الحديث الصحيح « .. لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة .. »

وهو حديث يلقى أشعته علينا لتجردنا من الزيف الذى نعيش فيه فلا وجود للصلاة إذا نقض الحكم الاسلامى ، ولا بقاء لأية عبادة ولا معنى لها إذا فقد العالم الاسلامى شخصيته المميزة ودولته القائمة وشريعته الحاكمة .

إن التشريع فى كل أمة ، هو روحها وقلبها ، ومكون فكرتها ، ومحدد أخلاقها ،ومنظم شئونها والمهيمن على توجيهاتها .

والحكم فى كل شعب ، هو مظهر السيادة ، ومجلى القوة للفكرة التى يمثلها الشعب ، وللعقيد التى يدين بها ، وللغاية التى يحيا من أجلها .

ولن تتكون الأمة الاسلامية ، ولن تقوم رسالة القرآن الكاملة إلا إذا وجدت الحكومة الاسلامية التى تستظل بالقرآن ، وتحمل اللواء الذى رفعه المؤمنون فى بدر،فى وجه الجاهليةالعالمية كافة ، أيآكان مكانها من هذا الكوكب .

إن الصيحة التى تنادى بأنشريعة الله التى ارتضاها لعباده وفرضها ، لاتلائم الحضارة ؟ ولاتمشى معالتطور البشرى؟ وتضيق بحاجيات الحياة للإنسان المتعلم الراقى ؟ لهى صيحة من صميم الجاهلية التى تحارب الإسلام وتتربص به الدوائر

وإذا كانت شرائع الاسلام فاسدة ، فعباداته كذلك ، وحتى لوسلمت العبادات ، ففساد الجزء يهدم الكل،وظهور العجز فى مادة يزيل القداسة والربانية عن المجموع .

والصيحة الثانية من صيحات الجاهلية التى تعيش بيننا ، وينتسب أربابها إلى الاسلام ؟ إن المجتمع الاسلامى الضعيف الواهن المتشابك المصالح مع الدول القوية غير الاسلامية لا يمكن ولا يتسنىله أن يطبق الاسلام شريعة ونظاما ومنهاجا ، خوفا من الصدمات الخارجية ، وإشفاقا من البلبلة الداخلية ، ورعبا من النكسة الاقتصادية .

وهى صيحة أكبر مقتا عند الله وإن بدت أهون منسابقتها،وأنعم ملمسا ، وأقرب إلى الاسلام، لأنها صيحةتسلم فى غير حياء ، بأنها تخشى الناس أعظم بما تخشى الله «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

ولأنها ارتضت الأمم غير الاسلامية ، حكما مطاعا فى عقيدتها ، تستأذنها،وتأخذ رأيها قبل أن تطيع أمر ربها !؟ ولأنها فكرت فقدرت أن شريعة الله شرها أكبر من خيرها ، وإثمها أكبر من نفعها .

هل شرع الله أيها المتعالمون الحكماء ، مافيه الضرر بعباده! ؟ وهل شرع الله أيها السادة الفضلاء ، شرا يحدث نكرا ، وتصدعا وانهيارا .

وإذا كان ما تقولونه حقا ، فلماذا نبقى مسلمين ! ؟ لماذا لاننبذ هذا الدين ، الذى لا تنبت حقوله إلا الشر والضر .

إذا كان هذا الدين لا يصلح للحياة ، ولا يؤدى للمجتمع رسالة ، ولايقدم الأمة قانونا سليما،وصراطا مستقيما.أيبقى بعد ذلك دينا مقدسا.

إما أن نكون مؤمنين بهذا الدين ، معتقدين من أعماق قلوبنا ،بكل قطرة من دمائنا ، بأنه دين كامل صالح ، تمطر سمواته الخير ، وتنبت أرضه السلام ، فننادى به فى عزة المؤمنين ، ونعرضه على أعين الناس ، فى يقين الواثقين ونطيقة على حياتنا فى طاعة المتعبدين ، وإما أن يكون فى قلوبنا شك وريبة من صلاحيته فلنكن رجالا إذا لم نكن مؤمنين ولنعلن على الناس إن الاسلام قد انتهى ، لقد كان دينا للبدائيين ، ولم يعد صالحا للمتحضرين، ولنبحث لنا عن دين سواه ، أو نرقى درجة فى سلم المدنية ، فنعتنق الإلحاد ، ونبرىء من الرسالات .

أليس هذا هو المنطق الصريح، إما أن نكون مسلمين أو لامسلمين ، فنريح هذا الدين ، ونريح أنفسنا ونفهم مكاننا من هذه الحياة ، ونحدد رسالتنا بين الأمم .

سيقول السفهاء من الناس، ماهذا الكلام المدوى المزلزل،وسيقول النائمون المخدرون ما هذا الجرس العالى المنذر ، وسيقول غير هؤلاء

وهؤلاء ،من أخدان النعام الذين وضعوا رؤوسهم فى الرمال، وعاشوا فى الظلام ، ورضوا به واطمئنوا إليه ، ماهذا النور الفضاح الذى يريد بعثنا من الرمال لنواجه هذه القسوة والصرامة ولنواجه تبعات جسام كنا فى غنى عنها ، وفى راحة منها .

ليست الحياة موطنا للجبناء !؟ ولا مكان فيها للعيون المغلقة، والعقول المخدرة ، والنفوس الهائمة فى غير هدى .

يجب أن نحدد موقفنا فورا ، فإن كنا لا نزال متمسكين بالاسلام ، مؤمنين برسالاته ، فلنقلب صحفنا ، ولنخلع أثوابنا ، ولنغير أفكارنا ولنجدد قلوبنا وعقائدنا ، ولننبذ تلك الفلسفة التى ضللتنا ، ولنعرض عن تلك الحياة التى خدعتنا ، ولنعد إلى أفق الاسلام ، نستضىء بكواكبه ، ونسترشد بشموسه ، ونتخلق بآدابه ، ونحكم بشرائعه ، ونتقلد عزته وصولته وبأسه .

يجب أن نؤمن أولا وقبل كل شىء ، أن الاسلام ليس مدنية بين المدنيات ، فيها النافع والضار ، وليس ثمرة لآراء البشر وجهودهم ، فيه الخطأ والصواب ، بل هو شريعة فرضها الله ، يوم فرض الايمان به ليعمل بها عباده لخيرهم وسعادتهم وعزتهم .

شريعة لم تكن للجزيرة العربية ، ولا لصدر الاسلام ، ولا للبدو الضاربين فى الصحراء ، بل هى صالحة لتعمل بها الشعوب صعودا فى معارج النور ، فى كل زمان ومكان .

وحكم موازينه فى يد الله ، وهى يد عادلة قائمة بالقسط ، لا تظلم ولا تجور بل تهدى إلى الخير ، إلى صراط الحميد المجيد .

وأن ندرك أن الذين يثيرون فى وجه الحكم الإسلامى ، والشريعة القرآنية غبار التشكيك ، وعواصف الريب ، إنما يخادعون الله ، ويخادعون الاسلام ، ويمكرون بالمسلمين .

إنهم يقولون كيف تعيش أمة فى هـذا العصر ، بنظام اقتصادى يحرم الربا!؟ وكيف يحيا شعب يحرم نصفه اللطيف من الضرب فى الأرض والحياة فى مناكبها ، وكيف نقيم حدودا على جرائم الأخلاق ! ؟ وكيف نؤسس حكما على شريعة لا نعرف عنها نظاما ولا دستورا ، ولا تقنينا مفصل المناهج محدد المواد . هل نلغى القوانين المدنيـة ثم نوزع نسخا من القرآن الكريم على المجالس التشريعية ، والأجهزة الحكومية ! ؟

كل هذه الريب وما يماثلها ، وما يتقدم عليها وما يتأخر ، دعاوى موحى بها ، ولا ثقل لها فى موازين الحقائق

إنهم يثيرون مسائل فرعية عاشت ونبتت وسمقت وتأصلت تحت ظل حضارة وحياة وأنظمة غير اسلامية .

ولا يمكن أن نطالب نظاما ما ، بحلول جزئية لمشكلات لم ينشئها هو ، ولم يسهم فى حياتها وإنما نشأت وقامت تحت ولاية نظام آخر مختلف فى طبيعته وفكرته وطريقته .

فلنطبق أولا هذا النظام كاملا ، ثم ننظر هل تبقى هذه المشكلات أم تزول ، إن الاسـلام نظام كامل متكافل ، تترابط أجزاؤه وتتساند ، وتؤيد أنظمته بعضها بعضا ، وتهيأ قوانينـــه جوانب الحياة للفكرة الكلية الشاملة .

وبتلك القوانين المتحدة ، والأنظمة المتناسقة ، والقواعد المتساندة تصل المجموعة كلها إلى غايتها فى يسر وكمال ، إلى الأفق الأعلى للرسالة .

العبادات تمهد للأخلاق ، والأخلاق تهيأ للتشريع . والتشريع يمكن للدولة ، والدولة تيسر الحياة للعبادات والأخلاق والتشريع .

قبل أن نقيم الحدود ، يجب أن نوجد المجتمع الصالح الذى يكون الخلق الاسلامى ، ونوجد الفرد المطمئن إلى أرزاقه تحت ألوية النظم الاقتصادية الاسلامية التى تتكفل بالفرد مسكنا وملبسا وتعليما ودواء وعملا .

وقبل أن نحرم الربا ، نوجد الجمعيات التعاونية وبنوك التكافل الاجتماعى ، ونهيأ جو المودة والأخوة والعون الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين به .

وقبل أن نطالب المرأة بأن تخفى من كرامتها وجسدها ما أمر الله أن يصان ولا يبتذل ، نمهد لها جو الأسرة الاسلامية الكريمة المتحابة المتماسكة المتعاونة ، ونصنع لها وسطاً خلقيا سليما من أمراض الأخلاق ونزوات الشهوات وبريقها ، مجتمعا يحض على الزواج ، ويسر سبله ويعين عليه ، وهكذا تترابط الأنظمة وتتساند فتصل متعاونة متحابة متكافلة إلى أفقها الأعلى ، وغايتها التى رسمها الله لها .

إذا زالت علل مجتمعاتنا تحت لواء الحكم الاسلامى والشرائع القرآنية زالت علامات الاستفهام وصيحات التشكيك ، وعواصف الريب التى تتناثر فى أفواه الذين لا يعلمون من الاسلام إلا رسومه واسمه .

إن الاسلام ليس قانونا وتشريعا وحكما وعبادة فحسب ، إنه لأفق للأخلاق ورسالة للروح ، ودعوة للخير والحب والأخاء .

إنه دين يصبغ كل حركات الأفراد ، ويطبع أعمالهم بالطابع الإلهى إنه ليصعد كل عمل من أعمال الدنيا إلى الله ، وبذلك يكون الاسلام رسالة عالمية ، يحمل فكرة عالمية لخير الحياة كافة .

فاذا كانت السياسة فى الاسلام يجب أن تنبثق كلياتها من عقيدته ، فالهدف من ذلك أن تخرج من ضيق الخداع والنفاق والأذى إلى سعة الأخلاق والأمانة والخير ، وأن تخضع لمبدأ أخلاق ينفى عنها الظلم والعدوان والاغتصاب .

وإذا كان الاقتصاد فى الإسلام يجب أن يوضع فى الأفق الاسلامى فإن الغرض من هذا الترابط ، أن يكون رحمة بين الناس ومعاونة بين العباد ، وأن يبنى على خلق ومرحمة ، لا على افتراس وجشع وتهم واحتكار ، وافساد فى الأرض .

والحدود والعقوبات فى الاسلام ، لم توضع لتكون شهوة للانتقام أو هدفا للعنف أو قسوة بالناس ، وإنما نظمت وشرعت ، لخير الحياة وخير الناس ، « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » .

إن الجريمة فى نظر الاسلام عدوان على المجتمع ، فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن انتهك عرضا فقد جرح النظام العام وأهدر كرامته .

لقد قامت الشريعة الاسلامية لتكون شريعة عالمية ، أسسها ترتكز صراحة على مصالح العباد فلا ضرر فيها ولا ضرار ، ولا حرج ولا ضيق ، فإن قواعدها وكلياتها لتدور مع المصلحة ، فأينما وجدت فثم شرع الله كما يقول فقهاء المالكية .

ولهذا سمى المسلمون منذ فجر توحيدهم ، التشريع الإسلامى بالسياسة الشرعية ، ومنطق السياسة هو المرونة والمصالح المرسلة ، والتطور الحضارى . ومراعاة العرف والمكان والزمان وقلوب الناس .

---

(١) يقول الامام عمر بن عبد العزيز — تحدث للناس اقضية بقدر ما أحدثوا من فجور . . .

حكومة إسلامية لا حكومة دينية

للاقلام التى تهاجم الاسلام . وللاقلام التى يحركها الاستعمار ، وللاقلام التى يحتضنها التبشير ، دعاوى عريضة ضارة ، حول حكومة الاسلام .

فهم يصورونها تصويراً مسيحياً أوربيا ، ويلبسونها أثواب الدولة الإلهية ، مملكة الرب التى يمارس فيها السلطات أشخاص مقدسون يزعمون أن لهم حقا إلهيا ؟؟

والإسلام لا يعرف هذا اللون من الحكم والسلطان ، فليس فى المجتمع الاسلامى التوحيدى الثورى ، مكان لوكلاء الرب ، الذين يعبرون عن مشيئته ، وينطقون بآرائه ، إنها لحكومة جاهلية صنمية ، والاسلام جاء أول ما جاء ، ليحطم الأصنام بشراً كانوا أم أحجارا .

وليس فى الاسلام قداسة الا لكلمات الله ، التى تنبثق منها شرائعه وفرائضه ورسالاته ، لها وحدها الحكم واليها التحاكم ، وليس لبشر عليها سلطان .

بل لا يعرف الاسلام ما يسمى برجل الدين المحترف ، وليس فى صدارته — هيئة اكليروس — مقدسة تهب الناس جنة الله إن رضيت وتقذف بهم إلى جحيمه إن غضبت ! ؟ وبالتالى لا يعوف الحكومات الدينية بالمعنى الذى عرفته أوربا ، وذاقت من هوله ألوانا تمتلأ بها حقائب التاريخ .

ولقد حدث فى بعض العصور الاسلامية ، أن وثب إلى الحكم طغاة

مغتصبون ، أو أباطرة من ملوك الوراثة ، أداروا شراعهم إلى الطاغوت وتقنعوا كذبا بقداسة الدين ، وجعلوا من أنفسهم ظلا لله سبحانه على أرضه .

هؤلاء الجبارون يبرأ منهم الاسلام ، ويبرأ منهم الحكم الاسلامى فالحاكم فى الاسلام هو رجل ارتضاه المسلمون لدينهم ودنياهم ، رضاء حرا منتخبا ، ليقيم حدود الله بينهم ، ويحفظ أمنهم ويعلى كلمتهم ، ويكفل لهم حرياتهم ، كما يكفل أرزاقهم وحاجياتهم على اختلاف ألوانها وضروبها .

والحكم الاسلامى أساسه الشورى ، وقاعدته الكبرى كتاب الله وسنة رسوله ، وما يجمع عليه المسلمون ، فاجماعهم قانون ، وكلمتهم دستور ، فى ظل المثالية الاسلامية .

وشريعة الله لا ضرر فيها ولا ضرار ولا ضيق ولا عسر ، فقد جاءت لتكون عدل الله بين عباده ، ولتكون خيرا ويسرا للناس كافة وهى لهذا تدور على قواعد مرنة تبعا لمصلحة الأمة ، فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله ، وحيثما وجد الضرر ، وثبت قواعد التشريع الإسلامية المرنة العالمية الزمان والمكان لتجد لها فى سد الذرائع ، أو المصالح المرسلة ، ما ينقذها من هذا الضرر . وما يفتح لها من الرحمة أبوابا وأبوابا .

بل إن معنى الحكم الاسلامى ، أن يختفى فورا هذا الكهنوت الزائف الذى يتزعم الجماهير وتتوارى تلك المواكب التى يتواثب فيها المجاذيب والدراويش ، وتذهب إلى غير رجعة تلك العادات الوثنية المبتدعة التى

تخنق مجتمعاتنا ، وتقيد شعوبنا ، بقيود الضعف والوهن ، والرجعية والجمود .

إن الحكم الاسلامى هو حكم الأحرار ، حكم الحريات المقدسة ، التى تنطلق فيها الملكات، وتتحرر الطاقات ، ويتكون المجتمع الصالح ، خلقا واجتماعا ، وتشرق المثاليات عدالة ومساواة ، وتنهض العزائم المؤمنة التى تصعد بأعمالها الدنيوية قبل الدينية لمى الله .

وفى الحكم الاسلامى معنى العالمية فهو حكم لا يستند إلى عصبيات أو قوميات تضمر البغضاء والحقد لغيرها ، بل هى دولة تبنى على الخلق والروح والفكرة الإنسانية العادلة التى تستهدف السلام العام .

يقول الأستاذ توفيق الحكيم (١) فإن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة تمهد لآخرة صحيحة ، فإن الاسلام بلا مراء ، هو دين الصحة فى كل شىء فهو دين ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسد والعقل ، وصحة العقيدة .

ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وتنقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما . ولا تعارض التطور الطبيعى للاذهان والأشياء ، وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ، فإن الدين المثالى هو الدين البسيط ، وهل

---

(١) تحت شمس الفكر ص ٢٩ .

أبسط من الاسلام شريعة ، وهى لا تعرف رجال دين ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ، ويكنزون ، ومن الدين مهنة تدر الرزق ، وتعطى متاع الدنيا ؟؟ إن أولئك الذين يجعلون من الدين سلما للدنيا ، لا الدنيا سلما للدين ، قد طردهم الاسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس ؛ لا احتراف فيه ولا احتكار .

إن رجال الدين فى الاسلام اناس لا سلطان لهم على أحد . ولا ينقطعون للدين احترافا وارتزاقا ، كما ينقطع أمثالهم فى الديانات الأخرى بل يعيشون كما يعيش الناس يفتحون الحوانيت ويؤسسون المتاجر ويحترفون الحرف العاملة الصانعة ، هكذا كان الأئمة الكبار أبو حنيفة والشافعى ومالك وأنس .

إنه لدين البساطة والسماحة والصراحة ، دين يحترم الكفاءات لا القداسات . ويضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح ، سواء ارتدى أزياء الكهنوت ، أو تجرد منها .

ولقد أعجبتنى كلمات لممثل أمة اسلامية ناهضة ، هو سيادة السيد تميز الدين خان رئيس الجمعية التأسيسية بالباكستان فى المؤتمر الصحفى الذى عقده للصحفيين المصريين قال :

« إنه وإن كانت الباكستان بلاد اسلامية تريد وضع دستورها على اساس الدين الحنيف ، إلا أنها دولة عصرية حديثة ، لا يتولى الحكم فيها رجال الدين ، ولكنها ترى أن فى تعاليم هذا الدين وفى السير على نهجه مايؤكد نبل الفرصة . وحسن المقصد ، لأن الاسلام دين ودولة »

وكلمات السيد تميز ترسم السياسة العليا لفكرة الحكومة فى الاسلام وتوضح فى صراحة وجلاء الفرق الدقيق بين الحكومة الاسلامية والحكومة الدينية ، وهو الفرق الذى تقنع به المغرضون لينالوا من جلال الحكم الاسلامى .

وهذا الفرق الدقيق بين الحكومة الاسلامية ، والحكومة الدينية مفخرة من مفاخر الاسلام ، ومعجزة من من معجزاته الباهرةالغالية ، وشىء تميز به الاسلام عن سائر الأديان العالمية .

الاسلام دين ودولة ، تلك هى كلمة الحق ، وذلك هو الفيصل ، بين فنون الحكم ، وفرائض الدين .

دين يستمد منه التشريع والإلهام ، وتقوم على مبادئه القوانين والأنظمة ، والحكم الأعلى ، فيما يختص بتفسيره وتقنينه ، إجماع رجال الدين من الأئمة الحفظة الثقات ، الذين تخصصوا لهذا وأعدوا له .

وحكومة يشرف عليها رجال السياسة والدبلوماسية والخبراء المهرة فى فنون الحكم والادارة والقيادة ، الدهاة العباقرة ، أصحاب الفهم الواسع فى مشاكل العالم وأنظمته وحكوماته ومناوراته .

وكما أن لفنون المال والاقتصاد رجال ، ولشئون الحرب والقتال أبطال ، ولكل فن من الفنون أهله وأصحابه ، كذلك للحكم والادارة والقيادة رجال ورجال .

وليس معنى هذا أن تنحرف الأمة عن الدين أو تعرض بوجهها عنه بل معناه وضع كل شىء فى مواضعه ، لكل اختصاصه ولكل مكانه .

وبهذا انتفت صفة القداسة عن الحكومات ، واستطاعت الشعوب أن تحاسبها وأن تراقبها ، ولم تستطع الحكومات أن تستبد أو تطغى باسم الدين ، بل احتكمت إلى الدين دائما ، وأصبح الدين هو الأعلى

وهو المقدس الكريم ، لا رجال الدين وأصحاب القوة والنفوذ .

حتى أن عمر بن الخطاب الحاكم القوى العملاق ليقف على المنبر وهو الخليفة المنتصر الفاتح فيقول «من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فيقوم له رجل من العامة فيصرخ فى وجه عمر ، والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا ؟ فيهتف عمر إياى تعنى ثلاثا ويردد الرجل ثلاثا أجل إياك أعنى »

ذلك هو الاسلام ديمقراطية وسماحة ، لا عصبية ولا قداسة ، كل رجل فى مكانه . وكل رجل حسب مواهبه ، وكل لما أعد له ، لا بما قرأ وحفظ .

يقول عمرو بن العاص « منذ أسلمت أنا وخالد بن الوليد لم يقدم علينا رسول الله صلوات الله عليه أحدا من أصحابه . ولم يكن عمرو ، ولم يكن خالد أتقى المسلمين ، ولا أعلمهم بدين الله بل كانا من أدهى المسلمين وأبصرهم بفنون القيادة ، وأساليب النضال والفتح ، حتى اننا لنرى الرسول صلوات الله عليه حينما أرسل أصحابه فى سرية « الساحل » وفيها الصديق وعمر بن الخطاب جعل عمرو بن العاص أميرا على السرية ، وصدقت فراسة الرسول فى دهاء عمرو وفطنته الحربية ، فقد أراد أصحابه ذات ليلة أن يوقدوا نارا بالليل ، فقال: « من أوقد نارا ألقيته فيها » فلما رجعوا إلى الرسول اشتكى أبو بكر واشتكى عمر بن الخطاب من موقف عمرو ومن قولته العظيمة ، فلما سأله الرسول ، قال : يارسول الله خفت أن يوقدوا نارا ونحن فى أرض العدو ، فتدل النار علينا ، فأقره الرسول على عمله ، وقال عمر بن الخطاب: لقد غاب عنا ما رأى ولله در عمرو -

وترى الصديق الخليفة الأول حينما ولى الخلافة، يرسل خالد بن الوليد إلى سائر الميادين قائدا وزعيما، وتخفق رايات خالد منتصرة ظافرة، وتتصاعد الصيحات بجوارها، صيحات المتزمتين ضد خالد وتصرفاته ومواقفه. فيصرخ أبو بكر: إنه لسيف من سيوف الله. وليس لأحد منكم سيفه ولا خبرته، بل ليس لأحد منكم وثباته وفتكاته.

وحينما أوغل أبو عبيدة بن الجراح النقي التقي أمين هذه الأمة المحمدية وحبيب رسول الله وصفيه ونجيه، فى ميادين الشام وأحيط به، كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة، الخطاب العظيم الخالد فى صحف التاريخ.

« بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله ابن أبى قحافة إلى أبى عبيدة ابن الجراح. سلام الله عليك، أما بعد: فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع. فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا. ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك، فأحببت أن أنسى به الروم وساوس الشيطان. أراد الله بنا وبك سبيل رشاد ».

وفى هذه الرسالة معان تستوقف العقول. وتبعث على التأمل والاكبار، فالخليفه يكبر ابن الجراح اكبارا عظيما لمكانته من الدعوة الاسلامية حتى لقد رشحه للخلافة يوم السقيفة. وهى ما هى من القيادة الاسلامية. ولكنه يرى أن لخالد فطنة فى الحرب ولمحة عبقرية فى القتال. ليست لأبى عبيدة. والملحمة ملحمة عسكرية يتفاضل فيها الناس بالبراعة والكفاءة الفنية. لا بالتقوى والأسبقية الاسلامية.

فمصلحة الأمة الاسلامية إذن تحتم على الخليفة أن يرسل إلى موقف الخطر عبقرى العسكرية الاسلامية . لا عبقرى التقوى والعبادة .

مصلحة الأمة الاسلامية إذن هى الفيصل فى الحكم والوظائف العامة . يتولاها الأكفأ لا الأتقى على أن تسود الأنظمة الاسلامية فى التشريع والتقنين . والاجتماع والاقتصاد والأخلاق .

ولقد عقد الامام ابن تيمية فصلا فى كتابه — السياسية الشرعيـــة — (١) فى باب « قلة اجتماع الأمانة والقوة فى الناس » قال فيه .

« القوة والأمانة أساس الولاية . ويختار الأمثل فالأمثل . فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أكثر قوة . قدم أنفعهما لتلك الولاية . وأقلهما ضرر فيها . فيقدم فى امارات الحروب الرجل القوى الشجاع . وان كان فيه فجور فيها . على الرجل الضعيف العاجز . وان كان أمينا . كما سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو وأحدهما قوى فاجر . والآخر صالح ضعيف . مع أيهما يغزو؟ فقال : أما الفاجر القوى . فقوته للمسلمين . وفجوره على نفسه . وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه . وضعفه على المسلمين . فيغزو مع القوى الفاجر . وقد قال النبى — إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر — فاذا لم يكن فاجرا كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين . إذا لم يسد مسده .

---

(١) ص ١٤ .

وهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم . يستعمل خالدا منذ أسلم وقال « إن خالدا سيف سله الله على المشركين » مع أنه أحيانا كان قد يعمل ما ينكره النبي ، حتى أنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد ؟! لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم ، بنوع شبهة. ولم يكن يجوز ذلك . وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى ودأهم (١) النبي وضمن أموالهم ، ومع هذا فما زال يقدمه في أمارات الحرب . لأنه كان الأصلح في هذا الباب من غيره ، وفعل ما فعل بنوع تأويل .

وكان أبو ذر ، أصلح منه في الأمانة والصدق . ومع هذا فقد قال له النبي صلى الله وسلم لما طالب بولاية « يا أبا ذر إني أراك ضعيفا . وإني أحب لك ما أحب لنفسي . لا تأمرن على اثنين . ولا تولين مال يتيم — رواه مسلم —

نهى أبو ذر عن الولاية والامارة ، لأنه رآه ضعيفا مع أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله — ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر — وأمر النبي صلى الله عليه وسلم مرة عمرو ابن العاص في غزوة ذات السلاسل استعطافا لأقاربه الذين بعثه إليهم ، على من هم أفضل منه ، وأمر اسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه . مع أنه قد كان مع الأمير من هو أفضل منه في العلم و الايمان . وإنما استعمل لمصلحة راجحة

ثم يقول « وإن كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد . قدم الأمين مثل حفظ الأموال ونحوها فاما استخراجها وحفظها فلا بد

---

(١) أي دفع الدية

فيه من قوة وأمانة . فيولى عليها شاد قوى يستخرجها بقوته . وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته .

ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم الأورع الأكفأ . فان كان أحدهما أعلم، والآخر أورع، قدم فيما يظهر حكمه . ويخاف فيه الهوى الأورع . وفيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه الأعلم . ففى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم — إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات . ويحب العقل عند حلول الشهوات — وهكذا فى سائر الولايات .

هذا هو الأفق الاسلامى فى فهم رسالة الحكم . وتلك هى سياسته . حكم كفاءات ومواهب ، واستغلال للطاقات البشرية كافة ، على الوجه المحقق لمصالح الدولة العليا .

وبذلك تتحطم شبهات القداسة التى زعموا أنهـا تحيط بالدولة الإسلامية ، كما تتحطم الريب التى ضربوا نطاقها حول الحكومة الدينية التى يهيمن عليها رجل دين محترف ، لايحمل من مؤهلات الحياة العليا ، العاملة المضيئة ، ألا تقوى القلب ، وهى فضيلة ذاتية لا يتعدى أثرها ولا يمتد خارج محيط صاحبها ، فلا تحل مشاكل الناس ، ولا تأخذ بأيديهم بعزم وقوة إلى سداد الرأى ، وصواب الحكم وكمال السياسة ، وجلال التدبير والتنظيم ، انها فضيلة ممتزة تقدم صاحبها إذا استكمل شروط الكفاءة ولا تقوم وحدها بالدور الرئيسى فى الحياة ، ولا تكون فى الموازين كفاء المواهب العالية .

فالحكم أمانة ، والأمانة يتولاها الأكفاء ، وينهض بها من هو أهل لها ، فى نطاق تخصصه وصلاحيته ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه

عليه — من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقدخان الله ورسوله — وبذلك أصبحت الكفاءة فى الاسلام قاعدة بل فريضة راجحة فى الأعمال العامة .

وكل عمل فى الإسلام لا ينتسب إلى الله وإلى الرسول فهو رد على مبتدعه ، لايحسب على الإسلام أوزاره ، قال الصادق الأمين « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

وطابع الإسلام الأكبر هو العزة ، عزة الفرد كوحدة ، وعزة المجموعة كفكرة ، وعزة الدولة كقوة . ولا تطغى عزة على عزة . ولا تجور قوة على فكرة ، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم وحقوقهم ، كما تتكافأ واجباتهم وأعمالهم . يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم

ولقد منح الاسلام اتباعه أوسع الحريات العالمية حينما سلب البشرية كافة القدرة على إيصال الخير أو الشر إلا بقضاء الله وقدره ، وحينما دعا إلى كلمة الحق وجعلها جهادا أكبر . وفريضة قدسية لها جلالها ومقامها من الايمان ، وأنه كما يقول الرسول « لا ينسأ من أجل ولا يمنع من رزق أن تقف فى وجه الطغاة والجبارين بأمر الله » .

وزاد الاسلام على ذلك درجات ، فتسلل إلى القلوب بالتطهير والتزكية فحرر ضمير الفرد ووجدانه وشعوره ، تحريراً باطنياً كريماً ، فلم يجعل فى قلب المسلم خشية أو رهبة أو رعبا لأحد من الناس ، بل لم يجعل فى قلبه نفاقا أو رياء ، أو زلفى لأية قوة فى الأرض مهما علا والتهب شرها ، وانذر إنذاراً رهيباً على لسانه رسوله — إياكم والشرك الخفى ، قالوا وما الشرك الخفى يا رسول الله . قال . دقيق الرياء » .

إن العبودية والطاعة والخضوع والرهبة ، والزلفى والرجاء ، كل هذه المعنويات صفات صاعدة لا تخضع ولا ترهب ، ولا ترجو ولا تعبد ولا تطيع الا فاطر السموات والأرض المهيمن القوى العزيز خالق الإصباح ومقدر الأرزاق المانح الوهاب المحيط بكل شيء ، وهو جل جلاله مع عباده أينما كانوا ، يعلم السر والنجوى ، ويحيط بخائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

والانذار الأكبر فى الاسلام ، هو أن تجعل لله ندا ، فيما ترجو ، وفيما تخشى : يجيء إعرابى إلى الرسول فيذكر له أنه يعبد خمسة من الآلهة فيقول له الرسول : فمن ترجوه منهم لطعامك وشرابك وكسائك ، والأمر العظيم ؟ فيقول الذى فى السماء . فيقول له إياه فاعبد ، ومن حديث ابن عمر عن النبي صلوات الله عليه ، ان رجلا قال له — ما شاء الله وشئت فغضب الرسول ، وقال . أتجعلنى لله ندا .

ويصم القرآن المسيحيين المنحرفين بوصمة الذل والعار الكبرى بقوله « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ويروى الامام احمد والترمذى أن عدى بن حاتم لما سمع النبي يقرأ هذه الآية ، قال يارسول الله إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال بلى . انهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام ، فذاك عبادتهم إياهم » .

التشريع لله وحده . فما يحل شيئا ولا يحرمه إلا الله . فمن خضع لتشريع عبد فى الحلال والحرام والتشريع ، فقد أشرك مع الله عبدا . وعبد مع الله بشراً » .

فالحاكم فى الاسلام حاكم مقيد . بالفكرة الإسلامية . إنه راع لعباد

الله. يسوسهم بكلمات الله ويأخذ بأيديهم إلى خير الدنيا وخير الآخرة، وليس عليهم بجبار ولا طاغية. يطاع ما أطاع الله. وترتفع في وجهه الصيحة الاسلامية الخالدة إن حاد أو مال أو تقنع بالكبرياء أو تعالى بالسطوة

وليس له من حقوق أو واجبات أكبر مما لأي فرد من الأمة الاسلامية. إلا بحق وقسط وصراط مستقيم، إن وظيفته الأولى الارشاد وإطلاق الأنوار ورعاية حقوق العباد. حتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وهو من لايقاس به سواه. يقول له ربه « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ــ » فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ».

وروى الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري أن رجلا قال لرسول الله وقد رآه يعطي رجالا من المؤلفة قلوبهم، يا رسول الله، إتق الله؟ قال. ويلك ألست أحق أهل الأرض أن اتقي الله، ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال لا تفعل. لعله أن يكون يصلي. فقال خالد. وكم من مصل يقول بلسانه ماليس في قلبه. قال رسول الله. اني لم أومر ان انقب في قلوب الناس ولا أشق بطونهم ».

ويمر الرسول بين صحابته يوم احد يسوي صفوف القتال. وبيده عصا قصيرة، فيرى رجلا خارجا من الصف، فينمزه في بطنه. قائلا استقم يا سواد. فيقول سواد. يا رسول الله آذيتني؟؟ وقد بعثك الله

بالنصف . أقدنى من نفسك . فيكشف الرسول عن بطنه ويقول استقد يا سواد . فيحتضنه سواد ويقبله . ويقول إنما أردت وقد حضرنا هذا الموقف . أن يكون آخر شيء فى الدنيا، أن يمس جلدى جلدك الشريف

ولقد فهم المسلمون منذ فجر دولتهم حقيقة الصلات بين الحاكم وجمهور الأمة . يقول أبو بكر الحاكم الأول بعد رسول الله غداة توليته الحكم « وليت عليكم ولست بخيركم . فان استقمت فاعينونى . وإذا زغت فقومونى . ويقول عمر بن الخطاب « من رأى فى اعوجاجا فليقومه » : ويقول عثمان بن عفان « أمرى لأمركم تبع » .

أبعد هذا تكون فى الاسلام قداسة لحاكم ؟ أو رهبة لحكومة ؟ أو جلال قدسى مطلق لإمام ؟

لقد حرر الإسلام اتباعه من جبروت الجاهلية قديمها وحديثها ، وأطلقهم أعزة أقوياء كرماء من رق العبوديات العالمية . وبهذا التحرر الكامل . وبتلك العزة التى لا تخشى إلا خالقها كون المسلمون امة مهيمنة سيدة . لم يشهد العالم لها مثيلا . إيمانا وحرية وعدلا وأخلاقا .

وعلى هذا الضوء أقام المسلمون لأول مرة فى التاريخ حكومة مبرأة من الطغيان . لا تميل بها الموازين . ولا تجمح بها الأهواء . حكومة اسلامية مدنية . تعيش فى أفق الفكرة الاسلامية بروحها وقلبها ووجدانها . ولا تفنى فى شخصية الفرد الحاكم . حتى لا ترتد إلى الجاهلية الوثنية التى جاء الإسلام لهدمها ومحو آثارها . وبذلك أصبح المسلمون كما وصفهم ربهم جل جلالة . خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويعبدون الله لا شريك له . ويضيئون مصابيح الخير السلام لأنفسهم وللعالمين .

واجبات الحاكم في الدولة الإسلامية

كل شيء في الإسلام ينبثق عن عقيدته . ويتلون بفكرته العامة . ولكنه لا يجمد ولا يقف . بل يمتد ويتطور ويمشي مع الناس ومع الحياة في لين ويسر وسماحة .

فالاسلام كدين عام للناس كافة . وكعقيده ارتضاها الله ختاما لرسالاته . واصطفاها لتصنع على أعين الناس « خير أمة أخرجت للناس » حينما جاءت أنظمته وشرائعه . إنما جاءت كليات عامة . تصوغ روح الأشياء . وتبدع ناموسها . وتترك للناس التطبيق بما يلائم حياتهم . ويحقق مصالحهم ويكفل سعادتهم وقوتهم . وتطلق عقولهم حرة لتجول في مرونة وسماحة . بجتهدة مبتدعة منظمة متطورة .

والشريعة الاسلامية كائن حي دائم النماء . لا يقف ولا يجمد . لأن الوقوف عن الحركة سنة الأموات ، والجمود طبيعة العاجزين .

والكلية الاسلامية في الحكم . أنه عقد بين متعاقدين . بين الحاكم والرعية . وهو من قبيل التعاون على البر والتقوى . لأن الحياة الانسانية لا تقوم إلا بهذا التعاون . ولا تستقيم إلا بهذا النظام .

والعقد أساسه الاختيار والرضا . لا التعسف والاكراه . إنه توكيل من المجموع للفرد الذي انتخبه هذا المجموع انتخابا شعبيا حرا . ليكون راعيا لهم قائما بأعبائهم . منفذا لشريعة الله بينهم ، موفرا للحياة السعيدة الحرة الكريمة لهم .

فالحاكم ليس شخصا مقدسا حاكما بأمره . وليس وارثاً لملك . ولا مهيمنا على عقائد الناس وقلوبهم إنه طرف فى عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع .

يقول الامام ابن حزم « البيعة من قبيل التعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فالمتتبع لأخبار الخلفاء الراشدين يجد أن البيعة كانت أساس الاختيار . وانها كانت العقد الذى يعقد بين الامام والأمة. وهو عقد موثق بالايمان يجعل على كلا الفريقين التزاما دقيقا يجب عليه تنفيذه . والقيام بحقه . يلزم الامام باقامة كتاب الله وسنة رسوله . ويلزم الأمة بالسمع والطاعة فى المنشط والمكره . ما لم يكن عصيان لأمر الله ونهيه . فان كان عصيان فلا سمع ولاطاعة . « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (١)

ويرى الامام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشريعة » إن الحكم أمانة . وان آية الامراء فى القرآن هى قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعاً بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا »

قالت العلماء نزلت الآية الاولى فى ولاة الأمور ، عليهم أن يؤدوا

---

(١) ابن حزم للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٢٤٨

الأمانات إلى أهلها . وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . فان خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية .

ونزلت الآية الثانية فى الرعية . عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة إلا أن يؤمروا بمعصية . فاذا أمروا بمعصية فلاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق والفيصل الحكم . والميزان القسط بين الحاكم والرعية . هو كتاب الله . وسنة رسوله فاذا اختلف بين طرفى الأمانة . ردوا الخلاف إلى الكتاب والسنة . ليفصلا بينهما . وعليهما السمع والطاعة » .

وعقد العلامة الماوردى . فصلا قيما فى كتابه (الأحكام السلطانية) إدارة على ما يجب على الحاكم حيال الأمة ملخصا لهذه الواجبات فى عشر قواعد كلية .

١ ــ المشاورة فى كل ماليس فيه نص .

٢ ــ حفظ الدين على أموره المستقرة . وماأجمع عليه سلف الأمة فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب . وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود . ليكون الدين محروسا من خلل . والأمة ممنوعة من ذلل .

٣ ــ تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود . لتصان محارم الله من الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك .

٤ ــ حماية الامن وصيانة النظام .

٥ ــ تحصين الثغور . وتقوية الجيوش .

٦ ــ جباية الفىء والصدقات على ماأوجبه الشرع نصا واجتهاداً من غير جور أو عسف .

٧ ــ صرف الأرزاق للناس . وتدبير الأموال لهم . وحمايتهم من الأمراض والمجاعات .

٨ ــ استخدام الأكفاء . وتقبل النصح من الأمناء .

٩ ــ نشر الدعوة الاسلامية وتبليغها .

١٠ ــ أن يباشر بنفسه أمور الناس . وأن ينهض بسياسة الأمة ولا تشغله لذة أو عبادة عن مصالح الناس .

وهو دستور شامل لو نقلناه إلى لغة العصر ومصطلحاته لسامق أو بل لتفوق فى إحاطته وشموله ما احتوته الدساتير العالمية من واجبات الحاكمين والتزاماتهم .

إن واجب الحاكم الأول أن تبنى تصرفاته على الشورى ، والشورى كلية عامة فى الاسلام . ينظمها المسلمون وينفذونها ويدورون بها مع الزمان والمكان والتطورات بما يلائم صور الحياة ومشاكلها وتقدمها وبذلك تنتفى صفة الاوروتقراطية ، وصبغة الدكتاتورية المستبدة ، المعتصمة بقداستها وكفاءتها ، عن مبادىء الحكم الاسلامى ودستوره .

وعلى الحاكم أن يضع نصب عينيه أنه رأس نظام له عقيدة مقدسة ، فعليه المحافظة على ناموس هذه العقيدة ، فإن زاغ مبتدع أو الحد فاسق أو سعى بالفساد المغرمون بالشبهات والشائكات فيجب قبل عقابه وردعه ، أرشاده بالحسنى ، واقناعه بالحجة ، فإن لج وأبى ، واتبع خطوات الشياطين قام القانون ، لحماية العقيدة ، وصيانة النظام العام ، ليكون الدين كما يقول العلامة الماوردى « محروسا من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل » .

وهنا نلاحظ أن العقوبة لاتقع فجأة ، وإن القانون لاينفذ بغته ، بل لابد من الارشاد والحجة أولا ، وهذه آية الآيات فى العـــدالة والسماحة ، والاعتماد على نورالحجة ، وبرهان الفكرة ، حتى إذا وصل الأمر إلى مرتبة العناد ، ومقام الإفساد ، جاء القانون بالحماية والنظام .

ولهذه العقيدة شرائع ونظم وحدود ، جعل الله فى إقامتها حياة للناس ، وعدالة وامنا وصيانة لاخلاقهم وأعراضهم وآدابهم ومجتمعاتهم فعلى الحاكم تنفيذ هذه الشريعة الكريمة المضيئة وإقامة هذه الحدود العادلة الرادعة ، لتصان محارم الله عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده ، من اتلاف واستهلاك .

فإذا تمت هذه السياسة الدينية ، وتنفس المجتمع نقاء هوائها ، واستمتع بعدالة شرائعها وقوة انظمتها ، وجلال مبادئها الحرة الكريمة العادلة ، جاءت سياسة الحرب ، لصيانة الأمة الاسلامية من بغى الطغاة ، ووثبات الجبارين ، وهى ليست بسياسة عدوان أوطغيان ، أومغامرات للفتح والاستعمار ، إنها سياسة دفاعية وقوتها للدفاع والحماية وصيانة الفكرة والرسالة ، فواجب الحاكم تحت ظلالها ، تحصين الثغور ، وتقوية الجيوش ، بما يلائم الزمان والمكان وتطورات الحياة ، وقفزات الحضارات ، وفنون الآلات والاختراعات .

وفى أعقابها تأتى السياسة المالية ، جباية الأموال ـــ نظام الضرائب ـــ على ما أوجب الشرع نصا وإجتهاداً من غير جور ولا تعسف ، ماأوجب الشرع نصا وإجتهاداً ؟ إذن فهى سياسة متطورة تقوم على الاجتهاد والمرونة ، الاجتهاد المرن الذى يبنى على الشورى ،

فإن كان الشارع قد حدد الزكاة والفيء والصدقات ، فإن للحاكم أن يفرض من الضرائب ، ويسن من النظم ويبتكر من الفنون المالية ماتوجبه الحاجة وماتقتضيه الاصلاحات ، كل زمان بلونه وخصائصه ، وكل مكان بموقوماته ونظمه ، والقاعدة العامة أن لا يكون جور ولا اجحاف ، ولا تعسف أو إرهاق .

هذا هو شطر السياسة المالية الأول ، أما شطرها الثانى ، فهو مصرف هذه الأموال فى الاسلام . مال الجماعة ، لخير الجماعة ، وليس ملكا للحاكمين ، وليس احتكاراً لفريق دون فريق ، فيجب أن تصرف الارزاق للناس من بيت مالهم كل بحسب حاجاته وحياته ، حتى لا يكون بينها جائع بلا طعام ، أوعار بلارداء ، أوشريد بلا مسكن ، أومريض بلا دواء أو جاهل محروم من نور العلم والمعرفة .

ثم تأتى قاعدة عامة شاملة ، أن لايلى أمر الناس فى الوظائف إلا الأمناء الاكفاء ، لأن الحكم أمانة فى ذروته العليا ، وفيما يلى هذه الذروة هبوطا إلى القاعدة .

والإسلام عقيدة ورسالة لخير الناس كافة ، فليس من البر ولا من الإيمان أن يحبس هذا النور ، وأن يحد هذا الهدى ، وأن لايبلغ للناس أياً كانوا زمانا ومكانا ، فعلى الحاكم الإسلامى أن يبلغ الدعوة ، وأن يقوم بالرسالة ، وأن يرسل شعاع هذا النور ، وخير هذا الهدى إلى كل بقعة ، بالبرهان المشرق . والحجة الواضحة ، والحكمة والموعظة الحسنة من غير عدوان أو بغى أو اكراه .

وعلى العلماء وعلى المصلحين ، أن يقوموا بفريضة النصيحة والجهر

بكلمة الحق، وعلى الحاكمين ان يستمعوا لهذه النصيحه ، وان يعملوا بها .

وأمانة الحكم تقتضي أن يكون وقت الحاكم ليله ونهاره فى خدمة الناس ، ورعاية مصالحهم وأن لا تصرفه لذة من متاع الدنيا ، بل لا تصرفه حتى عبادة الله عن الواجب المقدس ، المقدم على سواه .

ولقد فهم المسلمون فى فجر تاريخهم حقائق الصلات بين الحاكم والمحكومين ، وأنها صلة التعاقد الحر ، للتعاون على البر والتقوى ، صلة الأمانة المفروضة على الطرفين المقدس إيداؤها ، صلة الشورى التى لا ينهض حكم كريم بدونها ، صلة التحاكم إلى كتاب الله ، وروح شريعته لتكون فيصلا وميزاناً ، فأداروا حياتهم وكونوا دولتهم عليها .

يقول أبو بكر رضى الله عنه وهو أول حاكم فى الإسلام بعد الرسول غداة توليته « إنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن اسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرد عليه حقه ، إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، إلا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

دستور للحكم صريح واضح محدد المعالم ، وسع من سياسة الحكم مالم تتسع له خطابات العرش الطويلة المملة ، فيه تصوير مبين لصفة الحاكم وعلاقاته برعيته ، فهو ليس خيرهم ، ولا امتياز له عليهم . إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، إن الأمة هى مصدر السلطات

وهى الرقيبة المهيمنة . وهى التى تمسك بزمام الحاكم وتقوده ، فتقومه إن أخطأ ، وتعينه أن أحسن .

والعدالة الاسلامية لاتعرف ضعيفا ولا قويا . فالناس سواسية تحت لوائها ، أقوى الناس لديها ، ضعيف له حق مهدر ، وأضف الناس فى منطقها قوى مغتصب .

والحكم يبنى على مكارم الأخلاق ، وروح الإسلام ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، ولا تشيع الفاحشة أياً كان لونها بين قوم إلا عمهم الله بالبلاء .

والجهاد فى سبيل الله على اختلاف ضروبه . من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، إلى كلمة الحق فى وجه حاكم ظالم ، إلى حمل السلاح لحماية الدعوة والدفاع عن الأمة ، لا يتركه قوم إلا ضربهم الله بالذل والبسهم رداء الخزى .

والطاعة مقيدة بالدستور الإسلامى ، فإن وفى الحاكم بهذا الدستور سمع الناس وأطاعوا ، وإن أنحرف وجحد ، فلا طاعة فى معصية

رقابة حية يقظة من الأمة على راعيها وحاكمها ، رقابة كانت فى أيام الخلفاء مكونة من الرأى العام ، وهذا الرأى العام بلغة العصر ، هو الصحافة والنقابات والبرلمانية . وقد يكون فى غد ، هو الراديو أو التلفزيون ، أو ما تستحدثه العقول من ابتكارات واختراعات وما تبتدعه من نظم وتجمعات ، إنها رقابة من الأمة على الصورة التى ترتضيها الأمة وتختارها وتؤمن بها ، وإنما القاعدة الكلية ، أن تظل الرقابة والهيمنة الشعبية حية يقظة حرة قائمة بواجباتها .

ومع هذه الرقابة الشعبية الحاسمة، تقوم فى قلب المسلم رقابة الضمير ورقابة الإيمان ، ورقابة التقوى ، ورقابة الخوف من الله ، وهى معنويات صاعدة مضيئة يتميز بها النظام الإسلامى عن الأنظمة المدنية العالمية كافة .

ويقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على منبر الرسول غداة توليته فيحدد واجباته حيال الأمة فيقول :

... ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ، لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم على أن أزيد إعطائياتكم وأرزاقكم إن شاء الله ، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال ، فاتقوا الله عباد الله وأعيونونى على أنفسكم بكفها عنى وأعيونونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أموركم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ... »

دستور محدد البنود ، وواجبات والتزامات وحقوق مشتركة بين الحاكم والشعب ، تشرق منها صور السياسات المالية والحربية والاجتماعية عالية مضيئة .

لا ضرائب تأخذ من المال العام ، الذى هو مال المسلمين جميعا ، وفى طليعته فى هذا العهد الخراج والفىء إلا من وجهه العادل المشروع ، والمال الذى فى بيت مال المسلمين (وزارة المالية) لا يخرج منه دينار ولا درهم إلا بحق ورقابة وأمانة .

فاذا انتهت هذه السياسة المالية التى تحددت كلياتها ، أخذ بحق ، وصرف بحق ، جاءت السياسة الحربية ، وفى طليعتها سدالثغور وحماية الحدود ، والمحافظة على الجند ، فلا يقذف بهم فى تهلكة ، ولا تطول إقامتهم فى الثغور النائية ، وإذا خرجوا للجهاد فلتطمئن قلوبهم، فالحاكم هو أب كل أسرة ، وراعى الأبناء جميعا ، والتعبير بكلمة الأبوة تعبير شامل جامع لكل معانى المحبة والرعاية .

فاذا وضحت معالم هذه السياسات جاءت الروح الإسلامية ، مشرقة مضيئة لتأخذ مكانها الخالد ، وهى رابطة العقد فى كل ألوان السياسات الاسلامية نصيحة بالتقوى ومكارم الأخلاق ، وضراعة إلى الناس إلى الجمهور أن يعينوا حاكمهم بالنصح والتوجيه ، ويأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر وأن يقدموا له آراءهم فى كل أمور الحكم ومشاكله وصوره ، لأن الحكم شورى ، وأمانة متبادلة ، وعقد موثق بالإيمان .

الرقابة الشعبية ، والشورى العامة ، واليقظة الحية فى قلوب الجماهير التى لاتنام لها عين ، ولايخفت لها صوت ، لأنها أساس الحكم الصالح ، وأمانة الاسلام بين المسلمين .

ويخطب عمر الناس فيقول

«إلا أنى والله ما أرسلت عمالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم . فمن فعل به سوى ذلك .فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذا لأنصفنه ؟»

فوثب عمرو بن العاص فقال : « يا أمير المؤمنين ، افرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدبه [illegible] . إنك لمقصه ؟ ؟

فقال عمر أى والله الذى نفس عمر بيده . لاقصنه منه . وقد رأيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . إلا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

لمحات من عبقرية عمر ، وأضواء من عدالة الإسلام ، لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، إن الإسلام عزة وكرامة ، والحدود قصاص للراعى والرعية ، وليس لحاكم أن يؤدب رعيته بالضرب ، فان فعل فقد ظلم ووجب القصاص منه ، ضربة بضربة — والحدود قصاص، ولا تمنعوا المسلمين حقوقهم فتكفروهم ، فان الظلم ليخرج الناس عن فطرتهم حتى ليدنيهم من الكفر ، فالحاكم إن ظلم أو اغتصب فقد تعدى حدود الله وأفسد فى الأرض ، ولغى فى الإسلام ، وحمل الناس على المروق من دينهم ، يوم لا يطمئنون إلى عدالته وإنصافه .

وتلك الحقوق المتكافلة بين الحاكم والمحكومين هى طابع الحكم الإسلامى ، وهى شعاره ومثاليته العالية .

يقف ابن الخطاب يودع أحد ولاته قبل سفره إلى إقليمه حاكما فيلقى عليه هذا السؤال الكبير ، والامتحان العظيم ؟ !

— ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ! ؟

فأجابه الوالى أقطع يده !؟

فقال عمر : وإذن فان جاءنى منهم جائع أو عاطل ، فسوف يقطع عمر يدك ! ؟ إن الله سبحانه استخلفنا على عباده ، لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإذا أعطيناهم هذه النعمة من الله أقمنا عليهم حدود الله ، كفاء شكرها .

هذا هو دستور الحكم الإسلامى ووظيفته ، يسد جوع الناس ،

ويستر عورتهم ، ويوفر لهم حرفتهم وبلغة العصر ، لا يوجد فى الحكم الإسلامى جائع أو عار أو عاطل ، فواجب الدولة الأول أن توفر لكل فرد من أبنائها ، طعامه وكسائه ، وأن تدبر له عملا دائما يحميه من البطالة ، ويقيه العوز والحاجة .

فاذا تمت تلك الرسالة ، وهى أسمى ماتطمع فيه النظم الاقتصادية العالمية ، وأعلى ما يتطلع إليه الحاكم فى كل زمان ومكان ، وتمت نعمة الله على عباده ، بالحاكم العادل ، والرزق الوفير ، والعمل الكريم ، فان العدوان على المجتمع بعد ذلك بجرائم الأخلاق ، أو جرائم الأعراض أو جرائم الدماء أو جرائم السلب والنهب ، أهدار لكرامة المجتمع ، واعتداء على أمنه ، وإفساد لسلامه ، ومن ثم وجب أن تقوم حدود الله ، لتحمى المجتمع من هذا العدوان الوقح ، بالقصاص الرادع ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب . لأن فى عقاب الفرد ، حياة لأمته وحفظا لصحتها الخلقية ، وبنيتها النفسية وأمنها العام .

ولهذا صور القرآن الكريم ، جريمة القتل تصويراً إنسانيا عالميا رائعا « من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا » لأنه اعتدى على أمن الناس جميعا ، وأخل بسلامهم جميعا ، وعرض الإنسانية كافة للخطر والفوضى .

هذه هى واجبات الحاكم ، فان أخل بها ، وجب عقابه . ولهذا قال عمر لحاكم الولاية « فان جاءنى منهم جائع أو عاطل ، فسوف يقطع عمر يدك » .

فاذا كان الفرد تقطع يده لعدوانه على المجتمع بالسرقة والنهب

والسلب ، فإن الحاكم أيضا إذا لم يوفر للناس طعامهم ، وإذا لم يكفل عملا لكل فرد ، فهو مفسدفى الأرض،وهومعتد أثيم مهدر لحقوق العباد خائن لأمانةالحكم ، مناقض للعهـــد ، ومن ثم وجب عقابه، كما تعاقب رعيته .

تكافل تام فى الإحسان والإساءة ، بين الحاكم والمحكومين ، وشرعة فى الحكم تتضاءل أمام أنوارها كل فنون الحكم العالمية .

على الحاكم المسلم أن يكفل للناس الأرزاق والعمل ، فلا جوع مذل ولا بطالة مفسدة ، وإلا وجب عقابه تأديبا وإرهابا لغيره .

بل أن الحكم الاسلامى ليصعد فوق ذلك درجات فيوجب على بيت المال أن يدفع دين من يعجز عن الوفاء بدينه ما دام لم يستدن فيما حرم عليه ، ولو كان موفور الحاجيات اللازمة للحياة .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله « أن أقضوا عن الغارمين » فكتب إليه عامل العراق . « إنا نجد الرجل له المسكن وله الخدم وله الفرس وله الأثاث فى بيته ، وهو بعد ذلك مدين » . فكتب عمر « لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ومع ذلك فهو غارم ، فأقضوا عنه ماعليه من الدين[1] » .

وتأتى على بلاد العرب سنة قاسية ، التهبت فيها الأرض ولم تجود فيها السماء بقطرة من ماء فتقل الأرزاق ، وتختفى الأقوات ، ويجوع الناس فى عام الرمادة .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز على رواية الامام مالك وصحبه ص ١٤٠ .

ويرى عمر ما أصاب رعيته ، فآلى على نفسه ، إن لا يذوق سمنا ولا لحما حتى يحيا الناس ! ؟ وظلت هذه القسوة سياسته على نفسه وبيته حتى أسود جلده كما يقول الطبرى ويسر من أكل الزيت ، ثم أخذت المجاعة تنقشع . وظهرت بوادر الرخاء ، فجاء إلى أسواق المدينة طلائع الزاد، من لبن وسمن ، فيشترى غلام لعمر ، عكة من سمن ، ووطب من لبن بأربعين درهما ، ويذهب اليه لينبئه ويقول له إن الله أحله من يمينه . فلما علم ثمنها . ، قال له . أغليت وليس كل مسلم بقادر وعلى هذا فتصدق بهما ، فأنى أكره أن آكل اسرافا ، أو أذوق طعاما ليس فى بيت كل مسلم ، ثم قال « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم .

تكافل تام بين الحاكم والشعب يمشى إلى كل الآفاق ، ورباط جامع من التعاون الكريم ، والحب البار ، يصل ما بين الجماهير وقيادتهم . وبهذا الحب . وبهذا الترابط تمشى الأمة إلى غاياتها العليا عزيزة قوية متماسكة .

ويرسل على بن أبى طالب إلى واليه على مصر ، يرشده ويرسم له الخط البيانى فى الهدى الإسلامى للسياسة الإقتصادية .

« اشعر قلبك الرحمة بالرعية . والمحبة لهم . والعطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا . تغتنم أكلهم . وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك . وممن له هوى فى رعيتك . فإنك إلا تفعل . تظلم ومن ظلم عباد الله . كان الله خصيمه دون عباده » .

ثم يقول « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله . فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال

على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا ، فان شكى الناس ثقلا أوعلة، أو انقطاع شرب أو غرقا، اغتمر الأرض أو عطشا أجحف بها ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عنهم ، فإنما يؤتى خراج الأرض من أعواز أهلها » .

يردد على بن أبى طالب أيضا ألحان عمر ، لأنهما إخوان على شرعة واحدة، ألحان المحبة فى أكمل صورها وأسمى ألوانها ، وهى ألحان لا تعرفها القوانين المدنيـة ، لأنها لا تتفجر إلا من القلوب المؤمنة، المخبتة لربها ، المتطلعة إلى خالقها ، المحبة التى تجافى الظلم وتحاربه ، وتبرأ منه ، لأن من ظلم عباد الله ، كان خصمه ، ليس الشعب فحسب ، وإنما خصيمه الأول والأكبر جبار السموات والأرضين ، وأين منه المهرب ! !؟

وفهم فى سياسة المال ونظم الضرائب، لم تهتد إليه المدنية الأوربية إلا بعـد عشرات القرون ومئات المحن والخطوب ، والانقلابات والثورات الدامية الغضوب ،وحينما اهتدت إليه علما وتجربة وفنا ، عجزت عن لمسه رحمة ومحبة وعدلا .

ويثب معاوية إلى الحكم وثبا ، ويمتحن العالم الإسلامى بالدولة الأموية ، ولـكن مصابيح الإيمـان فى القلوب لم تزل مضيئة ، والفهم لرسالة الحاكم وتبعاته وحقوق الرعية وواجباتها لم تزل عالية مبينة .

يدخل أبو مسلم الخولانى على معاوية ، ليخاطبه باسم الجماهير ، بلغة الفطرة العربية ، وبلحن الفكرة الإسلامية قائلا :

« .. إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها والقيام بحقوقها فان أنت هنأت جرباها . وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها ، وفاك سيدها أجرك ، وإن أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداوى مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها ، وتمردت عليك صفوفها . . »

ويرسل عطاء إلى فاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز يطلب منها أن تخبره عن أحوال عمر ، فكتبت إليه :

« . . إن عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه ، وصل يومه بليله ، إلى أن أمسى مساء ، وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذى كان من ماله فصلى ركعتين ثم أقعى واضعا رأسه على يديه ، تسيل دموعة على خديه ، يشهق الشهقة يكاد يتصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً ، فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان ؟ قال أجل فعليك بشأنك ، وخلينى وشأنى فقلت: إنى أرجو أن أتعظ ، قال: إذن أخبرك ؟ إنى نظرت فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة ، أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذو المال القليل والعيال الكثير وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت إن الله سائلى عنهم ، وإن رسول الله حجيجى فيهم ، فخفت أن لايقبل الله منى معذرة

فيهم ، ولا تقوم لى مع رسول الله حجة ، فرحمت والله يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى ، ووجع لها قلبى ، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ، ازددت منها خوفا فاتعظى إن شئت أو ذرى . . »

نماذج إسلامية من الحاكمين لم تعرف الدنيا لهم أخدانا ، نماذج كونتهم العقيدة الربانية وأخرجتهم جامعة القرآن ، حاكم إذا انتهى من أعمال الرعية استدعى مصباحه الخاص، لا مصباح المسلمين، حتى لا يستضىء بضوء من المال العام ، فى وقت فراغ واستجمام .

حاكم يصل ليله بنهاره فى الخدمة العامة ثم يتزلزل قلبه رهبة من الله أن لا يكون قد قام بحق العباد ، قياما كاملا فيما ولاه الله من أمورهم .

حاكم يرى أنه مسئول أمام الله وأمام عقيدته وأمام ضميره ، عن الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذى العيال الكثير والمال القليل ، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، وكيف يهنأ بحياته وطمأنينته ، وهو يعلم أن الله سائله عن كل هذا ، وأن رسول الله حجيجه يوم الفزع الأكبر .

تلك الحساسية العالية تكونها العقائد الإيمانية . ولا تتسامى إلى آفاقها الشرائع المدنية ولا تسامقها ، وهو فرق بين منهاجين كفيل وحده بالترجيح والامتياز .

ثم مشت الحياة بالعالم الإسلامى ، فتسللت إلى محيطه عقائد البلاد التى ضمتها جوانحه ، وعاداتها وتقاليدها ، وخالطته الملل والنحل والمذاهب التى كانت تموج بها تلك البلاد .

وجاءت الدولة العباسية ، على كواهل أقوام فى خيالهم صور من

الملكيات المقدسة ، التي هيمنت طويلا على فارس ، وظلال ارستقراطية متكبرة عالية ، طالما أظلت ما وراء النهر .

فأخذ الملك العباسي يتلون بهذه الألوان ، ويتشكل في تلك الأردية ، وأخذت البطانات الملكية المنافقة المضللة ، تنجم وتتضخم وتنفخ في هذا البوق ، وترسي قواعده ، وتنشر آدابه ونظمه .

وأخذ رجال الفكر . وهم سدنة الدعوة والارشاد . ورجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحماة المصابيح الإيمانية ، ومطلق شعاعها في قلوب الجماهير ، يتخلون عن أماكنهم ويقبعون في دورهم ويمسكون ألسنتهم عما أمر الله به ، ويفنون وجودهم في حوار طويل لا ينتهي حول القضاء والقدر ؟ ومرتكب الكبيرة ومنزلته بين المنزلتين ؟ وصفات الله جل جلاله ، وكيفيتها وصورها ، وهل هي معنويات تحال على الاستعارة والتشبيه ، أم هي كما وردت صفات وجوارح ليس كمثلها شيء ، ولا يجوز أن تتطاول اليها الاستعارة أو يدنو منها التشبيه ؟ ؟

وكانت النكبة الكبرى ، موقف رجال الفقه ، حماة التشريع ورجاله ، فقد بهرت أعينهم موائد الملوك وارعب قلوبهم بطش الحاشية ، فأخذوا يتخلون عن رسالتهم شيئا فشيئا ، ويحيلون شريعة الله ، بنظمها السياسية العالية ، ومبادئها الاقتصادية السامية ، وتصوراتها الاجتماعية السامقة ، إلى جدليات وتفريعات يدور محورها الأكبر حول الجوانب التعبدية في الاسلام ، يتحدثون لا عن روحها وأنوارها ، وإنما عن أشكالها وأثوابها فظهرت الموسوعات الضخمة التي تموج بالحديث الطويل الغث ، عن

الحيض والنفاس ، وسنن الوضوء وصلاحية الماء ، ووسوسة المصلين ، وبيع الثمار على النخيل ، وشفعة الجار ، وعدد ركعات التراويح ، والخنثى وميراثها ، والفرق بين ما أسموه سنة ، وما أطلقوا عليه كلمة الواجب ، وما وصفوه بالمندوب ؟؟ إلى غير ذلك ، من مسميات ونعوت ، لا تحمل معنى ، ولا ترسل نورا ، ولا تهدى إلى خير .

لقد أقبل الفقهاء على الجوانب الآمنة ، التى لا ترهب حاكما ، ولا تغضب حاشية ، ولا تحمل صاحبها مسئولية الجهاد وقسوة الكفاح ، ولا تقدم للأمة زادا أو نورا يرشدها إلى سبل السلام ، ورضوان الله .

وأخذ الفقه يتحول شيئا فشيئا من قوة تشريعية حية نامية متطورة ، تنظم صلات الحاكم بالمحكومين وتقيم حدود الله وتنفذ شرائعه وتحفظ قلب العالم الاسلامى ، بما تقدمه اليه من نظم اجتماعية ومالية متطورة ، ومثاليات خلقية وأدبية صاعدة ، ومن دعوة إلى الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وجهر بكلمات الحق فى وجه القوة أيا كان بأسها أو سطوتها ، إلى قوة تفنى حيويتها ، وتفنى نشاطها ، فى أبواب جانبية من حواشى الفقه وافتراضاته ، حتى لنرى عملاقا من عمالقة الفقه ، هو أبو الحسن الأشعرى يخطىء فى بديهيات السياسة الشرعية ، وبديهيات فلسفة الحكم ودستوره ، فيقرر أن البيعة من الأمة للامام بالولاية تتم ولو بفرد واحد (١) وبذلك يحطم هذا الامام الكبير إرادة الجماهير ، ويهدر رغباتها ويطفىء أكبر مصباح مضىء فى الأفق الاسلامى ، أفق

---

(١) الخلافة والامامة العظمى للسيد رشيد رضا ص ٢٠ .

الشورى ، وأمانة الحكم الذى يبنى عقده على البيعة العامة ، أى الانتخاب العام المباشر .

وتبعاً لهذا الموقف من الفقهاء ورجال الفكر والدعوة ، وهم يمثلون فى العصور السابقة ماتمثله اليوم الصحافة ، والمجالس التشريعية ، ابتدأت قوى الوعى فى الجماهير تتضاءل وتتوارى مختنقة بهذا الغبار ، غير مبصرة وقد انتشر هذا الضباب الحالك السواد .

ومس العالم الإسلامى داء الشعوب الماضية ، داء كل حضارة مترفة على قمتها ملكية مستبدة ، وأخذت مصابيح الحريات تنطفىء مصباحا فمصباحا ، والأجهزة التشريعية الإسلامية تتفكك جهازا فجهازا ، وحقت كلمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »

« وفى رواية البخارى » عن أبى هريرة « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع ، فقيل يا رسول الله ، كفارس والروم ، فقال ، ومن الناس إلا أولئك » .

ودخل المسلمون جحر الضب الضيق القاتل ، ولم يبق يعصمهم من الزوال ، إلا قوة عسكرية كانت تتضخم وتحيا ، بما يتدفق عليها من أمم خشنة باسلة ، كانت تقبل على الاسلام مؤمنة به فى موجات تاريخية دافقة .

وبقايا من وعى الجماهير تبزغ ثم تتوارى ، كما يحدثنا التاريخ عن هؤلاء الذين أفزعهم أمر العالم الاسلامى ، فاجتمعوا فى مؤتمرهم ، وأوفدوا إلى المأمون رسولا يجابهه بكلمات الله ، وحقوق الشعوب ، وينظر فى موقفه منهما

« روى يحى بن اكثم أن المأمون جلس يوما للمناظرة فدخل عليه على بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين رجل واقف عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ، ويطلب الدخول للمناظرة، فقال المأمون : إئذن له، فدخل عليه رجل عليه ثياب قدشمرها ونعله فى يده، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله، فقال المأمون : وعليك السلام فقال : أتأذن فى الدنو منك ؟ قال آذن . فدنا . ثم قال : إجلس فجلس ثم قال : أتأذن فى كلامك ؟ فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا ، قال. أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته ، أبأجماع من المسلمين عليك ، ورضامنك، أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك؟ قال: لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى حمده المسلمون، إما عن رضا وإما عن كره فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضر من المسلمين ، فأعطوا ذلك إما طائعين أو كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على هذا السبيل الذى مضى عليها فلما صارت إلى علمت أنى أحتاج إلى إجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام . وانتقضت أطرافه ، وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد أحد فى سبيله ، ولم يكن له سلطان يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم وآخذا على أيديهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه على الرضا به ، فأسلم الأمر

إليه وأكون كرجل من المسلمين ، وأنت أيها الرجل رسولى إلى جماعة المسلمين فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت إليه من هذا الأمر فقال : السلام عليك ورحمة الله ، وقام !؟ فأمر المأمون على بن صالح بأن ينفذ فى طلبه من يعرف مقصده . ففعل ذلك ثم رجع وقال : وجهت يا أمير المؤمنين من تعقبه إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا ، فقالوا له . لقيت الرجل ؟ فقال نعم : قالوا : فماقال لك. قال . ماقال إلا خيراً ذكر أنه ناظر فى أمر المسلمين إلى أن تأمن سبلهم ، ويقوم بالحج والجهاد فى سبيل الله ويأخذ المظلوم من الظالم ، ولا يعطل الأحكام ، فإذا رضى المسلمون برجل سلم الأمر إليه . وخرج اليه منه . قالوا . ما نرى بهذا بأسا وافترقوا !؟ »

وهى رواية تاريخية ترشد إلى أن المسلمين مع بأس الضربات التاريخية التى عصفت بهم ، ومع ما أصيبت به الفكرة الإسلامية من جروح على أيدى الغاصبين للحكم ، الوائبين على الولايات بغير حق ، ومن ضعف وجمود على أيدى الفقهاء الجدليين ، لم تفارق الجماهير روح الإسلام روح الشورى واليقظة والفهم الصحيح لرسالة الحكم ، حتى ليأتى رجل من عامة المسلمين فيقتحم على المأمون أريكة ملكه وصولة بأسه ، فيسأله عن هذا الكرسى الذى يجلس عليه ليحكم بين المسلمين ، هل أخذه بحقه ؟ ببيعة عامة ؟ برضا منهم ؟ أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم .

وكان المأمون صريحا فأجاب بأنه ولى الحكم وراثة ومبايعة ، وأنه لو تخلى عنه لتفرقت كلمة المسلمين واضطرب حبل الاسلام وانتقضت أطرافه

وعمته الفتن ، فتتعطل حدود الله ، وتهمل شرائعه ، وتقف دعوته العامة ، لأن الناس لابد لهم من راع ، والأمة لا تقوم إلا بقائد ، وإنه ليمسك بالزمام حتى يجتمع المسلمون على رجل سواه إن أحبوا واختاروا .

ويعود الرجل إلى صحبه الذين أوفدوه ، حاملا لهم رسالة المأمون وحجته ، وترى تلك العصبة فى كلماته اقناعا أو ما يشبه الاقناع ، إن لم يكن تاما وشافيا ، فهو منطق الأمر الواقع ، وأهون الضررين وأخف الشرين !؟

وبفساد الحكام الاسلاميين وانحرافهم عن الشورى ، وابتعادهم عن روح الإسلام ، وبجمود الفقه وعدم تطوره وملائمته للمجتمعات المتطورة المتحركة ، وبقعود رجال الدعوة والارشاد عن واجباتهم ، حدث الانهيار فى العالم الإسلامى . وابتدأ يتخلى عن رسالته العالمية كقوة إيمانية ، تحمل رسالة ، وتبشر بدعوة ، وتقدم للانسانية تشريعا ونظما وزادا وخيرا .

وأخذ يتوارى كقوة حربية منتصرة ، لها بأسها الشديد ، وكلمتها العالية فى المجتمعات الدولية ، بل أخذت هذه الجامعة الضخمة الهائلة ، التى تحتل قلب الكوكب الأرضى ، ويمتد نفوذها وسلطانها إلى أطرافه وتخومه تتحول إلى قطع متناثرة ، وأمم ممزقة ، وشعوب خامدة جامدة خاملة .

وابتدأ المد الحضارى ينحسر عنها ليغمر أمما أخرى فى الجانب الغربى من هذا الكوكب ، أمم مالبثت طويلا حتى أوثبت على الشعب الضعيف المريض ، فورثته وابتلعته وأذلته ، وضربت على عينه بسحرها وعلى قلبه بشهواتها ، وعلى وجوده بقوتها .

ولن يعود مجد الإسلام ، ولن يبعث المسلمون كقوه عالمية إلا يوم يعود الحكم الإسلامى بشرائعه وقواعده ، وحرياته ونظمه ، وما فيه من عدالة ومحبة وتكافل تام . بين الحاكمين والمحكومين .

يوم يعود الحكم الإسلامى ، توجد الأمة الإسلامية ، وتقوم شريعة الله كاملة كما ارتضاها لعباده واصطفاها .

يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وتعود راية الإيمان خافقة عالية سيدة كما كانت ، يوم كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

وفى السنن أن أحمد بن حنبل كان يقول « لو كانت لى دعوة مستجابة لدعوت بها للسلطان » ويقول الإمام ابن القيم تعقيبا عليها « لأن السلطان لو صلح لصلح المسلمون » ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ، الأمراء والفقهاء » .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا ضيعت الامانة ، فانتظر الساعة ؟ قيل يارسول الله ، وما إضاعتها قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة »

وكلمة الصادق الأمين ، ميزان صادق أمين ، فالحكم إذا فسد أشرفت الدنيا على الزوال ، لأن فساده كفيل بخراب الأرض !؟

سياسة الحكم في الدولة الإسلامية

صلة الدين بالسياسة

في أذهان الناس أوهام ضخمة عن الحكومة الاسلامية ، وتهاويل غامضة مهتزة حول سياستها ومبادئها ونظمها .

أوهام سهم في تكوينها ، ضعف المسلمين ، وجمود الفقهاء ، وغموض التاريخ ، والبهرج المتلألىء الذي سحرت به أوربا أعيننا، فلم نعد نبصر في برقه ، رسالات الاسلام .

وتهاويل نسج أعلامها ، ورسم آفاقها ، المتعصبون بجهالة، والمستعمرون وتلاميذهم ، والمغرضون المحاربون للاسلام حربا تاريخية تقنعت بكل صورة ، وتوارت وراء كل لون .

وفي طليعة الأوهام والتهاويل ، صلة الدين بالسياسة ، وعلاقته بالحكم . وموقفه من الحاكمين ! ؟

والعالم الاسلامي وهو يخطو اليوم على البرزخ الفاصل بين الموت والحياة ، تحلق في سمواته فكرتان متعارضتان في عنف وجموح ! ؟

تتنادى أولاهما بأن الاسلام دين ودولة ، ورسالة وشريعة ، وأن السياسة التي تهيمن على أفقه يجب أن تكون سياسة دينية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معان ، وبكل مايتبعها من قيام حكومة دينية وحكام دينيين .

وحجتها على ذلك ، منطق القرآن ، ومنهج السنة ، والتطبيق التاريخي في صدر الاسلام ، وبرهان متلألىء ناطق بأن العالم الاسلامي، لم تتمزق

ألويته ، ولم تهدر مقدساته ، إلا منذ انفصل الدين فيه عن الدولة ، وتخلى التشريع عن التوجية والقيادة .

وتهتف الثانية ، بأن الاسلام دين تعبدى ، ينظم صلات الانسان بفاطر السموات والأرض ، ورسالة أخلاق ومثاليات تأمر بالبر والتقوى ومكارم الأخلاق ، ثم يقف هديه عند هذه الحدود ، فلا شأن له بعد ذلك بسياسة الحكم ونظمه وفنونه ، وما يلزم له من كياسة ومرونة ودبلوماسية .

ولا علاقة له بالتشريع والمعاملات ، وما يضطرب فيه الناس من شئون الحياة ونظمها المتطورة ، المتأثرة بما يحيط بها ومايجاورها من حضارات وثقافات .

وحجتها أن الحكومة الدينية ، مؤسسات تاريخية انقضى عهدها ، فقد تقدمت المعارف البشرية خطوات ، وكسبت البشرية حريات واسعة الآفاق ، وفرضت الآلات والمجتمعات العمالية ، والتطورات الاقتصادية على الحياة ألوانا من النظم والقوانين لا تتسق مع التزمت الدينى ، والدكتوريات الشرعية المقدسة .

وفى حقائب التاريخ أكداس هائلة من جبروت هذه الحكومات وطغيانها وما صبته من عذاب غليظ على شعوبها ، والمسلمون أنفسهم ذاقوا مرارة هذا اللون من الحكم المقنع بالقداسات ، إذا استثنينا عهد الراشدين من الخلفاء المهتدين ، ويرجع هذا الاستثناء إلى كفاءات خاصة ومناسبات شاذة أحاطت بهؤلاء الراشدين ، وليس فى طاقة التاريخ أن

يمنحنا دائما حاكما رشيدا ، أو يهيء دائما مناسبات شاذة ؟!

وكل فكرة من الفكرتين تتسم بالجموح والتطرف ؟! وتنقصها الدقة العلمية والفهم الكامل اليقظ لرسالات الاسلام وهديه ، والتحديد الدقيق للصلات المقررة فى الاسلام بين الدين والدولة ، والروابط المتكافئة بين التشريع والحكم .

أما أن الاسلام دين ودولة ، ورسالة وشريعة ، فهذه بديهة من بديهيات الاسلام مهما حاول المحاولون التمزيق والتفتيت، ومهما سافوا من بهرج وزيفوا من ألحان .

فالقرآن الكريم تهتف آياته ، وتنادى بلسان عربي مبين ، بان الاسلام دين ودولة،وتشريع وحكومة،ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بالمتواتر المتصل من الأحاديث والسير لم يكن مرسلا بالأخلاق ومكارمها،والعبادات وفرائضها فحسب ،بل كان صلوات الله عليه مشرعا وقائدا وحاكما ومنفذا لحدود الله ، ومهيمنا على شئون الحكم ومقتضياته.

ولعل أوضح الخطوط الرئيسية فى الاسلام ، أنه دين تنظيم وتنسيق كأدق ما يكون التنظيم ، وأكمل ما يكون التنسيق ، دين قيادة وتوجيه لكل شأن من شئون الحياة دق هذا الشأن أو تضخم ، سموقا وهبوطا، حتى أن الرسول صلوات الله عليه ،ليأمر أصحابه إذا سافروا،ثلاثة فأكثر فلا بد أن يؤمروا عليهم أحدهم ليقوم بأمرهم وينظم حياتهم وينسق تصرفاتهم .

دين وحدة وتكافل وتعاون،فكل مسلم يجب أن يلزم جماعة المسلمين وأن يشترك برأيه وعقله فى إنتخاب إمام لهم . وفى نسج دروعهم ، وتزكية أرزاقهم ، ودفع العدوان عن بيضتهم ، ومن فارق الجماعة شبرا

فمات ، مات ميتة جاهلية كما روت كتب الصحاح .

وكل مسلم فى الأمة الاسلامية عليه تبعات وله واجبات ، كل راع وكل مسئول عن رعيته ، فالإمام راع للأمة والأب راع لأبنائه ، والزوجة راعية على بيت زوجها ، والموظف راع على ما أسند إليه وأمين عليه ، « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

ولقد أدار المسلمون وجودهم منذ فجر تاريخهم على أن دينهم رسالة وشريعة ونظام عام للحياة .

وعلى كل مسلم أن يؤمن بأن التشريع والحكم فريضة إسلامية ، كما يؤمن بفرائض الصلاة والصيام وشهادة أن لا إله إلا الله ، فلن تتم صلاة ، ولن تكون كلمة التوحيد إلا بحقها ، وتمام هذا وذاك بأن تنفذ شرائع الله وأن يكون الحاكم رقيبا على تنفيذها .

ولكن ما مدى علاقة الدين بالدولة ، وما مدى صلة الاسلام بالسياسة ! ! ؟ من هنا وقعت الفكرتين فى الخطأ ومن هنا نشأ الابهام التاريخى الذى تضخم فأنتج هذا الخلاف فى الفكرة والمنهج .

لقد جاء الإسلام دينا محكما للناس كافة ، فاتسعت آفاقه لكل الأجنحة المحلقة على اختلاف ألوانها وقواها ، وعلى اختلاف أجوائها وبيئاتها ، واشتملت قواعده على مرونة تدور مع الحياة ولا تقف ، وينبثق منها الهدى والخير لا يغيض لها نبع ولا يلتوى بها قصد .

دين ارتضاه الله ليكون الختام العاطر المضىء لجامعة الرسل ، ومهيمنا على الشرائع الإلهية كافة ، فأودع سبحانه فيه خصائص الامتداد

التاريخى ، وسنن الحركة المتطورة التى تدور مع مصالح الناس وتمشى مع خطوهم الحضارى .

ولهذا لم يشرع الاسلام لاتباعه نظما مفصلة للحكم ، وما يتعلق به من مناهج إدارية ، ومقومات سياسية ، ولو فعل الاسلام هذا لتناقض مع رسالته ولكان دينا إقليميا محدود الآفاق ، موقوت الحياة ، ولكان دينا ضيقا لا سعة فيه ولا رحمة ، يحجر على العقول أن تفكر فى أمور حياتها ، ويحجر على الحياة أن تتطور وتمشى بالناس ، ويحكم على أتباعه بالعيش داخل قماقم لا ترى النور ، ولا تسهم فى الوجود .

ومن هنا جاء الجانب التعبدى فى الإسلام مفصلا محددا مبيناً . لأن العبادات أوامر إلهية مطاعة لا شأن للعقول بها ولا رأى للناس فى طرائقها ونهجها ، وهى لا تتعلق بزمان ، ولا تخضع لمكان ولا تتثنى إلا لقاعدة واحدة هى قاعدة الضرورة التى تهدد الحياة فهنا يأتى التيسير والتخفيف حينا ، والإباحة الكاملة أحيانا .

ولكنه جاء فى شئون الناس ، وما يتعلق بحياتهم من معاملات وسياسات ونظم ، بكليات عامة وخطوط عريضة ، وترك التفصيلات والجزئيات والفروع للعقول ، تبتدع وتفكر ، وتنظم شئون الحياة على ضوء المصالح العامة وبمقتضى التطور الزمنى ، والامتداد الحضارى يقول الاستاذ خلاف فى كتابه (علم أصول الفقه) « ومن استقراً آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية ، لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدى لا مجال للعقل فيه ، ولا يتطور مع البيئات وأما فيما عدا العبادات والأحوال

الشخصية من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية فأحكامه فيها قواعد عامة ومبادىء أساسية ، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا فى النادر لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادىء الأساسية ليكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن العامة من غير اصطدام بحكم جزئى .

جاء الاسلام بقواعد عامة لسياسة الحكم ، قواعد تتسق ورسالته الخلقية والاجتماعية والإيمانية ، فى طليعتها العدالة المطلقة التى لا تعرف التحيز ولا المفاضلة ، حتى فى نظرات الأعين الغاضبة أو الرحيمة ، وحركات الأيدى المنذرة أو المؤيدة .

أمر الإسلام الحاكم ، بأن يكون عادلا لا تنال من عدالته مؤثرات الحياة ، من هوى أو قربى أو مصلحة عاجلة ، بل « لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » فالعدل هو التقوى ، وهو شريعة الله ، وروح الكون .

أما تنظيم الوسائل التى تؤدى إلى العدل ، وتكفل العدالة ، وتحقق الانصاف ، وتقيم الصراط ، من نظم التقاضى . ووسائل التنفيذ ، ومناهج التنظيم . فأمر متروك للناس والعقول والعرف والعادات والزمان المتحرك ، والحياة المتطورة .

ومن قواعد الاسلام الكلية فى الحكم ، أن الأمر شورى بين المسلمين ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، أخوة لأم وأب وأن الحاكم

لايصل إلى الحكم بالغلبة أو الوراثة ، وإنما بالانتخاب العام الذى عرفه المسلمون بالاصطلاح التاريخى . البيعة العامة .

أما طريقة الانتخاب ، ونظم المبايعة ، ونهج الشورى ، فللعقول أن تدبره وتسوسه بما تشاء من وسائل ، وبما يتفق مع لون حياتها ، ويتسق مع ما وصل إليه ركب الحضارة العالمى .

ومن قواعد الاسلام الكلية ، أن الحاكم رقيب على تنفيذ شرائع الله وحدوده ، عامل على نشر الدعوة الاسلامية والمحافظة على جوهرها ورسالتها .

أما كيفية التنفيذ ، وطرائق المراقبة ، ووسائل نشر الدعوة ، فمتروك للاجتهاد والاستنباط ، وما يجتمع عليه رجال الفكر ، وأرباب العقول .

فالسياسة فى الإسلام على هذا الضوء المبين سياسة مدنية حرة التصرف ، حرة الحركة ، حرة الاجتهاد ، فى نطاق عام متسع الآفاق ، مرن الجنبات ، من القواعد والكليات .

ووظيفة الحاكم الاسلامى بشقين ، شق يتصل بالدين فى كلياته العامة ، وخطوطه الرئيسية ، وشق وهو الأكبر يتصل بالحياة المدنية ، ويدور مع المصالح المرسلة ، ويتحرك مع التطور التاريخى .

والحكم من الوجهة الدينية ، عدالة وشورى وإشراف على تنفيذ شرائع الله وحدوده ، ومن الوجهة الدنيوية ، حكم مدنى مستكمل للشروط المدنية كافة ، حكم مرن متطور يراعى العرف والعادة ، كما يراعى مصالح الناس المتحركة ، ولون الثقافات المحيطه به ، وطابع الحياة التى يدور فى فلكها .

فالاجتهاد والابتكار ، هما محور الحياة الاسلامية ، السياسية والادارية ، ومن هنا نفقه قول الرسول صلوات الله عليه « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » رواه مسلم .

والحديث آية الآيات على حرية العقل الانسانى وإجلاله واحترامه ، بل لقد جعل تلك الحرية فريضة على العقول حتى تبدع وتنشىء ، وتمد أمتها بالزاد الحى النابض بالقوة ، فى كل مرفق من مرافقها غير مقيد اليدين ولا مكبلهما بقيود التزمت وسلاسل الجمود ، وتزداد الحرية درجة فى السموق ، فيؤمنه الرسول أماناً علوياً من خوف الخطأ إذا حسنت نيته فيجعله حتى فى خطأه مثاب ومأجور .

يقول العلامة السيد محمد بيرم (١) « وكبار العلماء متفقون على أن مايتعلق بالعبادات من أحكام الدين ، هو الذى لا يقبل التغيير بوجه ، أما ما يتعلق بالسياسة والإدارة فليس كذلك ، ولقد قرر الامام أبو عقيل . أن للحكومة أن توسع مجال نظرها السياسى فيما ليس منصوصا عليه ، وأن لا تتوقف فيما لم تعين الشريعة حكمه ، ولقد أجمع العلماء على أنه حيثما وجدت طرق توصل إلى الحق وإقامة العدل فهنالك حكم الله سواء كان مصدر ذلك نصوص الشرع أو معارف البشر ، وقد أمرنا الله سبحانه باتباع الطريق الأنجح ونهانا عن سلوك غير السبيل الأصلح » .

ويقول الأمام القرافى (٢) العلامة المالكى المجتهد « إن التوسعة على

---

(١) الاسلام والاصلاح ص ١٧ .

(٢) مدارك الشريعة الاسلامية ص ١٦ .

الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفا للشرع بل تشهد له القواعد ، ومن جملتها أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف حاله فى العصر الأول ، ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام ، بحيث لاتخرج عن الشرع ، ويوافق هذا قول عمر بن عبد العزيز « تحدث للناس اقضية بقدر ما يحدثون من أمور » وقول عز الدين بن عبد السلام « تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات » . ثم يقول .

« ويتصرف المسلمون فى الأحكام على نهج المصالح فإذا أدركوا المصلحة فى العمل بالقول الضعيف أخذوا به وتركوا ما هو مشهور حيث كان مجرداً عنها ، قال أبو على المسنادى ، إذا جرى العمل بمن يقتـــدى به بما يخالف المشهور لمصلحة وسبب ، فيعمل بما يتفق مع المصلحة ، وإن كان مخالفا للمشهور » .

فالاجتهاد وحرية العقول . والتمشى مع مصالح الناس ، هو القاعدة المقررة فى الإسلام لسياسة الحكم ووسائله ، أو كما يقول الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز « تحدث للناس أقضية بقدر مايحدثون من أمور » وكما يقرر العلامة الاسلامى الكبير عز الدين بن عبدالسلام « تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات ،ويتصرف المسلمون فى هذه القضايا على نهج المصلحة العامة ، فأينما وجدت المصلحة العامة ، فثم سياسة الاسلام حكما وتشريعا .

فالحكم فى الإسلام يدور مع خير الناس ، ومع ما يكفل سعادتهم وقوتهم ، ولا تجمد تلك السياسة ، ولا يقف هذا النمو ، بل هو تابع للحاجة ، متطور مع الحضارة .

ولقد فهم المسلمون فى صدر الإسلام هذا وعرفوا أن لهم أن يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك لأنه منوط بالمصلحة التى يقتضيها التيسير على المسلمين ، وتستلزمها حاجة الدولة ، فأخذوا أصول الحكومة الإدارية عن الفرس كتدوين الدواوين ، ومسح الأرض وإحصائها ووضع الخراج عليها واقتبسوا من كل الأمم التى فتحوها نظما إدارية استفادوا بها ، وسياسات تنظيمية طبقت فكانت من مصادر قوتهم ، ومن دعائم وثبتهم ، كما فهموا أن كل اختلاف على مسائل الحكم ووسائله وسياساته يجب أن لا يزج باسم الدين فيه لأن هذا اللون من الاختلاف من شئون الناس ومن صناعة العقول ، ومن فطرة الحياة .

ولقد طبقوا فى صدر الإسلام هذا الفهم تطبيقا واسعا شاملا ، فقد اختلفوا فيما بينهم على الحكم وسياسته ونظمه ووسائله اختلافا دنيويا سياسيا غير ملون بعصبية الدين ، أو مقيدا بأيمانياته وتعبداته .

اختلف أبو بكر الصديق مع على بن أبى طالب فى شأن الخلافة ، ومكانة البيت النبوى منها ، وأحقية على فيها ، واختلف أبو بكر وعمر ابن الخطاب مع على وأهل البيت جميعا فى ميراث النبى الذى طالبت به فاطمة بنت النبى ومنعها أبو بكر وعمر منه .

واختلف أبو بكر مع عمر بن الخطاب فى الاعطائيات المقررة فى بيت المال للمسلمين ، فقد أدارها الصديق على المساواة الكاملة بين المؤمنين جميعا ، ولم يرض عمر برأى الصديق وعارضه طوال خلافته فلما تولى الخلافة غير سياسة الحكم المالية من قواعدها ، وأعطى الناس مرتباتهم الشهرية حسب أسبقيتهم فى الإسلام وقرابتهم من رسول الله.

واختلف أبو بكر مع عمر فى أمر خالد بن الوليد فى حروب الردة ، وقتله لمالك بن نويرة وزواجه من زوجته فقد رأى أبو بكر أن خالدا اجتهد

فاخطأ ولهذا دفع دية القتيل، من بيت المال، ورأى عمر أن خالدا قتل فى غير شبهة وتزوج فى شهوة . فوجب القصاص منه ! ؟

واختلف عمر ومن معه مع فريق كبير من الصحابة فى أمر الفىء ، طالب المحاربون بأن تعطى أرض العراق والشام للجنود الذين فتحوها بسيوفهم تطبيقا لآى القرآن ، ورأى عمر ومن معه أن من المصلحة العامة أن لا تقسم الأرض بين المقاتلين ، بل تبقى ملكا للدولة ، وتضم غلتها لبيت المال ليكون قوة وعونا للمسلمين جميعا .

وأختلف على ومن معه مع عثمان بن عفان فى أمر عبد الله بن عمر عند ما قتل الهرمزان لإعتقاده بأنه المدبر لجريمة قتل أبيه الخليفة الشهيد ، فرأى على ضرورة القصاص لان البينة لم تقم، ولأن القصاص من سلطان الحاكم الذى هو ولى الدم ، ورأى عثمان ومن معه أن عمر قد قتل بالأمس فكيف يقتل ابنه اليوم فى قصاص استعجل فقام به ولم يتركه لولى الدم ! ؟ ولى الأمر ! ؟

وخالف عمر بن الخطاب فى سبيل المصالح العامة ماجرى عليه الرسول . وماجرى عليه المسلمون فى عهد الصديق، وما نص عليه القرآن فى أمر المال الذى يعطى للمؤلفة قلوبهم توددا لهم واستعانة بقوتهم ودفعا لبأسهم

وهكذا اختلف المسلمون فى كبرى المسائل التى تمس حياتهم السياسية بل والتشريعية أوثق مساس ، فما كفر بعضهم بعضا ، ولا جرح بعضهم بعضا ، ولا تقاذفوا بينهم كلمات الفسق والكفر والمروق .

لقد علموا وهم أعلم الناس بالإسلام ، أن اختلافهم اختلاف فى السياسة ، اقتضاه اختلاف العقول واختلاف طرائق الاجتهاد وفطر الناس ، فلم يزجوا باسم الدين فى المعترك ، ولم يطلقوا صيحة مرعدة بالغضب فوارة بالدم باسم القرآن والايمان .

ثم توالت على المسلمين العصر ، ونشأت حكومات استبدادية ، وضعف أمر الاجتهاد ، وانطفأت مصابيح الحرية ، فنشأت فى الظلمات أوهام خاطئة حول علاقة الدين بالسياسة ، وصلاته بالحكم ، وكان هذا الخطأ فى الفهم والتطبيق ، كارثة المسلمين التاريخية .

لقد نشأ الحكم فى الاسلام ودارت سياسته على أن الخليفة هو رأس الدولة الاسلامية ، المهيمن على شئونها الادارية والسياسية ، والمنفذ أيضا لشرائعها وحدودها ، فلما ضعف المسلمون اختلطت المهمتان مهمة الحاكم كمنفذ للشرع ، ومهمته كحاكم إدارى ، وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين ، امتزاجا أدى بالحكم إلى الاستبداد ، وإلى الجمود ، ونشأت تبعا لذلك فكرة الخضوع المطلق للحاكم الدينى الذى تجب له الطاعة .

وأعقب هذا أن العالم الاسلامى بدلا من أن تبزغ فيه أحزاب سياسية ، تتطور بحياة المسلمين الفكرية والعلمية ، وتقيم معارضة منيرة واعية فى وجه الحاكم ، بزغت فى أفقه فرق دينية متعصبة أججت فى محيط العالم الاسلامى نيران الحروب والفتن والثورات .

لقد تطورت الأحزاب السياسية التى نشأت فى صدر الاسلام على أساس إختلاف وجهات النظر السياسية والإدارية والاجتماعية ، بين قوم مجتهدون مستنبطون مجددون ، إلى فرق دينية متطرفة متنابزة ، تقتات الحقد ، وتحترف الدسائس ، وتشيع بين صفوف المسلمين الاضطراب والفوضى .

انقلب حزب على السياسى الذى كان يناصر البيت الهاشمى ، ويرى فى على كفاءات ليست لغيره ؟ إلى فرقة دينية ضخمة ، عرفتها القرون الأولى باسم الشيعة ، ثم عرفها التطور التاريخى مقنعة بألوان وصور لا عداد لها .

وانقلب الحزب الجمهورى الذى نشأ فى البادية وتنادى بأن الحكم فى ذروته العليا ــ الخلافة والامامة ــ حق مشاع بين المسلمين جميعا وليس لقريش خاصة ، إلى نحلة دينية حمل لواءها الفكرى المعتزلة وحمل علمها الحربى الخوارج بوثباتهم الحمراء الدامية

وهكذا بزغت الفرق ونجمت النحل من باطنية ومرجئة وقرامطة وغيرهم ، وغرق العالم الاسلامى فى طوفان غضوب جامح ، من الجدل والحوار والثورات الدموية التى مزقت وحدته، وأهدرت قوته، وكانت السبب الأكبر فى إنهيار أممه ، وسقوط دوله ، وجمود مجتمعاته الشعبية ، وتخلفها وعزلتها عن تطورات المجتمعات العالمية .

ولانزال تلك البلبلة الدينية تعيش بيننا، وتنمو فى مجتمعاتنا، وينجم من خلال سحبها السوداء قرن الشيطان ! ؟

لقد أساء المسلمون فهم صلة دينهم بالحياة؟ فزجوا باسمه فى كل شأن من شئون وجودهم وأصبحوا يستفتونه فيما ليس من إختصاصه ، ويحملونه ما ليس من رسالته ، حتى ليحدثنا التاريخ عن جماعات كانت تقاوم التجديد الحربى فى الجيوش الاسلامية باسم الدين ؟ وتخاصم الصناعات بكلمة الايمان، ويروى لنا أنباء فقهاء، حاربوا كل إصلاح باسم التقوى وكل تطور للخير بلحن القرآن الكريم .

وصار من سنن المسلمين أنهم لا يقبلون جديدا أو تطورا وإصلاحا إلا إذا استفتوا فيه شهواتهم أو شهوات حكامهم ، ثم يزعم المفتون منهم والمتصدرون ، أنهم يستفتون الايمان والدين ،

حتى لقد رأينا الآيات القرآنية يستشهد بها على الغرضين المتناقضين

والأحاديث النبوية ، تستنبط مدلولاتها على زعمهم ، فتعطى الحجتين المتباينتين ؟

وأصبح الدين حرفه ، وذهبت معانيه السامقة. وانطفأت مصابيحه، وخبأت أنواره ، وأهملت مقدساته ، ولم يبق منه إلا حوار باللفظ ، وتنطع باللحن ، وجمود وخمول وخمود ، وتعصب أعمى ، غليظ الجهل غليظ المنطق ، غليظ البينة ؟

وأعقب ذلك هوس مريب أعمى ، بالدين واسمه ، هوس تعبدى بالألفاظ والصيغ . وصل إلى العزلة والجمود، وهوس سياسى غضوب وصل إلى الفتنة والاجرام ، وهوس يتشكك فى كل شىء ، وينفر من كل شىء حتى انتهى إلى وسوسة مقيتة تفوح منها رائحة الموتى .

وامتد هذا الهوس العجيب المريب إلى العلوم الاسلامية، حتى رأينا من يدرسها بالفاظ بعينها لا يرضى عنها بديلا، لأنها من مقدسات الماضى وتراث السلف الصالح، فأماتوا بهذا الجمود علوم الفقه والتفسير والحديث وهى مصابيح الاسلام الكبرى .

واستتبع هذا أن نفر فريق من رجال الفكر من هذا الهوس الدينى نفورا بلغ من عنفه وتمرده ، أن ابتعد اصحابه عن نطاق الدين ، الذى خالوه جمودا وتزمتا ، وقعودا فى القماقم، وعبادة فى الشكيلات، ومنطقا لايطابق الواقع ، ولا يمشى مع الحياة ؟ ؟

وكان ختام ذلك كله ، أن هان الدين فى النفوس، واختلطت صوره فى العقول ، وبهتت معانيه فى القلوب .

لقد صبغوا كل شيء فى الدنيا، بصبغة الدين، فكان الجواب الطبيعى أن مرق كل شيء فى دنيا المسلمين من الدين .

ولكى نعيد إلى الدين قداسته ، يجب أن نقضى على هذا الهوس المريب ، ولكى نقيم حكما إسلاميا يجب أن نحدد أوجه الالتقاء بين السياسة والدين ، وأوجه الاستقلال بينهما .

وبذلك نبعد الكهانة والقداسة عن دعاويها ، ونحفظ للاسلام هيمنته على السياسة ، وللتشريع سيادته على التقنين ، وللحكم حريته واستقلاله واجتهاداته وتطوره مع المصالح العامة واستفاداته من الثقافات والحضارات البشرية ، فى ظل القواعد والكليات والمبادىء الاسلامية .

هذا هو الوهم الأول المحلق بأجنحة الغموض فى الأفق الإسلامى ؟

هل الخلافة فريضة إسلامية؟

والوهم الثانى الذى ورثناه من التاريخ البعيد ، وكبر فى صدورنا حتى طمس كل الحقائق هو الإيمان بأن معنى الحكم الاسلامى ، هو عودة الخلافة بنظامها ومبادئها وهيكلها التاريخى القديم باعتبار أن قيامها بين المسلمين فريضة مقدسة ، لا محيص عنها ولا حياة بدونها .

وهو تفكير وإيمان مبعثه الجمود اللفظى ، والتعلق الغريب بكل قديم ضارب فى أعماق الماضى ومحاولة لاضفاء الصبغة الدينية على صور الحياة وألوانها بحق وبغير حق .

لقد كان الاسلام صريحا مبين اللحن وهو يرسم الأفق العام للحياة الإسلامية ، فقرر فيما قرر أن من سنن الله فى عباده ، أن لا تقوم دولة ولا تنهض أمة ، إلا بحكومة عادلة ، ونظام محكم ، فواجب المسلمين أن لا يبيتوا ليلة ، إلا ولهم حكومة قائمة ، وعلى رأس هذه الحكومة إمام أو حاكم أعلا يسوس أمورهم بالعدل ، ويحكم بينهم بالشورى ، وينفذ بينهم شرائع الله .

هذه هى الكلية العامة . وعلى المسلمين أن يطبقوا روح هذه الكلية بالصورة التى يرتضونها وبالاسم الذى يحبونه ، وبالتطور الملائم للتقدم البشرى ، المتسق مع معارف الزمان والمكان ، وسنن العرف والعادة.؟!

لقد قامت الخلافة فى صدر الاسلام ، كنظام اقتضته ضرورة الحياة الاسلامية ، بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان فى حياته المباركة ، ملء أبصار المسلمين وقلوبهم وحاكمهم وإمامهم ومشرعهم

وقائد حربهم ، وقاضى أمورهم ، ومدبر سياستهم ، فلما لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى ، صدم المسلمون وزلزلوا ، فقد انتقل الأمر اليهم فجأة ، ولم يكن للعرب قبل الاسلام ، حكومة منظمة ولا سياسة مرسومة وليست لهم عراقة فى الفنون الادارية ، والشئون المالية .

والقرآن الكريم ، والسنة المطهرة لم يتحدثا إلى المسلمين بنظام معين للحكم ينفذونه آليا ، ولم يرسما لهم طرائقه ووسائله .

وإنما تحدثا كما قلنا من قبل عن الكليات والقواعد ، تحدثا عن العدل والشورى ، وتركا للناس أن يديراهما على مقتضى المصالح العامة ، وتركا للعقول أن تدبر وتفكر وتبدع حتى لاتتعطل وظائف العقل وحتى لا تجمد شرائع الدين .

وعقد الأنصار اجتماعاً سريعا فى سقيفة بنى ساعدة ، وتنادوا بأن الحكم لهم ، لأنهم سيوف الاسلام وحماة حوزه .

وهرع اليهم الحزب القرشى ، ممثلا فى أبى بكر وعمر ، وابن الجراح وبعد مداولات سريعة حاسمة أتفقت الكلمة على أبى بكر . ليكون للمسلمين إماما .

لم نسمع فى هذا الاجتماع الحاسم ، كلمة من كلمات الخطباء دارت حول الاستشهاد بالقرآن أو بالسنة ، على ترجيح رأي على رأى ، وإنما دارت الكلمات حول المنطق والمصلحة ، والحجة القائمة من واقع الحياة ، واختير أبوبكر لأنه كان كما قال عمر بن الخطاب ، صاحب رسول الله الأول ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وأحب المسلمين إلى قلوب المسلمين .

وسمى المسلمون أبا بكر خليفة رسول الله ، وهو اسم أملته الظروف والملابسات ، وفرضه حب المسلمين ورغبتهم فى أن يربطوا حبالهم بحبل رسولهم .

ثم ولى الأمر عمر بن الخطاب ، فأخذ الصحابة يلقبونه بخليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر . هذا أمر يطول ، وإنما أنا رجل من المسلمين فأنا أميرهم ، وهكذا لقب عمر فى التاريخ بأمير المؤمنين .

فليست كلمة الخلافة إذن فريضة اسلامية . أو ضرورة من ضرورات الحكم الاسلامى ، فليكن حاكم المسلمين ، أمير المؤمنين بلغة العصر الأول أو رئيس جمهوريتهم بلغة العصر الحاضر ، أو بأى اسم تبتكره نظم الغد إذا جاء الغد ألقاب ومسميات جديدة . فالاسلام لا يعرف الالفاظ ، وإنما يعرف المعانى ، ويحترم الجواهر .

لقد كانت الخلافة الأولى نظاما من أنظمة الحكم خلقته الضرورة ، وأوجده منطق الأمر الواقع نظاما سياسيا إرتضاه المسلمون ورأوه ملائما لحياتهم ، موافقا لبيئاتهم ، وليس على غيرهم أن يخضعوا له ، إذا تراءى لهم أن يغيروا من اسمه ، أو من وسائله وألوانه .

بقيت خديعة تاريخية أخرى ، فقد تواترت أحاديث نبوية ، رووها كتب الصحاح بوجوب قيام إمام للمسلمين وبضرورة البيعة من المسلمين كافة لهذا الإمام .

روى مسلم من حديث لابن عمر مرفوعا « قال قال رسول الله صلوات الله وسلامة عليه « من بات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » ولقد صرف رجال التاريخ هذا الحديث وأخوات له ، إلى معنى

الخلافة ، وكلمة الخليفة ، واستنتجوا من ذلك فرضية الخلافة الدينية .

والحديث صريح فى أن المسلمين ، لابد لوجودهم السياسى والدينى من حاكم يسوس أمرهم ، وينفذ حدودالله بينهم ،والحديث آية الآيات فى شورية الحكم ، شورية شعبية عامة ، فلا بد من انتخاب عام يسهم فيه كل مسلم برأيه وصوته ، لأن البيعة هى إعطاء الرأى والصوت بالرضا والقبول .

ذلك هو الجوهر ، فلماذا نصر على صرف معانى الحديث إلى الخليفة والخلافة . ولماذا لا نصرف هذا الحديث وأخواته إلى الحاكم الاسلامى على الصورة التى تلائم حياتنا .

وأحاديث أخر ، رواها الثقات عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، تحدثت عن وحدة المسلمين العامة ولقد استغلت هذه الأحاديث أيضا فى تدعيم مكانة الخلافة بهيكلها التاريخى المكلل بالقداسة .

روى مسلم والنسائى من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من فارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عصبية يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل ، فقتلته جاهلية » .

المسلمون أمة واحدة ، هكذا يحب الله لعباده الذين ارتضى لهم الاسلام دينا ، وقوة المسلمين تنبثق من هذه الوحدة ، أو الجامعة ، فمن قاتل فى سبيل الله فقتاله تحت هذه الراية ، أما من قاتل عصبية لنصرة طائفة على طائفة ، أو لتمزيق شمل المسلمين ، أولمأرب من مآرب النفس والهوى ، فقتاله جاهلى ، وقتلته حين يقتل جاهلية ؟؟ ومن فارق الجماعة

فقد أضر بالوحدة العامة ، وأوهن من قوى المسلمين ، فحياته ليست من الاسلام ، وإن مات فميتته جاهلية .

نظام محكم يكفل للأمة التى تدين به القوة والوحدة ، وعدم التمزق وتبديد القوى فى الخلافات الجاهلية . والنزوات العصبية .

تلك هى الكلية العامة الواجبة الطاعة ، وذلك هو الخط العريض للوحدة الاسلامية ، ولكن النظم الخالدة تدور مع الزمان والمكان ، ولا تقف ولا تجمد ، فإذا جاءت ضرورة واقعية . كونتها أحداث تاريخية كموقفنا اليوم ، فتمزقت وحدة المسلمين إلى وحدات صغيرة تسمى دولا ، واستقلت كل دولة بشئونها ، أنصر مع هذا على قيام الخلافة العامة و الخليفة الأعلى ! ؟ ونتجاهل الحقيقة الهائلة القائمة بيننا.

يقول السيد صديق حسن خان بهادر فى كتابه الروضة الندية (١) ، وأما بعد انتشار الاسلام واتساع رقعته وتباعد أطرافه ، فمعلوم أنه قد صارت فى كل قطر الولاية إلى إمام أو سلطان ، ولاينفذ لبعضهم أمر ولا نهى فى غير قطره ، فلا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين ، فإن أهل الصين والهند لايدرون بمن له الولاية فى أرض المغرب فضلا عن أن يتمكنوا من طاعته، وهكذا العكس، فاعرف هذا فانه المناسب للقواعد الشرعية ، والمطابق عليه الأدلة» .

إن المنطق الواضح السليم ، المتسق مع الإسلام ، هو أن حاكم المسلمين فى كل دولة اسلامية هو إمامهم وخليفتهم . ولاعبرة بالمسميات ما دام الحاكم منفذاً لعدالة الاسلام ، ونظام الشورى وقائما على هدى شريعة الله ، ومحترما لحدودها .

---

(١) ص ٤١٣

ومن الكمال بعـــد ذلك ، ومن القوة والعزة والمنعة للمسلمين أن يسعوا إلى الوحدة العامة بالصورة التى تلائم عصرهم ، وتتفق مع طبيعة حياتهم .

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، فى فصل انقلاب الخلافة إلى ملك « إن الخلافة كانت فى الصدر الأول إلى آخر عهد على ، ثم صار الامر إلى الملك ، وبقيت معانى الخلافة ، من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغيير إلا فى الوازع الدينى ، كان الوازع دينا ، ثم انقلب عصبية وسيفا ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك ، والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معانى الخلافة ، ولم يبق إلا اسمها ، وصار الامر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها » .

وابن خلدون هنا كالعهد به ، نفاذ بصر ، ودقة ملاحظة ، واستنباط حكيم ، فهو يتحدث عن معان الخلافة تحت ظل الملك ، وأنها ظلت قائمة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق فى بعض العصور الأموية والعباسية ، ولم يتغير منها إلا الوازع الدينى فى الملك ، كان فى الخلافة الأولى دين ثم انقلب إلى عصبية وسيف ، ثم تطورت السياسات فى أواخر العصر العباسى ، فذهبت معانى الخلافة جملة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا .

والاسلام لا يعرف الألفاظ ، وإنما يعرف المعانى ، ونحن نريد الجواهر لا القوالب ، وإلا فهل يمكن أن نسمى الخلافة التركية فى عصورها الاخيرة خلافة إسلامية . . ؟

هل الخلافة لقريش خاصة ؟

ومن الأوهام التى حلقت وهومت حول نظام الحكم الاسلامى ، ما زيفه بعض الفقهاء المتزلفون للحاكمين من الامويين والعباسيين ، فتنادوا بأن الخلافة فريضة لقريش على المسلمين ، وصاغوا فى هذا المعنى حديثا نسبوه إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

والإسلام بروحه ومبادئه وتشريعاته يبرأ إلى الله من هذه الإرستقراطية الطبقية ، فهو دين يقوم أول مايقوم على أن الناس أبناء آدم وحواء أخوة لأب وأم، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وليست فى الاسلام فوارق عنصرية ، ولا عصبية قبلية ، ولا تمايز بالألقاب، ولاتفاخر بالأنساب ، فالعمل الصالح هو الفيصل والميزان ، يقول الرسول فى خطبته الخالدة يوم عرفة « أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، كلكم لآدام ، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولالأحمر على أبيض ولالأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

هذا هو روح الاسلام ودستوره الذى لا يمارى فيه مسلم فقه الايمان أو ذاق قطرة من رحيقه

والواقع التاريخى يكذب هذا الادعاء ، فبينما رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه مسجى فى بيته بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، هرع المسلمون إلى سقيفة الأنصار، يتجادلون فى أمرهم السياسى الأكبر، أمر القيادة والحكم ، فطالب حزب الأنصار بالولاية ورأوا أن لهم فيها حقا ومقاما ، وأدلى حزب المهاجرين بمثلافى أبى بكر وعمر بن الخطاب وابن الجراح بحجته ، فما رأينا المهاجرين استشهدوا بهذا الحديث ، وما سمعنا من أحد منهم إشارة أو إيماءة إلى أفضلية مقررة لقريش على المسلمين ! ؟ ولو علم الأنصار هذا الحديث وهم علماء الاسلام وحفاظه ، ما تطلعوا إلى الحكم ، وما عصوا قول رسولهم الكريم .

وثار الخوارج وهم حزب الجمهورية الاسلامية على ملك قريش فما رأينا قريشا قرعتهم بهذا البيان النبوى الفاصل ، وأدار المعتزلة آرائهم فى الحكم ، على أن الخلافة لا تحتاج إلى نسب أو عصبية (١) .

والرسول صلوات الله عليه يقول كما روى مسلم فى صحيحه عن يحيى ابن حصين قال : سمعت جدتى تحدث أنها سمعت رسول الله يخطب فى حجة الوداع وهو يقول : « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » .

وعمر بن الخطاب حينما حضرته الوفاة يتصفح وجوه الأئمة من قريش ثم يقول فى ألم « لوكان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته الخلافة »

ومع هذا فقد مشى هذا الوهم الجاهلى إلى التشريع فرأينا بعض الفقهاء حينما عرضوا لشروط الكفاءة فى الزواج يفضلون قريشاً على

---

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص ١٩١ — ١٩٢ .

سائر العرب ويجعلون أبناءها أكفاء لبعضهم ولا كفء لهم من غيرهم، متناسين روح الإسلام وشرعة رسول الله، الذى زوج زينب بنت عمته وهى فى الذروة من قريش من زيد بن حارثة الذى كان عبداً رقيقاً وأعتقه رسول الله .

وليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ايماءة أو إشارة على أن أمر المسلمين لفرد أو لأفراد من أسرة معينة ، ودعاوى ابن خلدون فى أن الحكم يحتاج إلى العصبية ، هى دعاوى جاهلية خالفه فيها التوفيق مع مكانته وفطنته .

فالحكم فى الاسلام انتخاب مقيد بقانون وتشريع ، وقوته مستمدة من قوة هذه البيعة العامة لامن قوة العصبية القبلية ، والا لكان ملكا جباراً ، وبنو تيم وبنو عدى بطون الصديق وعمر، كانا من أضعف بطون قريش ، ولو كان الأمر بالعصبية لأخذه الهاشميون أو الأمويون منذ يومه الأول .

والقاعده المقررة ، أن المسلمين سواسية لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ومايقدم لأمته من خير وما له عندها من حب ، والرسول يقول لبنى هاشم وهم أهل بيته وأولى رحمه « يا بنى هاشم لايجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونى بالأنساب » ويكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء » .

الأمة مصدر السلطات

وبتلك القاعدة الاسلامية ، تقرر فى النظم الاسلامية، أن السلطات كافية بيد الأمة ، فلا ميراث فى الحكم ، ولا عصبية فى السلطان ، ولا حقوق مقدسة لرجل أو مجموعة من الناس ، حتى ولو كانوا بيت النبي صلوات الله عليه ، ومن عجائب التاريخ الاسلامى ، أن المسلمين صرفوا أمر الخلافة منذ يومها الأول عن آل البيت حتى لا يصطبغ الحكم فى الاسلام بمسحة دينية ، ! ؟

ولقد اتفقت كلمة المشرعين الاسلاميين على أن الرئيس الأعلى فى الدولة ، إنما يستمد سلطانه وقوته من الأمة التى اختارته وبايعته ، ويعتمد فى بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ، وقيامه بواجبات رسالته فإن انحرف أو جمح أو حاد ، فالأمة التى ولته هى مصدر السلطات جميعا لها أن تنحيه عن مقامه وتستبدله بالذى هو خير منه .

جاء فى متن المواقف للعلامة العضد « وللامة خلع الامام وعزله بسبب توجبه ، وأن أدى الامر إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين »

وقال شارحه السيد الجرجانى فى باب مسببات هذا العزل « مثل أن يوجد فيه ما يوجب إختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين ، فكما كان لهم نصبه وإقامته ، لانتظامها واعلائها ، لهم عزله لاخلاله بشروطهم » .

ويقول الامام الرازى « إن الرياسة العامة هى حق الأمة التى لها أن تعزل الامام إذا رأت موجبا لذلك ، لأنها ولية الأمر أصلا وما هو

إلا وكيلا عنها ، وللأصيل تنحية الوكيل إذا رأى الخير فى هذه التنحية ،

وكما أن للمسلمين أن ينظموا طريقة الانتخاب وسبيل البيعة بما يلائم ظروف الزمان والمكان وتطورات الحياة ، كذلك لهم أن ينظموا طريقة عزله عند انحرافه بما شاؤا من قوانين ونظم فى دستورهم العام .

فسياسة الحكم فى الاسلام سياسة من قواعدها المرونة والتطور ، ومن أصولها أن للعقول أن تجتهد ، وللأمة أن تنظم وتشرع .

فإذا قررت الجماعة أمراً بالانتخاب والشورى ، فلا يجب الشذوذ والانحراف عن جماعة المسلمين ، وبلغة العصر ، يجب أن تخضع القلة لرأى الكثرة ، وأن تسير تحت لوائها فى سماحة ومحبة ، وتعاون كامل وعلى الكثرة أن تحترم رأى القلة وأن تفسح فى صدرها المكان الرحب لكل رأى ، ولكل معارضة .

فإذا كانت النظم الحديثة ترى أن المعارضة جزء من الحياة البرلمانية ، بالمعاونة والمساهمة والنقد والتوجيه ، فإن الاسلام يرى فى ذلك فريضة واجبة ، حتى لنرى الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو الامام المعصوم المؤيد بالوحى ، يقول دائما « أشيروا على أيها الناس » .

رسالة القضاء في الإسلام

والقضاء في الاسلام جزء لا يتجزأ من رسالة الحكم وسياسته ، فلا يستقيم حكم صالح إلا بقضاء صالح ،ولا تتم رسالة التشريع إلا برسالة القضاء .

وكما بنى الحكم والتشريع في الاسلام على الاجتهاد والاستنباط ، وكما دارا مع مصالح الناس ، كذلك كان شأن القضاء ، وبذلك تتسق فكرة الاسلام العامة وتتحد ، في التشريع والحكم والقضاء .

وعلى هذا الضوء أصبح نظام القضاء الاسلامي نسيج وحده بين أنظمة التقاضي العالمية ، فهو قضاء حر بأوسع معاني هذه الكلمة ، وبأضخم مدلولاتها .

فالقاضي المسلم لا سلطان عليه إلا سلطان الله سبحانه ،وهيمنة القانون على أحكامه ، هيمنة من الناحية الكلية ، فعلى القاضي أن لا تمرق أحكامه من أفق القواعد الاسلامية المقررة ، وهو بعد ذلك مطلق الحرية في أحكامه يديرها حسب اجتهاده وإيمانه ، ويمشي بها إلى حيث يؤمن هو بالقسط والعدل المستقيم .

فلا تقف حرفية القانون ولا مواده دون ضمير القاضي وإلهامه ، فإذا كان القضاء اليوم يرى نفسه في أكثر من موقف محرجا بين حرفية القانون ومنطق مواده ، وبين ما يهديه إليه اجتهاده وإلهامه ثم يرى نفسه مجبراً على أن تتنزل أحكامه طبقا للقانون العام ، وإن صرخ قلبه

الكثرة العددية ، فينزل الرسول على أمرهم ، حتى إذا لبس لامة الحرب وتهيأ للخروج ، قال الناس بعضهم لبعض : لقد أكرهتم الرسول على الخروج وهو كاره له ، ويسعى إليه رجال منهم يقولون : إن المسلمين على إستعداد للنزول على رأيه ، فيقول مشرعا : ما كان لنبي إذا لبس عدة الحرب أن يخلعها حتى يقاتل »

وفى يوم بدر جاء الحباب بن المنذر وقدر رأى رسول الله قد نزل بأصحابه أدنى ماء ، فقال : يا رسول الله . أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ! ؟ قال الرسول : بل الرأى والحرب والمكيدة !؟ فقال يارسول الله : ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله . ثم تغور ماوراءه ، فقال النبي لقد أشرت بالرأى . وعمل به »

ويستشير الرسول أبابكر وعمر فى أسرى بدر . فيقول صلوات الله عليه لهما « لو اجتمعتما ما عصيتكما » .

وأخرج ابن مردويه عن على قال : سئل رسول الله عن العزم . أى فى قوله تعالى « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » فقال : مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم .

ويقول الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : قد علم الله أن ما برسوله حاجة إليهم ولكن أراد أن يقتدى به من بعده .

وأخرج ابن عدى والبيهقى بسند حسن عن ابن عباس . أن الآية لما نزلت قال رسول الله . أما إن الله ورسوله لغنيان عنها . ولكن جعلها الله رحمة لأمتى . فمن استشار منهم لم يعدم رشداً . ومن تركها لم يعدم غيا »

والتعبير النبوى الكريم ، جميل مشرق مضيء « جعلها الله رحمة لامتى » وليس فى طاقة قوة ديمقراطية أن تعبر عن الشورى تعبيرا أسمى من كلمة ، الرحمة ، الرحمة الشاملة للامة كافة .

وتمضى حياة الرسول صلوات الله عليه على هذا النهج من الحكم الدستورى ، لا يستأثر برأى ولا يستقل بفكرة ، بل يربى جيله وصحابته تربية حرة كريمة ، ويرسى قواعد سياسة مثالية ، ترتكز على قوى الشعب العقلية والقلبية والإيمانية .

ومشى الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الصراط المستقيم ، الذى أضاءه الرسول ، يروى الطبرى « أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قدما على أبى بكر فى رجال من رؤوس العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين ، فقالوا : أنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الاسلام ، وليس فى أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله ، فإن تجعلوا لنا جعلا ، نرجع فنكفيكم من وراءنا ، فدخل المهاجرون والأنصار على أبى بكر فعرضوا عليه ، الذى عرضوه عليهم ، وقالوا . نرى أن تطعم الأقرع وعيينه طعمة يرضيان بها ، ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع إليك إسامة وجيشه ، ويشتد أمرك ، فإنا اليوم قليل فى كثير ولا طاقة لنا بقتال العرب ، قال أبو بكر . هل ترون غير ذلك ، فقالوا لا . قال أبو بكر . وقد علمت انه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به كتاب عليكم وأن الله لا يجمعكم على ضلاله ، وانى أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشرته عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك فان الله يوفقكم .

أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً ، وأن تتأسوا برسول الله فنجاهد عدوه كما جاهدهم ، والله لو منعوا عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه ، فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأيي ، فقالوا : نعم الرأى وعلى بركة الله . . »

وهى وثيقة تاريخية لها مقامها فى دستور الحكم الإسلامى ، فالخليفة الأول يقول للمسلمين ، قد علمت أنه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من الرسول أو حكم من القرآن ، وان الأمة الإسلامية لا تجتمع على ضلالة ، لأن حكم الشورى الذى تسهم فيه العقول كافة بالرأى والنصيحة والتوجيه ، يعصم من التطرف والزلل ، ثم يلخص أبوبكر الموقف فى كلمة حاسمة مضيئة ، إنما أنا رجل منكم ولست أحكم جباراً وإنما أشير عليكم ، وتشيرون على فانظروا الآراء وحصوها ثم أجمعوا على أرشدها .

والذين يزعمون أن المسلمين فى عصورهم الأولى لم تكن لهم نظم دستورية ديمقراطية ، مفصلة المناهج محددة الوسائل ، محررة البرامج ، يتجنون على الحقائق ، وعلى التاريخ ، وينسون الفاصل الزمنى الكبير ، والشوط الحضارى الهائل ، الذى أودع بين أيدى الناس اليوم من وسائل المواصلات ، وفنون الحضارات ، ووسائل التنظيم والتنسيق ما ييسر لهم الاجتماعات السريعة ، والاتصال الخاطف بين الابعاد السحيقة ، المترامية الأطراف .

وإنما يقارن عصر بعصر ، وبيئة ببيئة ، بما يملك هذا وذاك ، من وسائل متشابهة ، وإمكانيات متكافئة ، وقوى متماثلة ! ؟

والشورى فى الإسلام كلية عامة ، هى روح الدستور ، والنور الذى تضاء به مصابيحه ، كليـــة تدور مع الحياة وتتلون بحضاراتها وثقافاتها ونظمها .

فتكون وسيلتها كما طبقها المسلمون فى صدر الاسلام ، شورى عامة فى المساجد وأندية الحكم ، أو تكون كما تطبق اليوم بالمؤسسات البرلمانية العالمية ، أو تقوم بصورة أخرى من صور الشورى التى تتطور إليها الحضارات القادمة ، فلا تقديس لوسائل بعينها . ما دام الشأن للامة ، والكلمة للشعب والحكم لرأى الكثرة الساحقة .

إن الهدف المفروض ، هو حكم ترضى به الجماهير ، وتقر مناهجه ، فما دامت الحريات مكفولة والحقوق متساوية ، والعدالة قائمة ، والسيطرة الفردية ممنوعة ، ومصلحة الشعب لا الحاكمين هى المقررة المنشوده ، فثم نظام الشورى الاسلامى .

إن الإسلام يضع القواعد الكبرى التى يستظل بها الناس ، أما طرائقها ووسائلها ، فأمر متروك للشعوب ، تجيل فيه عقولها ، وتديره على مصالحها ، وبذلك يعلى الإسلام من شأن العقل البشرى ، ويرتفع بقيم أتباعه ، بإطلاق أيديهم حرة من كل قيد فى شئون حياتهم التشريعية والتنظيمية .

وبذلك يفتح الإسلام أمام المسلمين أوسع أبواب التطور ، وأعظم منافذ الاجتهاد ، ويدير حياتهم على مرونة حية دائمة الحركة والنماء .

ولا يشترط الإسلام نصاباً ماليا ، ولا صفة عنصرية ، ولا درجة ثقافية ، ولا ميزة معينة ، ولا يهدر أهلية الفرد فى إعطاء صوته الانتخابى إلا بجريمة موجبة لذلك .

يقول الإمام ابن العربى : « والشورى بين الناس من غير تمييز ولا استثناء ، واجبة فى أصول الشرع وقواعده ، وقد وقع ذلك من الرسول المعصوم فمن دونه » .

ويقول سعد الدين التفتازانى : « فى شرحه للعقائد النسفية — « والإمامة شورى بين المسلمين فالكل بمنزلة إمام واحد » .

واتفق العلماء صلاح الدين وعبد الحليم ، وحجة الإسلام الغزالى ، على أن إشتراك الأمة فى شئون المملكة ليس جائزاً فقط ، بل هو القاعدة الأساسية فى الإسلام .

وبذلك يسبق الإسلام فى سعة أفقه الدستورى أحدث الأنظمة البرلمانية فى العالم ، فضلا عن حرصه على الجانب الخلقى الإيمانى الذى يحرم الرشوة والتزوير والتدليس وشراء الذمم ، وما يماثلها من أوضاع تشوه النظم البرلمانية المعاصرة .

ويقول السيد رشيد رضا فى كتابه الخلافة والإمامة العظمى[1] مبينا الحكمة فى ترك الرسول نظام الشورى للأمة ، وعدم وضع أحكام لتفاصيلها .

---

(١) الخلافة والامامة العظمى للسيد رشيد رضا ص ٢٠

إن النظام يختلف باختلاف أحوال الأمة فى كثرتها وقلتها وشئونها الاجتماعية ومصالحها العامة . فى الأزمنة المختلفة ، فلا يمكن أن تكون له أحكام معينة توافق جميع الأحوال فى كل زمان ومكان ، ولو وضع لها أحكاما مؤقتة لخشى أن يتخذ الناس ما يضعه لذلك العصر وحده دينا فى كل حال وزمان وإن خالف المصلحة ؟ ! فاكتفى بشرع الله المشاورة وتربيته صلى الله عليه وسلم الأمة عليها بالعمل » .

فسياسة الشورى فى الاسلام أمرها إلى الأمة لها الكلمة العليا فى وسائلها ، وتلك هى وسيلة الاسلام الخالدة ، فى كل ما يتصل بحياة الناس . من نظم وشرائع .

روى الطبرانى فى الأوسط ، وأبو سعيد فى القضاء عن على بن أبى طالب قال : قلت يا رسول الله ، إن عرض لى أمر لم ينزل قضاء فى أمره ولا سنة كيف تأمرنى ، قال : تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين . ولا تقضى فيه برأيك خاصة » .

الفقهاء والعباد ، أى رجال القانون ، ورجال الأخلاق ، وسمة الاسلام دائما ، المزج بين القانون والأخلاق ، حتى لا يشوب القانون جفاف أو شدة تنفر منه القلوب ، وتباعد بينه وبين واقع الحياة .

نظام الحسبة في الإسلام

أو وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وعلى القاعدة الاسلامية الكبرى ، التى تقرر أن التشريع ينبثق من حاجات المجتمع ، ويدور مع مصالح الناس . أنشأ المسلمون ، نظام الحسبة . ووظائف المحتسبين .

فقد أدركوا منذ عهد عمر بن الخطاب ، وهو العصر الذى اتسعت فيه حدود الأمة الاسلامية وترامت أطرافها ، وتشابكت مصالحها ، أن الإجراءات القانونية الطويلة المدى ، قد يقعد بها البطء والتعقيد عن الوفاء بالمصالح العاجلة ، التى تعرض للناس فيما يضطربون فيه من شئون حياتهم ، والتى تتطلب تنفيذا سريعا وعلاجا حاسما ، فسدوا هذا النقص ، بنظام الحسبة المتحرك الخاطف .

وهو نظام تميز به الحكم الاسلامى على سائر الأنظمة العالمية ، فى دقته وكفاءته ، ونبل أغراضه ومقاصده ، وشموله وإحاطته ، فهو يسير مع الناس أينما ساروا متكفلا بحمايتهم وراحتهم فى كافة الميادين العمرانية والتجارية ، والخلقية والاجتماعية .

وبذلك تحرر المسلمون منذ أربعة عشر قرنا من « الروتين » البطىء الذى تشكو منه الديمقراطيات العالمية ، ويعتبره رجال الفكر والإصلاح النقطة السوداء فى جبينها المشرق .

يقول ابن القيم فى كتابه — الطرق الحكمية — « وأما الحكم بين

الناس فيما لا يتوقف على الدعوى فهو المسمى بالحسبة . والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة ومنحه سلطات واسعه ليكون سريع الحركة حاسم التنفيذ » .

فهو قوة ضاربة على أيد المنكر أينما وجد وحيثما كان ، لا يعوقه « الروتين » البليد ، ولا يغل يده الإجراء البطىء ، بل هو أشبه بقوة الاطفاء السريعة ، يهرع إلى كل مكان وجد فيه الشر والحريق ، ليزيل الشر ويطفىء اللهب ، بوسائل خاطفة ناجحة .

قوة تمد يد القانون الباطشة المتحركة إلى كل حركه أو عمل يهدد حياة الجماهير ومصالحهم وأخلاقهم وأقواتهم . يفتش الأسواق ، ويراقب الموازين والأسعار ، ويفاجىء التجار المحتكرين ، وينقب عن الأقوات المحبوسة والأرزاق المخزونة ، ويرقب حركات المرور ونظام الطرقات العامة ونظافتها وسلامتها والمبانى وهندستها وتناسقها ، والآداب العامة يحميها من المجون والتبذل ، ويشرف على المساجد وما يلقى فيها من دروس وما يقام فيها من صلوات ، ودور التعليم وما يجب لها من احترام ونظام ، ومقدسات الدين لا تستباح مكانتها من فطرنى ملأ ، أو تعاطى لخر أو مزاولة لقمار ، أو أكل لأموال الناس بالربا .

جاء فى كتاب النظم الإسلامية [1] « وكان للمحتسب نواب يطوفون بالأسواق يفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقائين ، للتحقق من تغطيتهم القرب ، ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى لا تعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل

---

(١) ص ٩٠ — ٩١ .

مازاد عن طاقتهم أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظام الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية وإزالة أنقاضها » .

وذكر المقريزى « أن المحتسب ضبط فى أحد أسواق القاهرة فى اليوم السادس من شهر رمضان سنة ٧٤٢ هـ رجلا يدعى محمد بن خلف عنده مخزن ، فيه حمام وزرازير بلغت عدتها أربعه وثلاثين ألفا يحجبها عن السوق فشهر به وأدبه » .

وبمعنى أدق فقد جمع المحتسب بين مهمات النيابة العمومية ، ووزارات الشئون والصحة والتموين والبلدية ، وبوليس الآداب والمرور ، فى كل الأمور السريعة الحاسمة التى لا تحتمل إرجاء أو تأخيراً .

ثم امتد نظام الحسبة إلى أخطر أمر فى حياة الأمة الاسلامية ، وهو القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وضم نظام الحسبة اليه صفوة العقول المؤمنة المستنيرة حتى بلغوا فى القاهرة والأقاليم على رواية المقريزى أربعة آلاف .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وظيفة جليله الخطر بعيدة الأثر فى الأفق الإسلامى وثيقة الصلة بالعقيدة ومثلها العليا وآدابها وشرائعها .

فمن النهى عن المنكر مثلا ، ما كان يقوم به المحتسب ورجاله من محاربة مستنيرة للبدع والخرافات والعادات الجاهلية وشبه الجاهلية ، التى تنتشر دائما فى الأوساط العامية ، فكانوا يمنعون سير الجنازات المولولة النادبة ، والإقامة فى المقابر وما يتبعها من مضار ، وحفلات

الزار . والرمل والودع وما إلى الرمل والودع من مستلهمات الغيب، ومستكشفات الأقدار .

وما يحدث فى الموالد وحول الأضرحة من طبول وزمور ومهازل إلى أمثال هذه العادات وأشباهها مما يضاد التوحيد الاسلامى ،ويتنافر مع الحياة الصحيحة المهذبة الصاعدة .

ومن الأمر بالمعروف تبصير الناس بأمور دينهم ، والجهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين والارشاد إلى سبيل الخير والإعانة عليه والأخذ بسبل الاصلاح ودوافع القوة . وما يتبع ذلك وما يماثله مما يلقى ضوءا مرشدا ينير للناس سبلهم ، ويهديهم صراطاً مستقيما .

وتلك الوظيفة فريضة دينية إسلامية مقدسة ، تحمى قلب الأمة من الأمراض والعلل ، التى تفتك بالشعوب ، وتبعث العزة والكرامة فى الصدور ، وتقمع العصاة ، كما تردع الظالمين .

ولقد ألحقها نظام الحسبة بأفق الحكم الاسلامى ليضفى عليها الجلال والمهابة ، ويمدها بالسلطان والقوة اللازمين للضرب على أيد الإفساد والمروق والانحلال .

ولحن الاسلام مبين فى أن المجتمع إذا لم يأخذ على أيد الفساق والعصاة والمفسدين والطغاة . فسد وانتشرت فيه مكروبات الانحلال والضعف ،وتنزل عليه غضب الله .

فكما تحمى الاجراءات الصحية صحة الأمم وأبدان بنيها من الأمراض والأوبئة ، كذلك على الأمة أن تنهض بالاجراءات التى تحميها من أمراض النفوس وأوبئة القلوب ! ؟ وكما يقوم الحجر الصحى حول كل

مرض يهدد بالعدوى ، بعزل المصابين به وباقامة السدود والقيود حوله ، كذلك على المجتمع أن يحمى نفسه من الأمراض الخلقيـــة والاجتماعية، بارشاد المصاب أولا ونصحه وتحذيره،فإذالم يرتدع،وجبت مقاطعته حتى يشعر بغربته وشذوذه وسقوطه ، وهذا الاجراء الحاسم هو السبيل الأقوم لحمايه المجتمعات ، وإجبار الفرد المريض على التوبة والرجوع ، وبذلك تبقى الامة سليمة القلب والوجدان ، صحيحة العقل والإيمـان .

روى أبو داود عن ابن مسعود قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول ما دخل النقص فى بنى اسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ؟ فانه لا يحل لك ؟ ثم يلقاه من الغد ، وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قرأ « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعـــلون ، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم ، ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولـكن كثيراً منهم فاسقون » .

ثم قال : « كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهـــون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق اطراً » أى تقهرونه على الحق قهرا ! ؟

وروى الترمذى عن ابن مسعود قال . قال رسول الله « لما وقعت بنو اسرائيل نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون — فجلس رسول الله وكان متكأ فقال : لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق اطراً » .

وروى ابن ماجه وابن حبان عن عائشة قالت : خطب رسول الله فقال « يا أيها الناس ان الله يقول : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم » .

وقد يبدو هذا اللحن غريبا أو عجيبا علينا اليوم ، وقد غرقنا إلى الاذقان فى حياة الجاهلية ، وقد سحرتنا أوروبا بتقاليدها وعاداتها ونهجها فى الحياة .

فما عدنا نرى المنكر منكرا ، ولا الذنب الغليظ معصية واثما ، بل لعل بعض الذنوب اليوم مما يفاخر به الناس ، وبعض المنكر مما تتزين به الهامات .

ولكن يوم تعود الأمة الاسلامية ، ستكون اللبنة الأولى فى صرحها ، هو أن يتميز الخبيث من الطيب ، وينفر الطيب من الخبيث كما ينفر السليم من العدوى القاتلة .

يوم يقوم فى الأمة رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر يوم لايغض الحاكمون أبصارهم عن المجاهرين بالإثم ، المفاخرين بمحاربتهم لما يحب الله ويرضى .

الشورى في الإسلام

ولا جدال فى أن الرسول لم يكن ليشاور أصحابه فى أمور الدين وشئون الرسالة ، فتلك أمور الكلمة العليا فيها للوحى وأوامر الله سبحانه ، وإنما كانت المشورة فى أمور السياسة وشئون الحكم ، وقواعد الاجتماع ، وفنون الحرب والقتال ، وكل ما يتعلق بالحياة المتحركة النامية .

يقول الامام ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية « إن الله أمر نبيه بالشورى لتكون شرعة ملزمة لمن بعده ، وقد جعلها الله ثمة وصفة للمؤمنين فى قوله « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

ولمكانة الشورى من الاسلام ، سميت سورة كاملة من القرآن العظيم باسمها — الشورى — وعلمها الرسول للمسلمين ودربهم عليها ، يقول أبو هريرة « لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله » وضرب لهم المثل الأعلى بنزوله صلوات الله عليه على رأى الكثرة فى كل الأمور الدنيوية .

تترامى الأنباء بأن قريشا جمعت قوتها لغزو المدينة ، فيجمع الرسول صحابته ويطرح بينهم الأمر للتداول والتشاور ، ويدلى كل بحجته ، ويتحمس الشباب للخروج من المدينة لملاقاة العدو فى أحد ، ويعارض الرسول هذا الرأى ويدلى بحججه ، ولكن رأى الشباب يجذب اليه

وإلهامه ، فإن القاضى المسلم لم يكن ثمة قانون يملك أن يضعه فى مثل هذا الموقف الحائر ، بين القانون وبين ما تطمئن إليه القلوب .

ولقد حدث فى أكثر من موقف فى القضاء العالمى ، أن القاضى كان يحكم وهو يبكى ويتألم ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج عن دائرة القانون المكتوب .

أما القضاء فى الاسلام ، فقد كان القاضى فيه حراً مجتهداً ، تتنزل أقضيته على كل قضية بجوها وحياتها وما يلابسها من مخففات الحكم أو مشدداته ، فإذا اجتهد القاضى فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله اجر اجتهاده .

ولذلك اشترط فى الاسلام أن يكون القاضى من أصحاب العلم الاستقلالى الاجتهادى ، فوق إحاطته بالعلوم المقررة .

فهو يستعين بمذاهب الاجتهاد فى الفقه الاسلامى كافة ، ثم له بعد ذلك أن يجتهد وأن يقيس وأن يستنبط ، وأن يدير أحكامه على العدل حيثما كان هديه ونوره .

ويرتبط النظام القضائى بعد ذلك رباطا لا ينفصم بالضمير الاسلامى والوجدان الايمانى ، والقانون الخلقى العام .

وبذلك أطلق الإسلام للمسلمين أوسع الحريات العالمية فى أجهزة القيادة العليا ، التى تهيمن على مصالح الناس وحياتهم ، أجهزة الحكم والتشريع والقضاء .

فهى أجهزة حرة حية نامية مع الحياة ، دائرة مع الخير ، متمشية مع الصالح العام أينما وجد ، وهى حريات كفيلة بأن تصوغ خير

الأمم ، وأسعد الشعوب ، وأقدرها على التطور والتجديد .

والقضاء فى الاسلام ، ينبع من العقيدة ، ويرتبط بالايمان ، ويتجه دائما إلى الله جل جلاله . ولهذا كانت له قدسيته فى القلوب والعقول . واجلاله لدى المتحاكمين والمتخاصمين .

جاء رجلان يختصمان إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فى مواريث بينهما قد درست ، وليس بينهما بينة ، فقال الرسول : انكم تختصمون إلى رسول الله . وأنا بشر . ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتى بها اصطداما فى عنقه يوم القيامة ، فبكى الرجلان ، وقال كل منهما ، حقى لأخى ، فقال الرسول . أما اذن فقوما فاذهبا فلتقسما ، ثم توخيا الحق ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه . »

ليس القضاء وحده هو الفيصل ، وإنما فوق قضاء الأرض يد الله ، فليراجع كل من الخصمين ضميره — وليرقب يوم الفصل الأكبر ، حيث لاتخفى على القاضى الأعظم خافية .

ولهذا إمتزج القضاء الاسلامى بخشية الله ، ورهبة عقابه ، وقام على العدل المطلق ، حتى ليأمر الرسول القاضى . أن يسوى بين المتقاضين ، فى نظرات الأعين ، وطلاقة الوجه ، وأن لايحكم حتى يفسح فى عواطفه وقلبه وعدالته لكل من الخصمين بالقسط المستقيم ، حتى الجو النفسى يشترطه الاسلام للقاضين ، روى البخارى عن أبى بكرة ، قال : سمعت رسول الله يقول « لايقضى حكم بين اثنين وهو غضبان » .

ولقد أجمل عمر بن الخطاب ، نظام القضاء الاسلامى فى كتاب له أرسله إلى قضاته فى الولايات كمنشور عام .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين .. سلام عليك . أما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولاسنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت القضاء عليه فإن ذلك أجلى للعمى ، وأبلغ للعذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق — ضيق الصدر — والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق ، يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ، ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه

وبين الناس ، ومن تزين للناس ، بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب الله عز وجل فى عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام[١].

وهذه الوثيقة التاريخية ترشد إلى فهم لوظيفة القضاء ، وفهم لحرية القاضى ، يبلغ كلاهما الذروة فى السموق والعدالة .

فهو يقول لقضاته . لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ! ؟ .

ثم يقول له : الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم انظر الأشباه والنظائر والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك .

وبذلك أطلق للقضاء حريات غير محدودة فى الاجتهاد والفهم والاستنباط ، ومنحه سلطات غير مقيدة فى الرجوع فورا إلى الحق ، إذا استبانت وجوهه عقب النطق بالحكم ، لأن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

فاذا استكمل القاضى مثله العليا من الفهم والعلم والعدل ، فقد بقى بعد ذلك ، أدب القضاء وأدب الاسلام .

« إياك وضيق الصدر والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات . فإن الحق فى مواطن الحق يعظم به الأجر ، ويحسن به الذكر ومن تزين للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله وأسقطه فى دنياه وأخراه .

---

(١) البيان والتبين للجاحظ جـ ٢ ص ٢٣ سنن الدارقطنى ، — إعجاز القرآن ص ١٧٠ .

ويكتب على بن أبي طالب إلى عامله فى مصر ، ينير له الطريق إلى السياسة العليا فى اختيار القضاة وصفاتهم .

« ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء .

ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، واعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

وفى هذا البيان العظيم مواقف للعقول ، عند كلمات تتلألأ إشراقا ونورا ، فمن صفات القاضى ، أن لا تضيق به الأمور ، ولا تغضبه لجاجات الخصوم ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه .

ومن صفاته التأنى عند الشبهات ، والأخذ بالحجج ، والصبر الجميل حتى تتكشف البينات ، ثم لا يزدهيه بعد ذلك إطراء ولا يستميله إغراء .

وإذا كانت هذه هى واجبات القاضى فإن له بعد ذلك من الحقوق أعظمها من حقه أن يفسح له الحاكم فى البذل حتى تكون له مهابته وعفته . وتقل حاجته إلى الناس ، وأن يفسح له الحاكم مكانا عاليا جليلا لا يطمع فيه غيره مهما سما مقاما ونسبا .

وبهذا الاجلال العظيم لرسالة القضاء ، استطاع القضاة فى الاسلام

أن يمسكوا بأيديهم ميزان القسط لا يميل ولا ينحرف ، ولا ينال من سلطانه سلطان ، مهما سمق قوة وباسا .

يساوم عمر بن الخطاب خليفة المسلين رجلا على فرس ، ثم يركبه ليختبره ، فيصاب الفرس بعطب أثناء جريانه ، فيرده عمر إلى صاحبه فيأبى الرجل ، فيتحاكما إل شريح القاضى ، ويستمع شريح إلى حجة كل منهما ثم يقول « يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد ما أخذت ، » فيقول عمر : نعم القضاء قضيت .

ويرى على بن أبي طالب درعا له على يهودى ، فيقول درعى ، وينكر اليهودى ، أن الدرع لعلى ، فيتحاكما إلى قاضى الكوفة . فيقول القاضى : ياأمير المؤمنين . لاأكذبك ولكن ليس لك بينة ! ؟ فالدرع لليهودى فيولى على ضاحكا ، وهو يقول : أضاع قاضى المسلمين درع أمير المؤمنين ! ؟

ويعجب اليهودى لهذه المثالية . فيسرع وراء على قائلا . يا أمير المؤمنين . والله إنها لدرعك وجدتها يوم خيبر فأخذتها فهى لك . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فيقول على : إذا فالدرع لك هدية .

ويجلس الامام أبو يوسف للقضاء فيختصم إليه رجل مع الخليفة الهادى فى بستان له غصبه عمال الخليفة .

ويحضر الخليفة إلى ساحة القضـــاء . ويرى أبو يوسف أن الحق للرجل ولكن للخليفة شهوده ، ويكبر على ضمير القاضى أن يضيع الحق . لأن حرفية القانون مع المعتدى . الذى يملك البينـــة الشاهدة

فيلجأ إلى براعة المخرج . فيقول فى صرامة « إن الخصم يا أمير المؤمنين يطلب أن تحلف له على أن شهودك صادقون » فيتراجع الهادى عن اليمين ويرد البستان إلى صاحبه» .

وتتوغل جيوش المسلمين فى فارس وما وراء النهر . حتى تدخل مدينة سمرقند . فيرسل أهلها إلى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين . أن القائد الاسلامى قتيبة الباهلى، الفاتح العظيم، قد دخل مدينتهم غدرا فيرسل عمر إلى والى خراسان يأمره بعرض هذه القضية على القاضى « جميع بن حاضر البلخى » فقضى القاضى بأعجب حكم فى التاريخ . قضى بإخراج الجيش الاسلامى من سمرقند . لأنه دخل المدينة غدرا.

وهو حكم لم تعرفه الدنيا إلا للقضاء الاسلامى ، عدالة سامقة شامخة لا تعرفها عدالة الأرض ، عدالة حتى فى ميادين الحروب ، وساحات النضال .

وتتسع رقعة العالم الاسلامى ، وتمتد امتدادها التاريخى العظيم ، فيتخذ العباسيون نظما جديدة للقضاء، تلائم الحياة المتطورة فى الامبراطورية الضخمة .

وفى طليعة ما ابتكروا وظيفة قاضى القضاة . وهى أشبه بوظيفة وزير العدل ، وأول من لقب بهذا اللقب . أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم فى عهد هارون الرشيد ، يقول المقريزى :

« فلما قام هارون الرشيد بالخلافة ، ولى القضاء أبا يوسف يعقوب ابن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة بعد سنة سبع ومائة فلم يقلد فى بلاد العراق وخراسان ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف ،وأصبح

لقاضى القضاة ، من بعده الحق فى تعيين قضاة بغداد ، ثم امتد ذلك إلى تعيين قضاة الأقاليم » .

وامتد القضاء ، واتسع اختصاص القضاة ، فضم اليهم الشرطة والقصاص والحسبة ، ودار الضرب والمال فتركزت فى أيديهم كل القوى التى تهيمن على مصائر الدولة ، وتتصل بشئون الناس

وارتفعت مرتباتهم تبعاً لذلك ارتفاعا لا مثيل له فى الوظائف الأخرى ، حتى أن عبد الله عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، كان يتقاضى مائتى دينار على القضاء ومائتى دينار على القصاص ، ومثلها على بيت المال . كما كان عطاؤه مائتى دينار وجائزته كذلك .

ثم عرف النظام الاسلامى ديوان المظالم وهو هيئة قضائية عليا لاحد لسلطانها ويقول عنها ابن خلدون « وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء » .

أى أنها بلغة العصر الحديث ، تجمع بين سلطات محكمة الاستئناف وديوان الموظفين ومجلس الدولة .

وكان من اختصاصات هذا الديوان النظر فى أمر الولاة ، الذين استغلوا مناصبهم ، والقضاة الذين جاروا فى أحكامهم ، وجباة الأموال إذا حادوا ، وكبار الرجال ، وأبناء الخلفاء ، إذا اغتالوا أموال الناس ، وليس عليهم شهود أو بينة .

وبذلك أصبح القضاء قوة عليا واسعة النفوذ ، واسعة الاختصاص تمد يدها وعدالتها إلى كل متمرد عليها ، أياً كان بأسه وسلطانه .

وغدا كل والى أو حاكم أو مشرف على شئون الدولة يشعر فى كل تصرفاته بأن عين القضاء ترافبه وتهيمن عليه ، وإنها لعين يقظى ، وإنها لقوة عادلة ، وإنها لسلطان يمسك بميزان القسط ، فلا ينحرف ولا يميل :

ويمشى التاريخ بالناس وبالحياة ، وتتوالى الضربات على الأنظمة الإسلامية ، فكانت أهولها الضربة التى فصلت بين المسلمين وبين قضائهم القرآنى ، وباعدت بين المجتمعات الاسلامية والقوة التى تحفظ لها كرامتها وعزتها وإيمانها .

يقول القاضى أبو على محسن التنوخى فى كتابه جامع التواريخ : « حدثنى أبو الحسين بن عباس قال : كان أول ما انحل من سياسة الملك فيما شاهدناه من أيام بنى العباس — القضاء — فإن ابن الفرات وضع منه وأدخل فيه قوماً بالمحبة لاعلم لهم ولا أبوة فيهم ، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت تتضع ويتقلدها كل من ليس لها بأهل .

ثم يقول : « وتلا ذلك اتضاع الخلافة وبلغت صورها إلى ما نشاهد فإنحلت دولة بنى العباس بانحلال القضاء » .

ضعفت الخلافة الاسلامية ، يوم ضاع القضاء الاسلامى ، وانحلت دولة الاسلام ، وانطفأت المصابيح التى ظلت متقدة تنير السبل الصاعدة بالمسلمين إلى أفق العدالة القرآنية ، المصابيح التى كانت قائمة على جوانب الحكم الاسلامى ، تصونه وترعاه وتسدد خطاه .

من الصحف الأولى

فإذا انتفت الأوهام اللاصقة بالحكم الإسلامى ونظمه ، ووضحت صلات الدين بالسياسة والحكم ، والحدود الفاصلة بينهما ، فإن الاسلام بعد ذلك ليس حكما فحسب ، بل رسالة خلقية مثالية ، وهذه الرسالة وثيقة الصلة بالحكم ونظمه ، والسياسة ووسائلها .

ولا يمكن أن نفصل قضية فى الاسلام عن تلك الرسالة التى هى روح الفكرة الإيمانية ، والزيت المضىء فى النظم الاسلامية كافة .

كل شىء فى الاسلام ينبثق من عقيدته ، ويتلون بها ، وكل عمل فى الإسلام عليه طابع تلك الرسالة وفيه شعاع من نورها .

والأنظمة الاسلامية يؤيد بعضها بعضا ، ومن هنا كان السر المضمر فى التاريخ الإسلامى ، ذلك التاريخ الذى يشهد بأن الاسلام لاينهض بالمسلمين إلا إذا طبق بأحكامه وشرائعه ومبادئه كافة ، فهو دين كلى قوته فى رسالته العامة ، فلا يؤخذ أجزاء ، ولا تستفتى وحداته تفاريق .

وفى هذا الأفق ترتد كل فكرة إلى مثيلاتها ، وتنتظم كل وحدة مع اخواتها وتتلاقى أطراف الحياة ليتكون من جزئياتها ، ذلك الشىء الذى نسميه روح الاسلام ، الذى عبر عنه أبو بكر رضى الله عنه بقوله « والله ما انتصرنا على فارس الروم بعدد ولا عدة ، وإنما بشىء وقر فى الصدور من هذا الدين » .

وهو أفق لايطاوله أفق ، ولا تسامقه مكارم ، ولا تدانيه عدالة ، ولا يحلم بمنافسته نظام عالمى أياً كان ، زمانا ومكانا .

كان أبو بكر قبل الخلافة، يحلب لضعفاء أهل السنح، وهى ضاحية من ضواحى المدينة كان يسكنها فلما ولى الخلافة، سمع جارية تقول « اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا، فصاح: بل لعمرى لاحلبنها لكم ».

ويخرج غداة توليته الخلافة لتوديع جيش أسامة بن زيد الذاهب لأطراف الشام، وأسامة على صهوة جواده، والصديق يمشى بجانبه راجلا، فيناديه أسامه، يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن، فيرد عليه، والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ».

ويذهب عمر بن الخطاب ليعقد معاهدة صلح مع أهل دمشق، فيستصحب معه عبداً رقيقا له وليس معهما إلا ناقة واحدة، فكان الخليفة يركب مرحلة، ثم ينزل ويأمر تابعه بالركوب ويمشى خلفه، ودخلا دمشق على هذه الصورة، العبد راكبا، والخليفة الفاتح المنتصر يمشى على قدميه.

ويقبل بعد أيام من توليته الخلافة حاملا قربة ماء!؟ فيسأله ابنه فى استنكار، لم فعلت هذا!! فيجب، أعجبتنى نفسى فاحببت أن أذلها!

وكان فى خلافة الصديق يتعهد امرأة بالمدينة عمياء ويقوم بأمرها فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها، فترصد يوما فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مؤنتها ولا تشغله عن ذلك الخلافة فصاح عمر حين رآه أنت هو لعمرى . .

وسئل عما يحل له من مال المسلمين نظير أمارته، فقال « أنا أخبركم بما استحل منه: يحل لى حلتان، حلة فى الشتاء، وحلة فى الصيف،

وما احج عليه واعتمر من الظهر . وقوتى وقوت أهلى، كقوت رجل من المسلمين ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

وكان مع أبي موسى الأشعرى فى بعض الفتوح رجلا ذا صوت ونكاية فى العدو ، فغنموا مغنما فأعطاه أبو موسى بعض سهمه، فأبى أن يقبله إلا جميعا وأغلظ القول ، فغضب أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره فامتطى الرجل جواده حتى قدم المدينة ، فلما دخل على عمر استخرج شعره ثم ضرب به صدر عمر قائلا : أما والله لولا !؟ فقال عمر صدق ، لولا النار . ؟

ثم ذكر الرجل قصته مع أبي موسى ، فقال يا أمير المؤمنين ، إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو وقد أعطانى أبو موسى بعض سهمى فأبيت إلا أن آخذه جميعا ، فضربنى عشرين سوطا وحلق رأسى ، وهو يرى ألا يقتص منه ، فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلى من جميع ما أفاء الله على

ثم كتب إلى أبي موسى « سلام عليكم . أما بعد . فإن فلاناً أخبرنى بما كان منك . فإن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس ، فعزمت عليك ، الا قعدت له فى خلأ من الناس حتى يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك .

فلما قدم الرجل على أبى موسى قال له الناس ، أعف عنه، فقال الرجل لا والله لا أدعه لأحد من الناس . فلما قعد أبو موسى ليقتص منه الرجل رفع الرجل رأسه إلى السماء . ثم قال : « اللهم قد عفوت عنه » .

ويشكو يهودى عليا إلى عمر فى خلافته ، فلما مثلا بين يديه نظر

إلى على ، وقال : إجلس ياأبا الحسن ، فظهرت آثار الغضب على وجه على ، فقال له عمر ، أكرهت أن يكون خصمك من اليهود ، وأن تمثل وإياه أمام القضاء ، فقال لا ! ؟ ولكنى غضبت لأنك كنيتنى ، والتكنية تعظيم ، فخشيت أن يقول اليهودى ، ضاع العدل بين المسلمين » .

ويتولى عمر بن عبـــد العزيز أمور ، الخلافة ، فيقوم الناس بين يديه فيقول « يامعشر المسلمين إن تقوموا نقم ، وإن تقعدوا نقعد . فإنما يقوم الناس لرب العالمين . إن الله فرض فرائضا وسن سننا من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس ، يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل مالا نهتدى إليه ، ويكون عونا لنا على الحق ، ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس . ولا يغتب عندنا أحدا ، ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا [١] » .

ويروى عمرو بن المهاجر ، أن رجلا ، أتى عمر بن عبد العزيز بتفاحات ، فأبى أن يقبل ، فقيل له كان رسول الله يقبل الهدية ، فقال عمر : هى لرسول الله هدية ، وهى لنا رشوة » .

ويطلب الرشيد من أبى يوسف أن يضع له كتابا يستهديه فى نظم الدولة الماليه وأدارتها ، فكتب أبو يوسف كتابه الخالد ـــ الخراج ـــ وفى مقدمة هذا الكتاب يقول للخليفة ، أقوى رجل فى العالم حينذاك .

« فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ، ولا تزغ فتزغ رعيتك ، وإياك

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، على مارواه الامام مالك ص ٣٤ .

والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء ، القريب والبعيد ، وان الله سائلك عما أنت فيه ، وما عملت به ، فانظر الجواب ! وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وألا تنظر فى ذلك إلا إليه وله . فإنك ألا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى فى عينك وتعفى رسومه ، ويضيق عليك رحبك ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد القلج له لا عليها فإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه ، مما لو شاء رده عن أما كن الهلكة باذن الله (١) » .

تلك قطرة من المحيط الاسلامى ، تقرب لنا الصورة العفة النزيهة المتعالية ، التى كانت طابع الحكم الإسلامى وسمته ونهجه ، وما يتميز به من إرتفاع بالخلق ، وإيمان بالروح ، وتقدير للعدالة ، ومراعاة لفاطر السموات والأرض .

وهى فى جملتها مقتبسة من الهدى المشرق المنير ، هدى الرسول صلوات الله عليه ، فلقد رسم لأمته بحياته وكلماته ؛ الصورة المثالية ، لأخلاق الحاكم وصفاته ، وسياسة الحكم وواجباته .

روى الحاكم فى صحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله . » .

وروى مسلم ، قال : قال رسول الله صلوات الله عليه : ما من راع يسترعيه

---

(١) كتاب الخراج ص ١ ، ٣ طبعة بولاق .

الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها الا حرم الله عليه رائحة الجنة» .

وفى مسند أحمد « أحب الخلق إلى الله إمام عادل . وأبغضهم إليه إمام جائر ! ؟ » وعن أبى موسى قال: دخلت على النبى أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحد الرجلين . يارسول الله : أمرنا على بعض ماولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال : إنا والله لا نولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا من حرص عليه » (١) .

وروى ابراهيم الحربى فى كتابه « الهدايا » عن ابن عباس . أن النبى قال « هدايا الأمراء غلول » وفى الصحيحين عن أبى حميد الساعدى قال . استعمل النبى رجلا من الأزد يقال له ابن اللتيبة — على الصدقة، فلما قدم ، قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله . فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى إلى. أما والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيأ الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تعير ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى أبطيه ، اللهم هل بلغت ! اللهم هل بلغت . ثلاثا .

وعن ابن مسعود ، قال السحت أن يطلب الحاجة للرجل . فيقضى له ،فيهدى إليه فيقبلها » .

وعن ابن مسروق ، أنه كلم ابن زياد فى مظلمة فردها ، فاهدى له صاحبها وصيفا فرده عليه وقال . سمعت ابن مسود يقول : من رد عن

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

مسلم مظلمة فرزأناه عليها قليلا أو كثيرا ، فهو سحت ؟ قلت يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى السحت إلا الرشوة فى الحكم . قال : ذاك كفر!؟

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم . أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية ، فقال: إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه، وقال لعبدالرحمن ابن سمرة ، يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فانك أن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها . وان أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . »

وروى أحمد وأبوداود عن أبى أمامة الباهلى . قال : قال . رسول الله : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها ، فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا . » .

* * *

يقول رسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » إن محمدا — صلى الله عليه وسلم — أقام نظاما سياسيا بارعا عادلا لحكم دولة ، ولقد كان ذلك سرقوة خلفائه الذين اتبعوه فى حكم المسلمين .

ويقول الفيلسوف سبنسر « الاسلام مدنية كاملة . دين ودولة . لو وجدنا مقابلا له قلنا — العالم المسيحى ، ولم نقل المسيحية » .

شريعتنا الإسلامية

فإذا انتهينا من توضيح سياسة الاسلام الدستورية فى الحكم ونظمه ، وأنها سياسة ترتكز على الكليات الاسلامية المقررة ، وتدور جزئياتها مع الحياة ، وتتسع بالاجتهاد ، وتتطور مع المصالح المرسلة .

فإن ماينطبق على نظم الحكم فى الاسلام ينطبق أيضا على سياسته التشريعية ، فهى سياسة ترتكز على كليات عامة ، مبينة مضيئة فى الكتاب والسنة ، وتدور تلك الكليات مع الحياة . وتتسع بالاجتهاد ، وتتطور مع المصالح المرسلة .

فكل كلية فى التشريع الاسلامى ، خلية عامرة بالحياة المتجددة ، التى ترسم الأفق الأعلى للروح الاسلامى ، ثم تترك للمشرع التفصيل والتقنين ، والمطابقة بينها وبين واقع الحياة ، ومقتضيات العرف ، وملابسات الزمان والمكان .

وهذه أكبر معجزات التشريع الاسلامى الذى جاء ليكون شعارا لخير أمة أخرجت للناس، ودستورا هو عدالة الله بين خلقه ، ورحمته بين عباده .

فهو تشريع لا يستمد قانونه العام ، من الكتاب والسنة فحسب ، بل تتسع آفاقه لكل تطور فى الزمان أو المكان ، فيضيف إلى كلياته العامة فى الكتاب والسنة ، العقل الانسانى ، باجتهاداته واقيسته واستنباطاته والتطور الزمنى ، وماينشأ معه للناس من أقضية وحاجيات، فيضيف إلى الاجتهاد والقياس والاجتماع قاعدتين تتسعان بآفاقهما الرحبة لكل طارىء على الحياة ، وقادم على الوجود ، قاعدتى سد الذرائع والمصالح المرسلة .

والباحث فى التشريع الاسلامى يدرك للنظرة الأولى أن الاحكام التى شرعت للعبادات ، كانت مفصلة محـــددة محررة . فهى تتناول الجزيئات تناولا مبينا فى الوضوء والتيمم والحيض والنفاس والصيام والإحرام ، وما إلى ذلك من الشئون التعبدية ، بل إنها لتنفسح حتى تتناول ما هو أدق وأرق، فترشد إلى الغسل ووسائله ومسبباته، والاستنجاء وأدواته ، وعدد وحداته ، ثم تمتد إلى أعماق الوجدان وخواطر النفوس ، فيعلم الرسول صلوات الله عليه صحابته ، أدعية النوم والمأكل والمشرب ، واليقظة والسفر والثوب الجديد والأرق، ودخول المنزل أوالخلاء والخروج منهما والمشى إلى المساجد ، ومجالس الذكر . حتى ليقول جابر رضى الله عنه فى الحديث الصحيح « لقد كان رسول الله يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا الصلاة » .

هذا التفصيل الواسع النطاق ، الرحب الآفاق ، لا نراه ولا نلمسه فى الاحوال الشخصية ، والمعاملات والدستوريات ، والاقتصاديات ، والأحكام المدنية ، والجنائية ، والسياسية ، فقد أكتفى القرآن والسنة هنا ، برسم الخطوط العريضة ، والكليات العامة ، وتركا التفصيلات والتطبيقات للناس ، يجيلون فيهما عقولهم بما يوافق مصالحهم ، ويكفل حاجياتهم .

فالعبادات لا مجال للعقول فيها ، لأنها فرائض مفروضة لله تعالى، لا تزول ولا تتغير بالزمان والمكان،أما التشريع الذى يوجه الحياة، ومصالحها ، ويحكم فى قضاياها وشئونها ، ويمشى مع الناس فيما يضطربون فيه ويتعاملون ، فمن حق الناس أن يكون لعقولهم فيه ،مجال

وتفصيل وبيان ، ومن بين سنن الخلود والبقاء أن يكون مرنا متطورا مع المد الحضارى ، والخطو البشرى .

والأصل فى الشريعة الاسلامية، أنها شريعة تقوم على الرحمة والسعة والرفق والتيسير ، وبذلك ينتفى كل تشريع يوجب العسر والحرج يقول تعالى « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » — يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر — « يريد الله أن يخفف عنكم » .

وهذا امتياز واصطفاء للأمة الاســـلامية التى أكرمها الله وأنعم عليها ، وجعل من بعثة رسولها صلوات الله وسلامه عليه ، رحمة عامة للعالمين ، ورحمة خاصة بها ، هو هذا التشريع الذى وضع عنها الأصر والأغلال والشدة التى فرضت فى التشريعات السابقة .

يقول تبارك وتعالى فى شـــأن الأمة الاسلامية ورسولها العظيم « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والإغلال التى كانت عليهم » سورة الاعراف .

لقد اصطفى الله سبحانه هذه الأمة فكتب لها رحمته ، التى تمثلت فكانت هذا التشريع الذى أحل لهم الطيبات كافة ، ولم يحرم عليهم إلا الخبائث من ميتة ودم ولحم خنزير .

التشريع الذى وضع عنهم الإصر والأغلال والقيود ، ومنحهم اليسر والسعة والرحمة ، لتكون حياتهم سلاما وإمناً وخيرا وبركة . .

والإصر ، وهو الأمر الغليظ ، والاغلال : وهى القيود ، كانتا تضربان على اليهود فى صور تكليفات شديدة غليظة ، وتشريعات قاسية ثقيلة ، عقابا للشعب المتمرد الجاحد ، حتى أن التوبة كانت لا تقبل فى التشريع الاسرائيلى ، إلا بقتل النفس « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسهم » فكان الثوب إذا أصابته نجاسة لا يتطهر إلا بقرض الجزء الذى أصيب ، كما حرم عليهم من باب التشديد والتضييق ، الانتفاع بغنائم الحرب ، والعمل فى يوم السبت ، وأكل لحوم بعض الحيوانات وشحومها ، وعدم قبول الدية فى القصاص !؟

ومن هذه الرحمة الإلهية فى التشريع الإسلامى ، أن الأصل فى كل شىء هو الإباحة لا التحريم، يقول تبارك وتعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا منه » بل إن الكون كله إنما خلق للانسان وسخر له أرضا وسماء « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض »

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « إن الله فرض فرائضا فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلاتبحثوا عنها .»

كل شىء حل إلا ما حرم ، وبذلك لايعرف الاسلام ، هؤلاء الجهلة الذين يقذفون بكلمات التحريم فى وجه كل شىء ،ويضيقون على الناس أمورهم ، ويتشددون فيما أمر الله فيه باليسر والرحمة .

ولهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يكره كثرة السؤال فى أمور الدين والتشريع ، لأنها من علامات الجمود والتزمت ، ولأنها قد تدفع إلى تحريم وتضييق .

يخطب صلوات الله عليه أصحابه فيأمرهم بالحج ، فيقوم رجل فيقول : أفى كل عام يا رسول الله !! فيعرض الرسول عنه ، ويكرر الرجل سؤاله ، فيكرر الرسول إعراضه ، ثم يقول: دعونى ما تركتكم ، فوالله لو قلت كل عام لوجبت ، ثم لا تطيقونها . »

ويقول الصادق الأمين فيما رواه الشيخان « أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسئلته » .

ويقول الرسول الذى هو بالمؤمنين رؤوف رحيم لمعاذ بن جبل ولأبى موسى الاشعرى لما بعثهما إلى اليمن « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » (١) .

ويبول اعرابى من غلاظ البدو فى مسجد رسول الله ، فيثور به الصحابة ، فيقول صلوات الله عليه لأصحابه لا تزرموه — أى لا تقطعوا عليه بوله — ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه ثم قال : إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين (٢) .

وفى الحديث إشراقه يجب أن يفطن لها كل مسلم ، فالرسول يقول لأصحابه « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » وبذلك جعل من كل مسلم مبعوثا يحمل رسالة الإسلام ، رسالة اليسر والرحمة .

ويقول صلوات الله عليه « إدرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله فإن الامام لأن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ويقول الصادق الأمين « بعثت بالحنيفة السمحة » ويقول « رفع عن أمتى ما أكرهوا عليـــه . ومالا يطيقون ومالا يعملون ، وما اضطروا إليه» .

ومن الأصول المقررة فى منطق الاسلام أن الله جل جلاله لاتضره معصية العاصى ، ولا تنفعه طاعة الطائع ، ولم يشرع سبحانه الحدود والأحكام ، لغرض أو هوى أو نفع ذاتى ، تعالى سبحانه عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما شرعت لخير الناس وأمنهم وسعادتهم وطمأنينتهم ، شرعت لتكون الحياة أدنى ما تكون إلى الكمال والسلام ، فهى رحمة الله بين خلقه ، وعدالته بين عباده ، لتستقيم لهم الحياة ، وتعتدل موازينها .

فالأمر والنهى ، والحل والتحريم ، فى الاسلام يدوران مع الخير العام ، ومع عدم الضرر . ومع الرحمة واليسر والسعة وعدم الضيق والحرج ، لا مع الأمر والنهى فحسب ، فإذا انتفى الخير ، انتفى الأمر وإذا خيف الضر ، وقف النهى !!

وبهذه المبادىء الشاملة دار التشريع الاسلامى مع المصالح العامة فى مرونة ويسر ، وعدم حرج أو تعثر ، مشى رحمة بين الناس يقيم موازينهم بالعدل والقسط ، ويهديهم صراطا مستقيما .

ولقد فهم المشرعون الاسلاميون هذه المعانى فى صدر الإسلام . فأداروا تشريعهم عليها وأقاموا اجتهادهم على نورها .

روح التشريع معلل بالمصلحة

يقول العلامة الاسلامى عز الدين بن عبد السلام ، فى كتابه «قواعد الأحكام فى مصالح الآنام» — والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد فى دنياهم وآخرتهم ، والله غنى عن عبادة الكل ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وان مصالح الآخرة لا تتم إلا بمصالح الدنيا .»

ويقول الامام الشاطبى « والمعتمد أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد ، علم ذلك بالاستقراء فإن الله تعالى يقول فى بعثة الرسل وهى الأصل — رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل — والتعاليم لتفاصيل الأحكام من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى كقوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وفى الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وفى القبلة « فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة » وفى القصاص « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب » وفى الجهاد « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » .

كل شىء فى التشريع الاسلامى معلل بخير الناس ، وصالح حياتهم وتلك حجة الله الكبرى فى تشريعه على عباده ، وتلك رحمته بين خلقه ، فمن أدرك هذه الرحمة ، فقد فقه الاسلام ، وفقه تشريعه .

ولقد ربى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أصحابه على هذا النهج ، فكان يعلل لهم كل حكم من أحكامه بعلته . والتعليل موجب للعلة أينما كانت كما يقول الأصوليون .

يقول الرسول لأصحابه « كنت نهيتكم عن إدخار لحوم الأضاحى لأجل الدافة . فأدخروها » .

والدافة قوم من الأعراب يسيرون جماعات فلما هبطوا المدينة أيام عيد الأضحى أمر الرسول صحابته أن لا يدخروا لحوم أضاحيهم ليدفعهم إلى التصدق بها على هؤلاء القوم الذين وفدوا على مدينتهم ، فلما رحلوا ، وانتفت العلة ، زال معلولها ، فأمرهم الرسول بالادخار .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه « كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة »

كان العرب فى جاهليتهم يعظمون قبور الآباء والاجداد ، ويقيموا حولها المحافل ، فنهى الرسول أصحابه عن زيارة القبور خشية أن يدفعهم قرب عهدهم بوثنية قومهم إلى ما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، فلما انتفى هذا الخوف برسوخ الاسلام فى القلوب . أمرهم بالزيارة ، وربطها بالخير المنبثق من تذكر الآخرة .

وسأله بعض أصحابه عن بيع الرطب بالتمر ، فقال . . أينقص الرطب إذا يبس ؟ فقالوا . نعم ، فقال . فلا إذن ! ؟

والرسول صلوات الله عليه ، كان يعلم أن الرطب إذا يبس نقص وزنه ، ولكنه تغاضى عن علم ، ليعلم أصحابه فقه التشريع ، وليعلمهم أن العلة فى تحريم البيع هو رجحان كفة على كفة ، وفى هذا ظلم لا ترضاه عدالة الاسلام

ويقول صلوات الله عليه فى الصيد « فإن وقع فى الماء فلا تأكل منه ، لعل الماء أعان على قتله » .

جعل علة التحريم خشية أن يكون الصيد قد مات مختنقا بالماء ، وبهذا جاء التشريع الاسلامى تشريعا أصيلا يحترم العقول ، احترامه للنطق ويدير أحكامه على العلة القائمه ، فاكتسب المرونة التى تجعله تشريعا خالدا ناميا رابيا ، لايقف ولا يجمد ، عند ماتنبثق فى وجهه الاقضية والمسائل الطارئة .

ويقول ابن القيم فى كتابه الكبير « أعلام الموقعين » — فإن شريعة الله مبناها فى الحكم مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكم كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وأن ادخلت فيها بالتأويل .

فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه وحكمته الدالة عليه ، وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتم دلالة وأصدقها ، وهى نوره الذى أبصر به المبصرون ، وهداه الذى اهتدى به المهتدون وشفاؤه التام ، به دواء كل عليل ، وطريقه المستقيم الذى من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل ، وهى العصمة للناس ، وقوام العالم ، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا »

كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل ، ذلك هو الصراط المستقيم للشرع الاسلامى وبذلك الصراط المبين يستطيع رجال التشريع فى كل زمان ومكان أن

يقبسوا من قرآنهم وسنة نبيهم الخير واليسر والعدل ، الذى هو قوام العالم .

ويقول فى كتابه ــ الطرق الحكمية ، فى السياسة الشرعية ــ فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات . فاذا ظهرت أمارات العدل . وأسفر وجهه بأى طريق ، كان فثم شرع الله ودينه ، بل قد بين الله سبحانه بما شرعه من الطرق ، أن مقصوده إقامة العدل بين عباده ، وقيام الناس بالقسط ، فأى طريق استخرج بها العدل والقسط ، فهى من الدين ليست مخالفة له . فلا يقال ، أن السياسة العادلة ، مخالفة لما نطق به الشرع ، بل موافقة لما جاء به ، بل هى جزء من أجزائه ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم وإنما هى عدل الله ورسوله ، ظهر بهذه الامارات والعلامات . »

هدف الشارع الأكبر هو العدل فإذا ظهرت أماراته ، وأسفر وجهه بأى طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ، وأى طريق وأى نهج أدى إلى القسط والصراط المستقيم ، فهو دين الله وشرعته .

حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله

وعلى هذا الضوء ، ضوء العلاقة الخالدة ، بين المصالح العامة والشريعة ، صدرت الأحكام الاسلامية التاريخية ، لا فى الأمور الاجتهادية فحسب ، بل وفى الأمور المنصوص عليها صراحة فى الكتاب والسنة .

يقول العلامة الطوفى من فقهاء الحنابلة فى شرح حديث لا ضرر ولا ضرار « إذا تعارضت المصلحة مع النص والاجماع ، وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما ، بطريق التخصيص والبيان » .

ويقول الإمام مالك تعقيبا على ذلك الأصل التشريعى — إن طريقة الطوفى هى التمشى مع المصلحة المرسلة » .

ويقول الإمام ابن عقيل « وطريقة الطوفى ليست قولا بالمصلحة المرسلة على ماذهب اليه مالك بل أبلغ من ذلك ، وهى التعويل على النصوص والاجماع فى العبادات والمقدرات وعلى اعتبار المصالح فى المعاملات وباقى الأحكام » .

ويقول الإمام الشاطبى فى الجزء الثانى من الموافقات « فكل حكم شرعى فيه حق لله من جهة وجوب العمل به ، وفيه حق للعبد من جهة أنه ما شرع إلا لمصلحته ، ولقد صدر كثير من المشرعين الاسلاميين عن المصلحة فى كثير من تشريعهم . فالعدل بين الناس ، هو المقصود من الشريعة الإسلامية ، ومن كل شريعة الهية ينطق بهذا قوله سبحانه « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس

بالقسط ، ولهذا أمر الله المؤمنين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين « يا أيها الذين آمنو كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين » وأمر بالعدل مع العدو « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى . »

والشاطبي هنا يمثل العقلية الاسلامية المشرعة المستنيرة التي تنفذ ببصيرتها القانونية إلى أهداف الشريعة العليا في طلاقة ويسر وسماحة ومرونة حية خالدة ، فيضع في كلمات قلائل قاعدة من أجل ما أصل المشرعون الاسلاميون من أصول في تطبيقات الكتاب والسنة .

كل حكم شرعي له وجهان ، وجه هو حق الله المقدس في وجوب العمل به ، ووجه هو حق للعبد من حيث أن الحكم ماشرع إلا لمصلحته وخيره ، فإذا قامت مصلحة الفرد مبينة مضيئة ، وقامت مصلحة الجماعة واضحة مشرقة ، في أمر من الأمور ، فيجب أن يتحول الحكم فورا إلى هذه الوجهة ، وأن تؤسس حيثياته على المصلحة القائمة .

لأن هدف الشريعة الاسلامية ، بل هدف كل شريعة إلهية ، هو إقامة العدل بين الناس ،والعدل خير ورحمة ، ولايتفق العدل مع الضرر والضيق ، وهذا هو الميزان ، الذي أنزل مع الكتب السماوية الميزان الذي يجب أن يمشي جنبا إلى جنب مع شرائع الله .

وليس في هذا أي إهدار لحكم إلهي، ولا اعتداء على قاعدة اسلامية ولا تبديل لشرعة في الإسلام إذ أن الحكم هنا يرتكز كما يقول العلامة الطوفي على التخصيص والبيان .

وروى الشيخ الغلاينى ، فى كتابه « الاسلام روح المدنية [١] أن الامام مالك يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص ، لأن الله جل جلاله إنما شرع لمنفعة العباد . »

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر فى كتابه « السياسة الشرعية والفقه الاسلامى [٢] » تعقيبا على حرمان عمر بن الخطاب المؤلفة قلوبهم من سهم الصدقات مع ثبوت حقهم بنص القرآن .

« وكذلك ليس من المخالفة لأدلة الشريعة مافعله عمر بن الخطاب من حرمان المؤلفة قلوبهم من سهم الصدقات ، وإن كان هذا السهم قد قرر لهم فى القرآن فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم » فلم يأخذ عمر بظاهر اللفظ ، ولم يقف عند حرفية النص بل راعى سره ، وحكم روحه ، وقرر أن الآية التى فرضت نصبا لهؤلاء المؤلفة قلوبهم لم تفعل ذلك ليتخذ شريعة عامة يعمل بها فى كل حال وزمان ، بل إنما كان لحكمة خاصة ، وسبب لم يعد قائما بعد ، وأرشد إلى هذا عمر بقوله — إن الله قد أعز الاسلام وأغنى عنهم —

فعمر رأى أن سهم المؤلفة قلوبهم قد أوجبه الله لحاجة المسلمين إلى من يعضدهم وينصرهم أولا يؤلب عليهم ، فاذا صار المسلمون فى قوة وعزة ، زال المعنى الذى من أجله وجب ذلك السهم وكان للامام أن يصرفه عن هؤلاء المؤلفة إلى ماهو أجدى على المسلمين وأنفع ،

---

(١) ص ٣٩ (٢) ص ١٥

وليس معنى هذا إبطال سهم المؤلفة رأساً ، بل إن أمره يدور مع ذلك السبب وجودا وعدما حتى إذا تجددت للمسلمين حاجة إلى التأليف كما كانت الحاجة إلى ذلك ، سمح للامام أن يصرف للمؤلفة على حسب مايرى المصلحة »

هذه هى شريعة الله الخالدة كائن حى دائم النماء ، تدور أحكامها مع المصالح العامة ، وليس معنى ذلك أهدار أحكامها . فالأحكام باقية وإنما تدور معلولاتها مع العلة ، فإن انتفت العلة انتفى المعلول ، وإن عادت عاد مدلولها .

يأمر القرآن الكريم بإعطاء المؤلفة قلوبهم سهما من أموال الصدقات وقد جاء هذا الأمر والمسلمون قلة يتخطفهم الناس ، والمؤلفة قلوبهم قوم أولوا بأس ومكانة بين العرب ، فتألف المسلمون قلوبهم بالهبات والأموال دفعا لشرهم وكفا لا يديهم عن الحاق الأذى بالمسلمين أو بدعوتهم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات ، ويعطيهم أيضا من أموال غنائم الحرب ، واقتدى به أبو بكر رضى الله عنه مدة خلافته .

ثم ولى الأمر عمر بن الخطاب ؓ، فجاءه عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس وهما من رؤوس المؤلفة قلوبهم يطالبان بأرض كتب أبو بكر لهما بها فمزق عمر الكتاب الذى أعطاه أبو بكر لهما ، قائلا . إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم « فإن تبتم » وإلا بيننا وبينكم السيف ـ

لم يجمد عمر مع حرفية النص ، وإنما دار مع علته وروحه لقد انتفت علة الحكم، بقوة المسلمين ، فإن عاد أمرهم إلى ضعف ، ورأى

الحاكم أن من الدهاء السياسى ، أن يشترى أمثال هؤلاء الناس بالأموال فى سبيل المصلحة العامة ، فله أن يعرد إلى الحكم الإسلامى القائم الخالد وأن لم يكن منفذا ! ؟ وإن تعطل حينا(١) .

ولقد علم الرسول أصحابه طوال حياته ، كيف يجتهدون فى دينهم وكيف يدورون بأحكامه مع المصالح العامة ، فنهى مثلا عن أن تقطع أيدى السارقين فى دار الحرب خوفا من أن يلتحق السارق بالعدو رعيا من القصاص « كما روى أبوداود » وصدرت أحكامه صلوات الله عليه فى أكثر من موقف دائرة مع المصلحة الراجحة .

ولقد واجه المسلمون فى فجر حياتهم مشاكل كبرى فى فهم التشريع وفى تطبيقاته العمليـــة على واقع حياتهم ولكنهم استطاعوا بالفهم العالى لروح الإسلام . وهم صحابة الرسول وأعلم المسلمين بالقرآن والسنة . استطاعوا بهذا الفهم أن يدوروا بالأحكام مع المصلحة العامة فى سماحة ويسر كانت هى السر الأكبر فى قوة العالم الإسلامى ، التى انبثقت فى سرعة فجائية مذهلة ، فطوفت راياتها حول العالم فى فتوحات عالمية تاريخية .

وكان لعمر رضوان الله عليه ، وهو صاحب أكبر العقليات التشريعية

---

(١) عارض الأحناف هذه المسألة ، لأن من قواعد مذهبهم ، أن الأحكام الشرعية التى لها علل ظاهرة لا يشترط فى دوامها بقاء علتها ، كالشرعة فى الطواف ، علتها إظهار قوة الصحابة لأهل مكة ، وبقى الحكم دائما .

أما المالكية فقد أقروا عمل عمر فى اجتهاده ، وكذلك الشوافع ، ومجتهدى الحنابلة كابن تيميه وابن القيم .

فى العالم الإسلامى ، جهادا مشكورا فى هذا السبيل ، وأحكاما لا تزال تهدى كل دارس فى أفق التشريع الإسلامى ، فقد أدار أحكامه الاجتهادية على المصالح العامة فى تطبيقات مثالية أقره عليها العالم الاسلامى « واقتدى به » تطبيقات جزئية منيرة استهدفت الحالة الطارئة والقياس والاجتهاد النافع الصالح .

منع جلد شارب الخمر فى أيام الحرب « أو فى دار العدو » وجعل حيثيات هذا المنع « خشيـــة تنصره » حيث حد مسلما فى دار حرب فتنصر .

ولم ينفذ حد السرقة فى عام المجاعة ـ الرمادة ـ ، لأن الحد لايقوم إلا بعد ان توجد الحياة الرخاء المطمئنة التى تكفل لكل فرد بيتا وعملا ومطعما وملبسا فى يسر وسعة .

والزم فى حكم مشهور له عامر بن بلتعه بدفع التعويض المناسب عن سرقة قام بها أحد خدمه لأنه أجاع الخادم حتى اضطر إلى السرقة .

قال ابن تيمية فى السياسة الشرعية « جىء لعمر بغلمة لحاطب بن أبى بلتعه ، سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأقروا ، فأرسل إلى عبد الرحمن ابن حاطب ، وقال له . إن غلمان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، وأقروا على أنفسهم . ثم قال ـــ لكثير ـــ إذهب فاقطع أيديهم ، فلما ولى بهم ردهم عمر . ثم قال :

« أما والله لولا انى أعلم أنكم تستغلونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له . لقطعت أيديهم ، وإيم الله إذا لم أفعل ، لأغرمنك غرامة توجعك ثم قال : يامزنى بكم . أريدت منك

فاقتك ؟ ! قال : باربعمائة . قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب: اذهب فاعطه ثمانمائة » .

وعمر هنا يقرر مبدأ هاما خطيراً . فإنه يؤآخذ الذى هيأ الأسباب التى تؤدى لوقوع الجريمة ويعفو عن المضطر الذى قهره الجوع حتى سرق ؟ وهو مبدأ لو طبق فى عصرنا ، لوقع كثير من رجال المال والشركات والحكم فى العقوبة .

ولما رأى عمر استهانة الناس بيمين الطلاق ، وهو مرض من أمراض النفوس ، أراد أن يأخذهم بالقسوة لخيرهم . فحكم بوقوع الطلاق ثلاثا ممن حلف بالطلاق ثلاثاً فى لفظ واحد ، مع أن القرآن يقول : « الطلاق مرتان » والطلاق الثلاث مرة من المرتين .

يقول العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين « المقصود أن هذا القول (وقوع الطلاق الثلاث واحدة) قد دل عليه الكتاب والسنة والقياس والاجماع القديم ، ولم يأت بعده إجماع يبطله ، ولكن رأى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بامضائه عليهم ، ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة ، بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجا غيره ، نكاح رغبة يراد للدوام، لا نكاح تحليل فإنه كان من أشد الناس فيه . فإذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق ، فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم فى زمانه،ورأى أن ما كان عليه عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد الصديق ، وصدرا من خلافته ، كان الأليق بهم .

ثم يقول « فهذا مما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان ، وعلم الصحابة

رضوان الله عليهم حسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما ألزم به ، وصرحوا لمن استفتاهم بذلك » .

وجاء نصارى بنى تغلب إلى عمر ، وهم قوم لهم كرامة وانفة، فقالوا «لقد أنفنا من اسم الجزية التى تؤخذ منا، فخذ منا زكاة كالمسلمين وضاعفها» .

وقبل عمر هذا العرض وأخذ منهم الزكاة وضاعفها عليهم ، مع أن النص القرآنى صريح فى أن الذى يؤخذ منهم هو الجزية لا الزكاة، ولكن أيتعبد عمر فى الألفاظ دون المعانى والحقائق ، لقد رأى شرا بازغا فتلافاه ، وفى الوقت نفسه ضمن لبيت المال حقوقه تحت أسم آخر .

وموقفه من تقسيم الفىء ، وهو أخلد المواقف كلها ، مع جلالها جميعها ، فقد هداه الله إلى استنباط واجتهاد ، كانا الأساس الأول فى إقامة الاقتصاد الاسلامى وعظمة الامبراطورية الاسلامية التاريخية .

توالت إنتصارات الاسلام فى فارس والروم ، وطوى الجند الاسلامى ، أرض الشام والعراق ، فرأى عمر نفسه ، أمام مشكلة من اعقد مشاكل التشريع والحكم .

لقد استولى الجند المنتصر على أموال كسرى وذخائر قيصر، كما أصبحت عشرات الملايين من الأرض الزراعية الخصبة فى قبضة الاسلام

أما الأموال السائلة ، فقد اجرى فيها عمر حكم الأسلام ، أخذ الخمس لبيت المال وصرفه فى مصارفه العامة المشروعة، ووزع الأخماس الأربعة على الذين نالوها بسيوفهم ، تطبيقا الآية الكريمة « وأعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وبقيت الأرض الشاسعة ، أما الجنود فقد طالبوا بقسمتها على مقتضى الآية الصريحة الخمس لبيت المال ، والباقى للجنود ، كما نص القرآن ، وكما طبق الرسول صلوات الله عليه .

ولو أجاب عمر مطالبهم ، ومشى مع ظاهر الآية ومع السنة الثابتة لكان معنى ذلك ، أن تسلم أرض الشام والعراق بمن عليها للجنود الفاتحين فتتكون منهم فورا طبقة رأسمالية متميزة ، من أكبر طبقات المال فى التاريخ .

بينما لا يظفر بيت المال وهو سند الأمة إلا بجزء محدود من هذا الثراء الباذخ .

فكر عمر وقدر ، واطال التفكير والتقدير ، فى المشكل الخطير ، وهو يعلم أن شرع الله خير وعدل وحكمة ، وأن أحكام شريعته لا تمشى مع الأمر والنهى ، وإنما تمشى مع مصالح الناس وتتطور بحسب ما يتجدد لهم من أقضية وحاجيات ، وهو يعلم أن أمر المسلمين شورى ، فى تشريعهم وفى حكمهم وفى حياتهم .

فجمع عمر قواد الجند ليستأنس بآرائهم ، وخاطبهم بحجته « إذا قسمت الأرض على الجنود ! فكيف بمن يأتى من المسلمين ، فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ماهذا برأى فقالوا له — ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله علينا بسيوفنا ، فقال عمر : هو ماتقولون ، ولكنى لست أرى ذلك ؟ والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فبماذا نسد الثغور ؟

وما يكون للذرية والأرامل بهذا البـــلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ فقالوا ، أنقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ، قال هذا رأيي لخير الناس جميعا فقالوا له . استشر ؟ قال . أفعل إن شاء الله ،

فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا . ذهب فريق على رأسه عبدالرحمن ابن عوف إلى رأى الجند وذهب فريق على رأسه على بن أبي طالب إلى رأى عمر . فأرسل عمر إلى عشرة من رؤساء الأنصار وفقهائهم وقال لهم : إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا معى فى أمانتى فيما حملت من أموركم ؟ فإننى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون الحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هـذا الرأى الذى هو هواى ؟ فلكم من كتاب الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ماأريد به إلا الحق ، فقالوا له . قل نسمع يا أمير المؤمنين . فقال لهم : قـــد سمعتم كلام هؤلاء القوم ، الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وانى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، لكنى رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم ، فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وانا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين ـــ المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم ـــ أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام لابد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابد من ادرار العطاء

عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ، إذا قسمت الأرضون ؟

فقالوا جميعا له . الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إذا لم تشحن هذه الثغور ، وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم مايتقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم » .

وبانضمام الأنصار إلى رأى عمر غدت الكثرة فى جانبه — والتشريع الإسلامى شورى بين المسلمين — فأمضى عمر حكمه الخالد . جعل الأرض جميعاً ملكا لبيت المال « أى أمم الأرض المفتوحة » وأقر أصحابها عليها ، وفرض عليهم الجزية والخراج ، وبذلك كسب المسلمون قلوب أهل الشام والعراق ، وكسبوا جهودهم فى أرضهم ، كما ظفرت الدولة بدخل ضخم دائم ، ومورد ثابت يمد بيت المال ، بالملايين من الجنيهات سنويا .

لقد مشى عمر رضى الله عنه مع التطور التاريخى ، مقدما مصلحة الأمة الإسلامية على كل شىء ، مديراً لكل حكم مع المصلحة العامة ، فكان رأيه كما يقول الإمام أبو يوسف الفقيه الحنفى الكبير فى كتابه الخراج « توفيقا من الله كما عوده فى كثير من الحالات[1] » .

واقتدى بعمر العظيم الصحابة جميعا ، فكانوا أئمة فى الإجتهاد ، أئمة فى فهم روح الإسلام والإحاطة بأسرار تشريعاته .

جاء الجند إلى سعد بن أبى وقاص ، بابى محجن الثقفى يوم القادسية ، وقد شرب الخمر فأمر به إلى القيد ، وسجنه بحجرات قصره ، فلما التقى الناس ودارت رحى الحرب بين المسلمين والفرس فى ليلة قادس ، وأبو محجن ، بطل له جهاده وبأسه ، عز عليه أن تقوم للحرب حاقة

---

(١) ص ١٤ ، ١٥

لا يكون من أبطالها وأن تسل سيوف فى سبيل الله لا يكون من أصحابها.

يقول المسعودى فى مروج الذهب(١) « فجبا حتى صعد إلى سعد يستشفعه ويستقيله ويسأله أن يخلى عنه ليخرج ، فزجره سعد ورده فانحدر راجعا ، فنظر إلى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان سعد قد تزوجها بعده ، فقال يابنت حفصة : هل لك فى خير فقالت . وما ذاك ؟ قال . تخلين عنى ، وتعيرنى البلقاء — فرس سعد — ولله على أن سلمنى الله أن أرجع إليك ، حتى أضع رجلى فى القيد ، فقالت . وما أنا وذلك ، فرجع يوسف فى قيده ، وهو يقول

كفى حزنا أن ترى الخيل بالقنا ... واترك مشدودا على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد فأغلقت ... مصاريع من دونى تصم المناديا
فإنه عهد لا أخيس بعهده ، ... لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقالت سلمى، إنى استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته ؟ وقالت شأنك وما أردت ، فاقتاد بلقاء سعد واخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق فركبها ، ثم جال فى صفوف الفرس جولات هائلة حتى قال الناس إن كان الخضر يشهد الحرب فهذا هو الخضر، قد من الله به علينا فلما انتصف الليل تحاجز الناس ، وتراجعت فارس على أعقابها،وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ورد البلقاء إلى مربطها وعاد إلى محبسه ، ووضع رجله فى القيد وهو ينشد

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٣ .

وأكرمهم دروعا سابغات و صبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن احبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

وأخبرت سلمى سعدا بما كان من أمر أبى محجن ، فقال سعد : لقد كنت أقول : الصبر صبر البلقاء والظفر ظفر أبو محجن ، وأبو محجن فى القيد ، الآن حصحص الحق،والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى للمسلمين ما أبلاهم ، ولا أسجن اليوم رجلاهذا جهاده ، فخلى سبيله ، فقال أبو محجن : كنت أشربها إذ تقيم على الحد ، فاما إذا أسقطت الحد عنى ، فوالله لا أشربها أبدا .

قال ابن القيم : قال إبراهيم : وليس فى هذا ما يخالف نصا أو قياسا ، ولا قاعدة من قواعد الشرع ، ولا إجماعا ، بل لو أدعى أنه إجماع الصحابة كان أصح » .

تلك هى فلسفة التشريع الاسلامى،أو السياسة التشريعية فى الاسلام وهى سياسة أصيلة عريقة . فإن سعدا أتبع فى ذلك هدى رسول الله صلوات وسلامه عليه ، فقد رأى بطولة الثقفى وجهاده ونكايته فى العدو ، وبذله لنفسه فى سبيل الله، رأى فى كل هذا ما يدرأ عنه الحد لأن الحسنات يذهبن السيئات ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى قال له « يارسول الله أصبت حدا فأقمه على،فاعرض عنه ، حتى أقيمت الصلاة ، فصلى ، ثم عرض له الرجل، فقال يارسول الله : أصبت حدا فأقمه على ؟ فقال له الرسول . هل صليت معنا هذه الصلاة ، قال نعم ، قال: اذهب فإن الله قد غفر لك حدك ، وكلا الذنبين لم يكونا من حقوق العباد .

ورفع إلى الامام أبى يوسف القاضى ، والفقيه الحنفى الكبير ، أن مسلما قتل ذميا ، فحكم بالقود، فأتى رجل برقعة فألقاها ، فاذا فيها

يا قاتل المسلم بالكافر ... جرت وما العادل كالجائر
يامن ببغداد وأطرافها ... من علماء الناس أو شاعر
استرجعوا وابكوا على دينكم ... واصطبروا فأمر للصابر
جار على الدين أبو يوسف ... بقتله المسلم بالكافر

وثار العامة ، والتهبت بغداد بالفتنة ، فدخل أبو يوسف على الرشيد أمير المؤمنين ، واقرأه الشعر وأخبره الواقعة ، وثورة العامة ، فقال الرشيد : تدارك هذا الأمر حتى لا تستفحل الأمور . فخرج أبو يوسف وطلب من أصحاب الدم البينة ، على الذمة وثبوتها . فلم يأتوا بها . فأسقط القود . ودفع لهم الدية من بيت المال . وأنقذ بذلك بغداد من فتنة هوجاء .

ويقول الإمام الحسين بن المنصور فى كتابه « هداية العقول إلى غاية السول » إن المؤيد بالله يجوز تأخير القصاص لمصلحة العامة كما يجوزه إذا خيف من الفتنة . »

وأفتى الإمام أبو يوسف ، بجعل البر والشعير موزونين ، مع ورود النص الشرعى القاطع ، باعتبارهما مكيلين ، واستند أبو يوسف على العرف ، وجعل العرف فى التشريع قاعدة راجحة .

بهذه الروح فهم السابقون الأولون فى الاسلام ، فلم يشعر أحد منهم ، بأن شريعة الله السمحاء هى قيود لا تنفصم ، وجمود لا يتطور ، وهى التى جاءت محجة بيضاء فى ضوء الحياة وسعتها .

لقد مشوا بها إلى حياتهم ، يطبقونها على قضاياهم ، لتكون رحمة وخيرا وسعة ، ومشوا بحياتهم إليها فى يسر وطلاقة وسماحة ، فاتسعت

لهم آفاقها الفسيحة ، وشملتهم خيراتها المباركة . وأحس المسلمون تحت ألويتها ، بالحرية والعزة والقوة ، وكمن فى وجدان كل مؤمن بأنه على الصراط المستقيم ، وأن شريعته هى رحمة الله بين عباده ، وأن أمته خير أمة أخرجت للناس .

فلما ضاقت العقلية الإسلامية ، وجمدت وخمدت ، ضاقت بهم وعليهم الشريعة التى أرادها الله يسراً لا حرج فيه ، وخيراً لا ضرر معه .

لقد انتهت الأمة الاسلامية ، كأمة حية نامية ، يوم تنادى فقهاؤها ، بغلق أبواب الاجتهاد والقياس والاستنباط ، واهدار قاعدتى سد الذرائع ، والمصالح المرسلة ، وهى أبواب الرحمة التى إختصت بها أمة القرآن ، وهى الميزان الذى أنزله الله مع الكتاب .

لقد أفتى المفتون منهم بأنه لا إجتهاد بعد القرن الرابع الهجري ، كأن الله سبحانه ، قد أمسك خزائن رحمته ، فلا تفيض على عباده بعد هذا التاريخ الذى قدروه وحددوه ، وكأن حكمة الله قد رفعت من هذا الكوكب ، فلا تلد أنثى بعد زمنهم المقدر عقلا ذكيا ! ؟ وكأن الله سبحانه قد أمسك حركة الكون فلا دوران لها حتى لا تنجم للمسلمين أقضية ، أو تمشى إلى مجتمعاتهم مسائل ومشاكل تستلزم تشريعا واجتهاداً .

لقد جمد المسلمون وتحرك الكون ، وجمد الفقهاء وخلق الله عقولا ، واختفت أبواب الاجتهاد والقياس والاستنباط وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، وبزغت ونجمت فى الأفق الاسلامى مئات القضايا وآلاف المسائل التى وقف المسلمون حيالها حيارى لا يجدون لها حلولا تربطها بحياتهم

وتصلها بتشريعهم ، لأن القدامى لم يبدوا فيها رأيا، ولم يقولوا فيها قولا

ودار الكون وجمد المسلمون ، جموداً جديدا، ومشت الحياة، ومشى الناس فى ضوء الشمس ، وتوارى المسلمون وراء السحب ، وأدخلوا رؤوسهم فى الجحور الضيقة ، لقد حطموا المصابيح التى أضاءت شريعتهم وتركوا نهج رسولهم . وسياسة خلفائهم . ومنطق مجتهديهم . وأغرموا غراما قاتلا بالجدل اللفظى . فأخذوا يفلسفون الألفاظ . ويتعبدون فى صيغها . ويخلقون حاشية لكل قول . وهامشا لكل لفظ . حتى اختنق الفقه والتشريع تحت جبال من الأوهام . وأكداس من الافتراضات . وحشود هائلة من الكلمات الجوفاء .

يقول الإمام ابن القيم مهاجماً الفقهاء المتزمتين الجامدين ، ناسبا اليهم نكبة العالم الاسلامى وفقدانه لتشريعه .

« جعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها . وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق . والتنفيذ له . وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعاً أنها حق مطابق للواقع .

إلى أن يقول « فلما رأى ولاة الامور ذلك . وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا من أوضاع سياستهم شراً طويلا وفساداً عريضا » .

التشريع الاسلامى

يدور مع واقع الحياة

. . . وفى كلمة ابن القيم، شعاع يرشد إلى سر من الأسرار الضخمة التى تكمن وراء ابتعاد العالم الإسلامى عن شريعته السماوية، فالتشريع الذى يمشى مع الناس فى حياتهم، كائن حى نام متطور، وكل كائن حى يلحقه الجمود، تتفتح له سراديب الموت.

ولقد جمد الفقهاء، وتقدم الزمن، فنادت ضرورات الحياة الملحة بأنها فى حاجة إلى تشريع يلاحق تطورها وأحداثها، فرأى ولاة الأمور كما يقرر ابن القيم، أن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء الفقهاء من التشريع! فأحدثوا قوانين وأنظمة تتلاءم مع واقع الحياة، قوانين وأنظمة لم يهيمن عليها الإسلام، ولم تضيئها هدايته، بل هيمن عليها الملوك والأمراء، ومن ثم، لونوها بأغراضهم، وأحاطوها بأهوائهم، فأحدثوا من أوضاع سياستهم شراً طويلا. وفساداً عريضاً.

ولو أن الفقهاء فقهوا حقا روح الإسلام لوجدوا فى أصوله التشريعية، القوة الكاملة لإمدادهم بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس فى مختلف بيئاتهم وعصورهم العدالة والاطمئنان، والحياة الكريمة الطيبة.

يقول العلامة الشيخ محمد الخضر حسين فى رسالته عن مدارس الشريعة الإسلامية وسياستها(١)

« لا يستقيم لقانون تفصل أحكامه أن يطرد فى جميع العصور ، أو ينسحب على سائر الأقطار ، لأن المصالح والمفاسد ، التى توضع لها القوانين لا تلحق كل الأعمال لذاتها أو لوصف لا ينفك عنها حتى يكون العمل دائما لمصلحة أو مفسدة بل المصلحة والمفسدة تترتب على الأفعال ترتيب المسببات العادية على أسبابها مثل ترتيب منافع الأدوية ومضارها عليها فإنها تختلف باختلاف الأحوال أو الأزمان ، فالعمل قد يكون منشأ لمصلحة فى حال أو زمان أو فى حق أشخاص فيستدعى الإثبات والاقبال عليه ، وقد ينتقل فعله إلى أن يتصل بمفسدة فيستحق النفى والبعد عن جانبه .

ومن هنا كان بعض من لا يعرف بطانة الشريعة الاسلامية يتردد ويرتاب فى صلاح العمل بها فى كل عصر وجيل ، ويقول : إن حقيقة القانون لا تنطبق على ما قررته من القضايا لأن من خصائص القانون أن يتبدل ويتجدد بحسب تغير العصور والأحوال .

ولا أرى هؤلاء إلا أنهم اعتقدوا شريعة الاسلام بمثال القوانين الوضعية فصلت أحكاما ، أو أعطت قواعد قريبة من التفصيل ثم قطعت وحيها عن الناس .

إن الشريعة ضمت تحت جوانحها حقائق حفظت مصالح كل العصور والأجيال ومكنت المجتهد فى كل عصر أن ينتزع لأى حادثة تعرض حكما يلائم مصلحتها ، فقد فتحت الشريعة باب القياس ، وهو كما قررنا إلحاق

---

(١) ص ١٢

الأمور التى لم تطلع على نص عام أو نص مفصل يدل على حكمها، بالأمور التى تقررت لها أحكام بجامع العلل التى هى دائرة على اعتبار المصالح والمفاسد، ويسع هـــذا الباب من الوقائع المتجددة مالا يحيط به الاستقصاء.

أقامت الشريعة دعائم كلية. وينبنى على كل دعامة منها أصول وأحكام يستخرجها العارف بطبيعة النوازل، القائم بمقصد الشارع فى أمثالها، ومن هذه الدعائم قولهم ــ الضرر يزال ــ ومن مآخذها قوله عليه الصلاة والسلام: لاضرر ولاضرار: ومنها ــ المشقة تجلب التيسير ــ ومن دلائلها قوله تعالى «يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

ويدلنا دلالة جلية على اعتبار الشريعة للمصالح. أن المجتهدين الذين هم أعرف الناس بمقاصدها لا يقفون فى بعض الأحيان على ظواهر القرآن والحديث فيقيدون مطلقاتها، ويخصصون عمومياتها بمثل هذه القواعد، ومثال هذا، أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول ــ لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه ــ وهذا مطلق فقيده الامام مالك بما إذا وقعت بين الخاطب والمخطوبة مراكنة واتفاق على الصداق. وقال فى الموطأ: «وليس المراد إذا خطب الرجل المرأة فلم يوافقها أمره ولم تركن إليه، أن لا يخطبها أحد، فهذا باب فساد يدخل على الناس».

ويماثل هذا حديث الصحيحين، أن النبى صلى الله عليه وسلم، قضى باليمين على المدعى عليه فحمله الامام مالك وموافقوه على ما إذا كان بين المدعى والمدعى عليه خلطة حذرا من أن يتجرأ السفهاء على أهل الفضل ويبتذلوهم بتحليفهم فى اليوم الواحد مرارا، فانظروا كيف خص

الحديث بشرط الخلطة لكف ما يتوقع من الضرر على أهل الفضل ، حيث علم أن من مقاصد الشريعة سد الأبواب التى يطرق الفساد من ناحيتها .

وقد يتوقف الأئمة عن العمل بحديث الآحاد إذا ورد مناقضا لقاعدة انتزعوها من موارد لا تحصى حتى قطعوا بصحتها ، وقصد الشارع إلى إقامتها ، كما صنع الامام مالك وغيره فى حديث (المتبايعان بالخيار مالم يفترقا) فإنه نظر إلى أن افتراقهما وانفصال أحدهما عن الآخر ليس له وقت محدود .

ومن شواهد الاعتبار بالمصالح والمفاسد أن من الأشياء ما يكون فى نفسه خاليا من المفسدة ولكنه يقرب منها بحيث يجر بطبيعته إلى ما فيه المفسدة ، فتعاليم الاسلام تقتضى المنع منه ، كما تأذن فى الأعمال التى تكون عارية من المصلحة فى ذاتها إلا أنها تفضى بعادتها إلى الأعمال المقترنة بالمصالح ، ولهذه القاعدة المعروفة بسد الذرائع وفتحها فائدة عظيمة ومدخل فى مواقع السياسة بديع .

ومن وفاء الاسلام بحق المصالح أن جعل للعرف والعادة مكانة فى تفاصيل الأحكام فإن من الأحكام مايبنيه الشارع على رعاية حال مستمرة وسبب لاينقطع فيتعين العمل به فى كل زمان ومكان كالمنع من الربا ، ومنها مايبنيه على رعاية أحوال تتغير وعوائد تتجدد وهذا النوع من الأحكام لايلزم طرده فى كل عصر ولا إجراؤه بكل موطن بل يجرى العمل فيه على مايقتضيه العرف السائد بين الناس .

قال شهاب الدين القرافى فى قواعده: إن الأحكام تجرى مع العرف

والعادة وينتقل الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتى جموده على المنصوب فى الكتب غير ملتفت إلى تغير العرف فإن القاعدة المجمع عليها أن كل حكم مبنى على عادة إذا تغيرت العادة تغير الحكم ، والقول باختلاف الحكم عند تبدل الأحوال والعادات لايستلزم القول بتغيره فى أصل وضعه والخطاب به كما توهمه بعضهم، وإنما الأمر تدعو إليه الحاجة عند قوم أو فى عصر فيكون مصلحة وتتناوله دلائل الطلب فإن لم تقتضه عادتهم ولا تعلقت به مصلحتهم دخل تحت أصل من أصول الإباحة أو التحريم » .

والعلامة الخضر هنا يقرر حقائق يؤمن بها ويعلمها كل من فقه روح الإسلام وسر تشريعه ، فإن كل مشرع يجمد على المنصوب فى الكتب غير ملتفت إلى ظروف المكان والزمان هو مشرع قاتل لروح أمته ، مهدر للميزان الذى أنزله الله سبحانه مع كتابه .

لأن التشريع الحى هو الذى يدور مع الحياة واليسر والخير ، ويجانب الضيق والضرر والعسر ، ولايجمد على ألفاظ وأحكام ، بل يرقب علل الأمور ، وسيتشرف مصالح الفرد والجمهور .

هكذا كان تشريع المسلمين فى عهد الرسول وفى أيام الأئمة الراشدين وفى العصور المضيئة المتلألئة من تاريخهم الخالد .

لم تقف النصوص ، ولم يقف المأثور ساعة من زمان فى وجه مصلحة قائمة ، أو ضرورة طارئة ، أو حادثة مفاجئة ؛ لأن الأصل الأصيل والقاعدة التى تجب كل قاعدة ، هو خير الناس ، ودفع الأذى والشر عنهم .

أباح الرسول صلوات الله عليه لأصحابه فى عهـــده قراءة القرآن على سبعة أحرف ، اباحة الأصل فيهـا التيسير على العرب ، أصحاب اللهجات المختلفة .

فلما رأى عثمان ومعـه كبار الصحابة ، أن المسلمين وقد تفرقوا فى الأمصار ، وتباعدت بهم الأقطار ، وأن فى اختلاف القراءات ، ما قد يحدث بلبلة للناس ، ويفتح أبواباً للشر والفتنة ، جمع عثمان الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة ، وجمع مصحفه التاريخى المعروف ووزع نسخه فى سائر أرجاء العالم الاسلامى ، ومنع الناس من القراءة بغيره تمشيا مع المصالح المرسلة(١) .

ويروى الإمام مالك فى الموطأ (٢) أن ضوال الابل كانت تترك فى عهد عمر مرسلة تتناتج لايمسها أحد حتى يجدها صاحبها ، وذلك لحديث الرسول فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى قال : جاء رجـــل إلى رسول الله فسأله عن اللقطة . فقال : أعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة ، فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها . قال : فضالة الغنم ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فضالة الابل . قال : مالك ولهـا ! معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها » .

لكن الانسان متغير كما يقول الفلاسفة . والضمائر ترق بمرور الزمن ، إذ أن عثمان رأى الأيدى تمتـد إلى ضوال الابل فلا يصل بعضها إلى أصحابها ، فرأى أخذاً بالمصالح المرسلة أن يمنع التقاطها ، وعين راعياً

---

(١) الطرق الحـكمية ص ١٨ — ١٩

(٢) جـ ٢ ص ١٢٨

يجمعها ويعرفها فإن لم يجد صاحبها باعها وحفظ الثمن حتى يجيء .

لقد أخذ عثمان بالمصلحة العامة المرسلة التى لا دليل عليها من النص ، مع وجود نص يخالفها ، وذلك لتغير الناس(١) .

ولما ولى أبو بكر الخلافة وأسس بيت المال ساوى فى العطاء بين المسلمين جميعاً واحتجت طائفة من الصحابة على تلك السياسة قائلين للخليفة « كيف تجعل من ترك دياره وأمواله وهاجر فى سبيل الله كمن دخل فى الاسلام كرها » فقال أبو بكر : إنما أسلموا لله ، وأجورهم على الله ، وإنما الدنيا بلاغ .

فلما انتهى الأمر إلى عمر ، فرق بينهم ، وميز المهاجرين والانصار عن غيرهم فى أنصبة بيت المال .

فلما ولى على الخلافة ، رد الأمر على ما كان عليه فى عهد الصديق وساوى بين الناس جميعاً فى العطاء .

والمتأمل فى أسرار التشريع والتقنين يرى أن ظروف كل خليفة كانت تحتم عليه ما فعل ؟

فقد ولى أبو بكر أمر المسلمين ، والاسلام فى بدايته يحتاج إلى أن يؤلف بين قلوب الناس ، وأن يستهوى أفئدتهم إلى ساحته ، فساوى بينهم جميعا فى العطاء .

فلما ولى الفاروق وقد اعتز الاسلام ، واتسعت رقعته ، وتعاظم جنده وأقبلت الأمم والشعوب تتسابق على هديه ، رأى عمر أن المهاجرين والأنصار وهم الذين حملوا راية الاسلام ، وصبروا الصبر الجميل الكريم

---

(١) الفقه الإسلامي ص ٤١ — ٤٢ للدكتور محمد يوسف موسى .

على البأساء والضراء ، وبذلوا أموالهم فى سبيل الله . أن يجعل لهم ثمرة عما صنعت أيديهم ، فميزهم عن غيرهم فى العطاء .

فلما جاء على رضى الله عنه ، والدنيا تموج بالفتنة . والصيحة عالية ضد قريش وماتدعى لنفسها من حقوق . رأى أن السياسة الحكيمة أن يساوى بين الناس جميعاً فى أنصبة بيت المال .

فالمصالح المرسلة إذن باب من أبواب التشريع زاوله المسلمون الأولون وداروا به مع تطور حياتهم . ولاحقوا به الخطو الانسانى فى نموه وتعدد بيئاته وألوانه

ومن هذا الباب استطاع المشرعون فى شتى العصور أن يجدوا فى الشريعة لكل نازلة حكما . إن لم يكن هناك النص المحدد . أو تصرفوا فى النصوص على وجه الحق والعدل والمصلحة العامة .

يقول الامام الشاطبى[1] — إننا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد فأحكام المعاملات تدور معه حيثما دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لاتكون فيه مصلحة . فاذا كان مصلحة جاز » .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « علم أصول الفقه » . ومن استقراء آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال كالمواريث .

لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدى لا مجال للعقل فيه ولا يتطور بتطور البيئات . .

---

(١) الموافقات جـ١ ص ٣٠٥ .

وأما فيما عدا العبادات والأحوال الشخصية من الاحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية . فأحكامه فيها — على الاغلب — قواعد عامة ومبادىء أساسية . ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا فى النادر . لان هذه الاحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح .

فاقتصر القرآن فيها على القواعد العـــامة . والمبادىء الاساسية ليكون ولاة الامور فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم . وفى حدود أسس القرآن العامة من غير اصطدام بحكم جزئى » .

التشريع الإسلامى

يقوم على الاجتهاد

. . . . فاذا ثبت لدينا ، أن التشريع الاسلامى يدور مع الحياة ، ويمشى مع الخطو البشرى ، وأنه كائن حى دائم النماء ، يتسع ويتسع لكل ألوان الحياة ، لأنه تشريع خالد إرتضاه الله سبحانه لخلفائه على هذا الكوكب ، وامتن به على عباده ، ليكون قوام الحياة الفاضلة للانسانية كافة .

فإن تاج هذا التشريع ، تاجه المتلألىء فى جلال وسموق ، أن محوره الأكبر يرتكز على حرية العقل واجتهاداته ، فقد جاء بالكليات الكبرى ورسم الخطوط العليا ، وترك لأتباعه أن يجيلوا عقولهم فى تطبيق تلك الكليات ، وأن يفصلوا جزئياتها تبعا لمقتضيات حياتهم ، واختلاف بيئاتهم وأزمانهم ومصالحهم .

ومنذ اليوم الأول فهم المسلمون أن رسالة نبيهم تنطوى على دين.. وتشريع . .

أما الدين ، فهو العبادات التى أمر الله بها وافترضها على عباده ، وهى خالصة له جل جلاله ، ولا مجال للعقول فيها .

وأما التشريع فقد جاء أولا وقبل كل شىء لخير الناس وسعادتهم وتنظيم حياتهم وإقامة نهجها على أقوم السبل .

وما حرم الشىء أو أحل فى هذا التشريع إلا تبعا لما فيه من مصلحة للناس أو إضرار بهم . ؟

يقول الامام ابن تيمية[١]، وقد بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بدين وشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ووحيه ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهاد فى تفصيلها » .

ولقد علم القرآن المسلمين أن يجتهـــدوا ، وأن يستنبطوا ، وأن يسترشدوا بعلمائهم ومفكريهم ، يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم آياته «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

وهى دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد ، حتى فى حياة الرسول صلوات الله عليه ، وبين يديه .

ولذلك حدثنا التاريخ فأطال الحديث عن الصحابة الفقهاء الذين عرفوا بالاجتهاد فى الأحكام والأقضية فى عهد رسول الله .

وحدثنا التاريخ فأطال الحـديث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكيف كان يدرب أصحابه على القضايا والأحكام ويشجعهم على حرية التفكير ، وحرية الاجتهاد ، ويملأ قلوبهم ثقة وطمأنينة عند الخوف من الخطأ مع الاجتهاد ، فللمجتهد المصيب أجران ، وللمخطىء أجر[٢] (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما) .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ .

(٢) « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر » رواه أحمد وابو داود والترمزى ، مرسلا .

وروى الآمدى فى الأحكام(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال : جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله فقال لى : يا عمرو أقض بينهما ، فقلت : أنت أولى منى بذلك يا رسول الله ، قال : وإن كان ؟ قلت: على ماذا أقضى؟فقال : إن أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات وإن اجتهدت وأخطأت فلك حسنة » .

وعلى هذه الحرية المطلقة ، والسماحة المشرقة ، والاجتهاد الكريم الواسع الآفاق ، قامت حياة المسلمين منذ فجرهم الأول ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتهدون ويشجعهم الرسول على هذا الاجتهاد ويباركه .

وتشربت نفوسهم الحرة مبادىء الاسلام فكانوا يختلفون فى فهمهم للقضايا وفى فهمهم للاحداث ، ولكنه اختلاف الأحرار ، لا يعرفون لجاجة ، ولا خصومة ، ولا يتنابزون بالألقاب ، ولا يتراشقون بالتهم ولا يفكرون فى أن يحجروا رأيا ، أو يقيدوا فكراً .

روى الطبرى أن عمر بن الخطاب وهو خليفة ، لقى رجلا له قضية فسأله ما صنعت ؟ قال : قضى على وزيد بكذا ؟ قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا ؟ قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ، فأجابه عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة رسوله لفعلت، ولكنى أردك إلى رأى ، والرأى مشترك.

أى سماحة من أمير المؤمنين ، وأى فهم للحرية ، وأى تقديس لها.

---

(١) جـ ٤ ص ٢٣٦ .

روى ابن عبدالبر فى كتابه — جامع بيان العلم وفضله[١] عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « لا يصلى أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدركهم وقت العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، ولم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين . قال أبو عمر : هذه سبيل الاجتهاد على الوصول عند جماعة الفقهاء » .

ويصرح ابن القيم فى أعلام الموقعين بأن الرأى وجد بين الصحابة فى زمن النبى إذ يقول : « وقد اجتهد الصحابة فى زمن النبى فى كثير من الأحكام ولم يعنفهم ، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر فى بنى قريظة فاجتهد بعضهم وصلاها فى الطريق وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض فنظروا إلى المعنى، واجتهد آخرون وأخروها إلى بنى قريظة فصلوها ليلا ، نظروا إلى اللفظ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر وأولئك سلف أصحاب المعانى والقياس »[٢] .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق[٣] : « وسن الرسول لولاته فى الأمصار أن يجتهدوا ، وجاء القرآن نفسه بأحكام كلف بها المسلمين على أن يكون سبيلهم فى طاعتها الاسترشاد بالعقل ، فحدث الاجتهاد فى التشريع الاسلامى منذ عهد الإسلام الأول فى كنف القرآن بترخيص من الرسول عليه السلام » .

---

(١) ص ١٣٢ .

(٢) جـ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٢٢ .

. . . . وكانوا يرون أن أكبر نعم الله على عباده هو أن يؤتيهم فهما فى القرآن وفهما فى حديث رسول الله ، وفهما فى قضاياهم ، فهذا الفهم هو الحكمة التى ترددت فى لحن القرآن الكريم ، وهى أسمى ألوان القربى والطاعات .

جاء فى كتاب — أصول الفقه — لفخر الدين البزدوى عند الكلام على علم الفروع وهو الفقه « إن الله تعالى سمى علم الشريعة — حكمة — فقال : — يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

وقد فسر ابن عباس الحكمة فى القرآن ، بعلم الحلال والحرام وقال « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة » أى بالفقه والشريعة .

وبذلك جعل ابن عباس الشريعة فوق أنها أحكام ، فهى دعوة ورسالة ، تساير العقل وتطابق المنطق ، وتمشى مع الخير والمصلحة ، ولذلك كانت شريعة الله من دلائل النبوة ، ومن علامات الكمال ، بل هى سبيل إلى الهدى والإيمان ، ومحجة مضيئة يستهدفها الداعى إلى الخير والإيمان .

وعلى هذا الفهم المنير سار علماء الشريعة الإسلامية فى ضوء التاريخ أعزاء بتشريعهم ، فقهاء بأسراره ، تلوذ بهم الجماهير ، وتخضع لهم جميع رقاب الحاكمين .

يقول شمس الدين السرخسى فى كتابه — المبسوط — « وأما علم الفقه والشرائع فهو الخير الكثير والحكمة المذكورة فى قوله تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

---

(١) ج ١ ص ٢٨ — ٢٩ .

ويقول شارح تنوير الأبصار فى فقه الإمام الأعظم ، عن الفهم فى التشريع « وقد مدحه الله بتسميته خيراً كثيراً ، وقد فسر الحكمة زمرة أرباب التفسير ، بعلم الفروع الذى هو علم الفقه »(١) .

وفى تفسير الطبرى لهذه الآية « . . يعنى بذلك جل ثناؤه — يؤتى الأصابة فى القول والفعل والفهم من يشاء من عباده ، ومن يؤت الأصابة منهم فى ذلك فقد أوتى خيراً كثيراً » .

وفى كتاب العواصم من القواصم لأبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى « وليس للحكمة معنى إلا العلم ، ولا للعلم معنى إلا العقل ، إلا أن فى الحكمة إشارة إلى ثمرة العلم وفائدته ، ولفظ العلم مجرد عن دلالته على غير ذاته ، وثمرة العلم العمل بموجبه ، والتصرف بحكمة ، والجرى على مقتضاه فى جميع الأقوال والأفعال »(١) .

ويقول الإمام الشاطبى فى كتابه الاعتصام ، مفسراً لقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » فلم يبق للدين قاعدة يحتاج إليها فى الضرورات والحاجيات إلا وقد بينت غاية البيان ، نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولا إلى نظر المجتهد ، فإن قاعدة الاجتهاد أيضا ثابتة فى الكتاب والسنة ، فلابد من أعمالها ، ولا يسع تركها ، وإذا ثبتت فى الشريعة أشعرت بأن ثم مجالا للاجتهاد .

ثم يقول : « ولو كان المراد بالآية الكمال بحسب تحصيل الجزئيات

---

(١) جـ١ ص ٢٠٠ .

(٢) جـ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

بالفعل، فالجزئيات لانهاية لها فلا تنحصر برسوم وقد نص العلماء على هذا المعنى، فإنما المراد الكمال بحسب مايحتاج إليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها مالا نهاية له من النوازل » .

وفى الرسالة للامام الشافعى[1] « فجماع ماأبان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه .

١ — فمنها ما أبانه لخلقه نصا مثل جمل فرائضه فى أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما ، وأنه حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير مع غير ذلك مما بين نصا .

٢ — ومنها ما أحكم فرضه بكتابه ، وبين كيف هو على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتهما ، وغير ذلك من فرائضه التى أنزل فى كتابه .

٣ — ومنها ماسن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مما ليس لله عز وجل فيه نص حكم ، وقد فرض الله عز وجل فى كتابه طاعة رسوله والانتهاء إلى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فبفرض الله جل ثناؤه قبل .

٤ — ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد فى طلبه وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم »

والامام الشافعى هنا يقرر مبدءا خطيرا ، وهو أن الله سبحانه

---

(١) ص ٥ طبع الحسينى بك .

فرض على المسلمين الإجتهاد فريضة مقدسة يثيب الله عليها ويعاقب على تركها ، كما يثيب ويعاقب على باقى فرائضه .

ويقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق « .. — ١ — الاسلام يجمع بين الدين والشريعة أما الدين فقد أستوفاه الله كله فى كتابه الكريم ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للاجتهاد تفصيلها .

ثم يقول « — ٢ — إن الرأى بمعناه العام نشأ فى التشريع الاسلامى مع القرآن والسنة منذ عهد النبى وظل الرأى أصلا من أصول التشريع يستعمل كثرة وقلة . وضيقا وسعة على حسب الحاجة إليه بكثرة السنة المروية كما فى الحجاز وقلتها كما فى العراق » .

وبهذا الفهم الكامل لروح الاسلام ، وبهذا الاجتهاد المتصل فى يسر وسماحة وطلاقة ساير التشريع الاسلامى تطورات المسلمين من الجزيرة العربية إلى سهول الأرض وقمم جبالها أينما كانت الحياة ، واتسعت آفاقه للحياة المتحركة المتشابكة بمفاجآتها واحداثها .

فما أحس المسلمون يوما بقصور هذا التشريع وما احتاجوا لحظة من زمن والدنيا فى أيديهم إلى قوانين من غير شريعتهم ولا إلى مشرعين من غير فقائهم . بل كانوا مشرعين لأنفسهم وللانسانية كافة حتى ليقول العلامة ويلز فى كتابه ـ ملامح تاريخ الإنسانية — « ان أوربا مدينة للاسلام بالجانب الأكبر من قوانينا الادارية والتجارية » .

. ومشت الحياة بالمسلمين رخاء طيبة ، وحياتهم قوية عزيزة متطورة

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١١٣ .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٣٤ .

مع الخطو الانسانى السريع بفضل الامدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية الحرة التى كانت سمة العالم الاسلامى وطابعه المميز .

ثم جاء القرن الرابع الهجرى ، وفيه انحلت الخلافة العباسية وصاحب انحلالها تمزيق وحدة العالم الاسلامى وبزوغ حكومات أعجمية فارسية وتركية تقنع ولاتها — بالحق الالهى — للحاكمين ، حكومات إستبدادية لا تطيق حرية الفكر ، ولا حرية التشريع .

وصبت تلك الحكومات غضبتها الكبرى على الأحرار والمشرعين حتى توارى الأئمة واختفى رجال الفكر وبرز أفواج من الفقهاء المرتزقة مشوا فى ركاب الحاكمين وافتوا بأهوائهم ، وقامت دولة الفقهاء الجامدين الذين تنادوا بأن أبواب الاجتهاد قد أغلقت ، وأن الفقيه كل الفقيه هو من قلد إماما سابقا ، أو حفظ كتابا لمشرع قديم ، حتى ليقول صاحب جوهرة التوحيد « فواجب تقليد حبر منهم »

وبذلك وقف نمو التشريع فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ونشأ التضخم الهائل فى فقه العبادات حيث أطاق الحاكمون لاتباعهم من الفقهاء العنان ليفنوا حياتهم فى تفريعات لا تنتهى وافتراضات لا ضابط لها .

وانقلب الفقه الاسلامى العظيم إلى ملاحمات ومجادلات وتعصب أعمى للسابقين من أصحاب المذاهب الفقهية .

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته « ... أنتهى مد الفقه الاسلامى إلى جمود وجهل بأمور الحياة وسياسة العمران وأصبح التقليد هو

---

(١) الفقه الاسلامى للدكتور محمد يوسف موسى

التجارة الرائجة . ولم يبق للفقهاء ألا نقل الرواية عن أصحاب المذاهب الأربعة ، لا محصول اليوم للفقه إلا هذا .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى « لقد ذهبت تلك الروح العظيمة القوية التى كانت تسير أولئك الفقهاء الأعلام المستقلين فى تفكيرهم ، والذين بلغوا الذروة فى زمانهم ، هذه الروح التى جعلت أبا حنيفة يقول : ما جاءنا عن الصحابة فعلى الرأس والعين وما جاءنا من التابعين فهم رجال ونحن رجال ، بل التى جعلت مالك بن أنس يقول : ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله — ١ —

ونشأ من عجز الفقهاء وجمود المشرعين وجهلهم بسماحة التشريع الاسلامى ومرونته أن انفصل هذا التشريع العظيم عن واقع الحياة الاسلامية .

وبهذا الانفصال فقد العالم الاسلامى القوة الملهمة والروح الدافعة وبهذا الانفصال زحفت على المجتمعات الاسلامية العادات الجاهلية ، والتقاليد الوثنيـــة ، ووجد الحاكمون المستبدون فرصتهم الكبرى فأخذوا يدعمون سلطانهم بالقوانين والأنظمة الدكتاتورية الباطشة .

ومن ثم ، هوى العالم الإسلامى إلى الظلمات التى أحاط سرادقها بوجوده قرونا كان ختامها القارعة الكبرى التى عصفت بحريات العالم الإسلامى ووجوده ، كما عصفت بأنظمته وقوانينه ، قارعة الغزو الأوروبى .

لقد أستعبدنا الغربيون أرضاً وثقافة وتشريعاً ، لقد فرضوا علينا

---

(١) الفقة الاسلامى .

أنفسهم وفرضوا علينا قوانينهم لأن رجال التشريع الإسلامى عندنا فقدوا وجودهم .

إن علماء التشريع الإسلامى سعداء كل السعادة فقد أفتوا فتواهم الكبرى بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، وأغلق إلى الأبد وبذلك فليس للعالم الإسلامى أن يتطلع إلى مشرع مسلم ، يقدم له الزاد الروحى والزاد التشريعى ، لأن مشاكل اليوم لم يدل فيها السابقون بقول ، .. ؟

ومن عجب أن ينجم بين المسلمين ، أحرار الإنسانية كافة ، من يجهر بأن رسالة الإسلام قد وقف نموها فى القرن الرابع للهجرة فلا اجتهاد بعد هذا القرن أو كما قال الإمام القفال المتوفى سنة ٤١٧ « والخلق كالمتفقين على أنه لا مجتهد بعد اليوم » . . ؟ !!!

ولقد ثار على هذا الأفك أحرار من كبار مفكرى العالم الإسلامى وبق أن تستمر الثورة حتى ترتفع العصابة السوداء عن أعين العالم الإسلامى ليسير فى ضوء الحياة ، مجتهداً مبتكراً مشرعا كما أمره الله .

يقول العلامة المجاهد العز بن عبد السلام من علماء القرن السابع الهجرى « وقد اختلفوا متى انسد باب الاجتهاد على أقوال ما أنزل الله بها من سلطان ، قيل بعد مائتين من الهجرة ، وقيل بعد الشافعى ؟ وقيل بعد الاوزاعى وسفيان ، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم بحجة الله ينظر فى الكتاب والسنة ويأخذ الأحكام ، وأن لا يفتى أحد بما فيهما إلا بعد عرضه على قول مقلده ، فان وافقه حكم وأفتى وإلا رده ، وهذه أقوال فاسدة فإنه إن وقعت حادثة غير منصوص

عليها ، أو فيها خلاف بين السلف، فلابد فيها من الاجتهاد من كتاب أو سنة ومايقول سوى هذا إلا صاحب هذيان » .

ويقول الإمام الشوكانى ، وهو من علماء القرن الحادى عشر الهجرى « إن قول القائلين بخلو العصر من المجتهدين مما يقضى بالعجب لأنهم إن كانوا قالوا ذلك باعتبار أن الله رفع ماتفضل به على السابقين من كمال العقل وقوة الفهم ، فهذه دعوى على الله باطلة، وإن كانوا قالوا ذلك باعتبار أن السابقين تيسر لهم من العلم ووسائل الاجتهاد ما لم يتيسر لمن بعدهم فهذه دعوى تخالف الواقع ،فان العلم ووسائل الاجتهاد والبحث فى القرآن والسنة ومذاهب الأئمة أصبحت أيسر للمتأخرين» .

ويقول الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر : « إن باب الاجتهاد لم يغلق على أناس يفهمون لغة القرآن الصحيحة ويستطيعون أن يحكموا على مايجد من أمور مستحدثة فى ضروب التعامل والعلاقات الدولية . ويجب على أولى الأمر من المسلمين وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا حكم الإسلام فيها على الأسس والأصول الإسلامية » .

ولا جدال فى أن أكبر كارثة أصيب بها العالم الإسلامى هى تلك البدعة التى ابتدعها الفقهاء الجامدون حينما تنادوا بقفل باب الاجتهاد ، فقد ترتب على ذلك فقدان العالم الاسلامى لشخصيته التشريعية ، بل لقد أصبح العالم الاسلامى عالة فى قوانينه وأنظمته على القوانين والأنظمة التى ابتدعتها الأمم الحية المتوثبة .

لقد كان فقهاء العالم الإسلامى فى الماضى يفصلون أحكامهم على حاجات مجتمعاتهم ، وما تأتى به الأيام من أحداث وعلاقات ، وما

يصاحب الخطو البشرى من قضايا ، وما يلازم التطور الحضارى من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وعمرانية .

فلما جمد الفقه، وقبع الفقهاء داخل أضابير الماضى، أصبحت القضايا المستحدثة ، والمشاكل الناجمة ، والاحداث المتلاحقة ، فى حاجة ملحة إلى أنظمة وشرائع تتمشى مع واقعها . وتقوم بمشاكلها . أصبح هذ الفراغ الهائل فى حاجة إلى من يملؤن . ومن ثم وثبت النظم الاوربية . والتشريعات الاستعمارية إلى حياتنا ، منظمة وحاكمة وسيدة .

ولقد روى الأستاذ رشيد رضا . نقلا عن رفاعة باشا . ان اسماعيل استحضر والده رفاعة بك الطهطاوى وطلب منه أن يذهب إلى شيخ الأزهر وغيره من كبار العلماء ليقنعهم بالقيام باصلاح الفقه الاسلامى حتى يقدم حلولا وأنظمة صالحة للحياة المصرية فى ذلك الوقت . وقال له: إنك منهم ونشأت معهم فأنت أقدر على اقناعهم . فأخبرهم أن أوربا تضطرنى إذاهم لم يصلحوا الفقه الاسلامى بحيث يجارى التطورات المتعاقبة إلى الحكم بشريعة نابليون، فقال له رفاعة بك : إننى قد شخت ولم يطعن أحد فى دينى فلا تعرضنى لتكفير مشايخ الأزهر إياى فى آخر حياتى . وأقلنى من هذا الأمر ! !

وكانت نتيجة هذا اليأس من علماء الأزهر . قيام المحاكم الأهلية التى عملت بقانون نابليون . وكانت هذه أكبر نكبة أصيب بها الفقه الاسلامى ولاشك أن هذه النكبة يتحمل أكثر تبعاتها علماء الازهر[1] » .

ولا يمكن للتشريع الإسلامى أن يعود إلى سيادته . ولا يمكنه أن

---

(١) المجددون فى الاسلام ص ٤٤٩ للاستاذ عبدالمتعال الصعيدى .

يقوم بواجباته حيال الامم الاسلامية إلا إذا فتحنا أبواب الاجتهاد التى أمر الله أن تفتح . وأجلنا عقولنا فى الكليات الاسلامية العامة . واستنبطنا منها على ضوء القواعدالاسلامية المقررة . قواعد القياس . وسد الذرائع والمصالح المرسلة . أنظمة حية متحركة . تلائم حياتنا . وتنهض بمجتمعاتنا وتقـــدم حلولا عملية لمشاكلنا فى السياسة . والاقتصاد . والاجتماع .

لقد حدثت فى العصور الأخيرة وثبات للانسانية ، فاستحدثت أنواعا من الشركات ، وأنماطامن العقود والتأمينات، ونشأت أساليب فى الاجتماع، ونظم فى الحكم ، وبرزت مبادىء إقتصاديه لها رنين وبريق ، وكل هـذا لم يعالجه الفقه الاسلامى القديم لأنه لم يعاصره ولم يعش معه ولم يتحاكم إليه .

مبادىء ونظم وأساليب فى حاجة إلى أن يتناولها المشرع الاسلامى ويحاكمها إلى تشريعه . ويقدم فيها رأيا . أو ينشىء من المبادىء والنظم والاساليب ما يفضلها أو يسامقها من قرآنه ، ومن أحاديث نبيه ، ومن اجتهاد أئمته ، ثروة تشريعية هائلة لا يملكها سواه ، ثروة تتضاءل حيالها كل الثروات التشريعية العالمية .

ولقد أصبح من سقط القول ، بل من أحاديث الجاهلية ، تلك الصيحة الضالة المضلة ، التى قرعت أسماعنا مع خطو الاستعمار ، بأن شريعة الله شريعة بدائيـة مضى عهدها ، فلم تعد أهلا للحياة فى عصر النور والمتفجرات .

يقول السيد رشيد رضا[1] إن الشريعة الإسلامية بما تقرر فيها من

---

(١) الجزء السادس من تفسير المنار — مذاهب التفسير لجولدتسهير ص ٣٥٧ .

قاعدتى الاجتهاد ورعاية الأصلح ، كانت من الشرائع التى توافق كل زمان ومكان ، وتجيز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وإن خالف النص ، مع اعتبار هذه القاعدة شرعا أيضا ، خلافا لما يتقوله عليها المتقولون من أنها شريعة ضيقة توافق زمانا غير زمننا هذا ومكانا غير مكان الأمم الراقية لهذا العهد .

ومنشأ قولهم هـــذا ، الجهل بحقيقة الشريعة الإسلامية ، وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها ، يساعدهم على ذلك مايرونه من تعصب بعض علماء الشريعة المقلدين لما جاء فى كتب الفروع دون الأصول ، وردهم لكل مالم يرد فيها من أسباب التيسير ، وإن ورد فى أصول الشريعة وكلياتها ، على أن فى كتب الفروع من الأحكام التى لا تستند إلى دليل قطعى مالا يعد ، ومبناها الاجتهاد أو الرأى والقياس ومع هـــذا فإنهم يفضلون العمل بهذه الأحكام على الرجوع إلى أصل الشريعة ، مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والأمة » .

أجل لقد ضيق الفقهاء شريعة الله ، تلك الشريعة التى اعتبرها الإمام الأعظم أبو حنيفة معجزة الرسول الكبرى ، ونعمة الله العظمى على عباده ، واعتبرها الفخر الرازى تفسيراً للآية الكريمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

تلك الرحمة الإلهية يجب أن تعود إلينا ويجب أن نعود إليها بل يجب أن نقدمها للانسانية زاداً ونوراً وإلهاما ونجاة من هول ما تضطرب فيه دنيانا اليوم .

يقول المشرع العلامة الدكتور السنهورى فى الكلمة الافتتاحية

لكتاب النظرية العامة للالتزامات[١] .

« فإذا قدر لنا أن نستقل بفقهنا ، وأن نفرغه فى جو مصرى يشب فيه على قدم مصرية ، بقى علينا أن نخطو الخطوة الأخيرة فنخرج من الدائرة القومية إلى الدائرة العالمية ، ونؤدى قسطاً مما تفرضه علينا الانسانية ، ضريبة فى سبيل تقدم الفقه العالمي أو ما أصطلح الفقهاء على تسميته بالقانون المقارن ، ومن أهم الوسائل فى الوصول إلى ذلك ، العناية بالشريعة الإسلامية ، شريعة الشرق ووحى إلهامة ، وعصارة أذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه ، وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ، ومشكاة من نور الإســـلام يلتقى عندها الشرق والإسلام ، فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى فى هذا روح ذاك حتى يمتزجا ويصيرا شيئا واحــداً ، هذه هى الشريعة الاسلامية ، لو وطئت أكنافها ، وعبدت سبلها ، لكان لنا فى هذا التراث الجليل ماينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا ، وفى تشريعنا ، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد ، فنضىء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية فى القانون » .

---

(١) الجزء الأول فى نظرية العقد ص (و)

الشريعة الاسلامية والقوانين العالمية

يقول الدكتور السنهورى فى مذكرة تنقيح القانون المدنى المصرى « . . . فالشريعة الإسلامية تعد فى نظر المنصفين من أرقى النظم القانونية فى العالم ، وهى تصلح لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن، ولا نعرف فى تاريخ القانون نظاما قانونيا قام على دعائم ثابتة من المنطق القانونى الدقيق ما يضاهى الشريعة الاسلامية . فإذا كان لنا هذا التراث العظيم ، فكيف جاز لنا أن نفرط فيه ؟ »

تلك كلمة صادقة مشرقة ، لحجة من حجج القانون الدولى ، وعلم من أعلام التشريع العالمى ، وقد يعجب لهذا اليقين المبين ، كثير من المسلمين ، الذين بهرتهم الحضارة الأوربية ، وحبست تفكيرهم فى نطاقها حتى نسوا شريعتهم وتراثهم الخالد . بل قد يتشكك فى هذا القول ، جمهور كبير من المثقفين الذين غمرتهم أمواج متلاحقة متعاقبة من الفنون والعلوم والآداب والعادات والثقافات الأوربية حتى فقدوا ذاتيتهم ، الإسلامية ، فعاشوا بذاتية أوربية فلا يسمعون إلا جرسها ، ولا يتعبدون إلا بفنونها ، ولا يكبرون إلا مثلها ولا يؤمنون إلا بحضارتها وقانونها ، فلم يتصورا أبدا ، ولم يمر بخاطرهم يوما أن هناك أنظمة إسلامية ، وقوانين وتشريعات قرآنية ، تسامق هذه القوانين الأدبية ، بل وتفضلها ، بما فيها من إجلال للروح ، واكبار للاخلاق ، وما تشتمل عليه من نور وهدى ، ورحمة للعالمين .

قوانين هى عقيدتنا وتراثنا ، ودليل عزتنا وقوتنا ، وعلامة إستقلالنا ورشدنا ، وسبيلنا إلى القوة والبأس والشخصية والمكانة العالمية

إن الذين بهرت الحضارة الأوربية أعينهم ، وتملكت أسماعهم

وقلوبهم ، فلم يبصروا أن ثمة حضارة سوى هذه الحضارة الأوربية ، ذات البأس الغضوب والصليل الهائل ، يخادعون أنفسهم ، ويخادعون الحق ، ويسجلون على عقولهم طفولة ساذجة .

إن شريعتنا وجه حضارى قائم بذاته ، وفلك ثقافى له خصائصه وسماته ، فاذا اختلفت مع النظم الأوربية ، وتعارضت مع مثلها وروحها ، فليس هذا ببرهان على نقص ذاتى فيها ، أو حجة تخف بها موازينها ، كما يتشدق عشاق الغرب وتلاميذه .

إن الخفة والنقص فى هـذه العقول التى تحاكم كل شىء إلى مثل الحضارة الأوربية . وأساليبها ، وتجعل الموازين القسط ، دساتيرها ونظمها ، مؤمنة الايمان كله بأن هذه الحضارة ، هى الرمز الأعلى ، والكلمة الأخيرة ، وأن كل حرف فى قاموسها حق لا يأتيه باطل ، ونور لا يمسسه ظلام . تفترض هذا وتقرره ، وترتجل الأحكام والنتائج على ضوئه ، وهى أجهل ما تكون بالاسلام ، عقيدة ، ونظاما ، وتشريعا .

إن شريعتنا ، حضارة قائمة بذاتها ، حضارة تلتقى فيهـا الأديان السماوية كافة ، فيها صحف ابراهيم ، وتوراة موسى ، وانجيل عيسى ، وآيات الذكر الحكيم ، شريعة تضيئها مشاعل الانبياء جميعا ، وتتجلى فيها هداية الله وتوفيقه .

شريعة فى اجلالها وتطبيقها ، اجلال لكل شرع سماوى ، وتطبيق لكل خير إلهى . شريعة يمتزج فيها القانون بالأخلاق ، والتشريع بالايمان ، والتقنين بالوجدان ، وتمشى مع العرف والعادة ، والزمان والمكان ، والصالح العام لبنى الانسان . هذه الشريعة ، يجب أن تمشى إلى حياتنا وقلوبنا وعقولنا ، حتى نعيد الإيمان إلى الدنيا ، فتشرق الأرض بنور ربها ، وتعود الموازين القسط ، إلى جلالها وسيادتها .

ونحن بذلك ، نخرج أنفسنا من عنق الزجاجة الذى تحجرت فيه حياتنا قرونا إلى الفضاء الرحب المشرق ، الذى يتطلع إلينا ، ويرقب دورنا ، أو كما قال سفير الجيش الاسلامى زهرة الثقفى ، إلى قواد فارس .

« جئنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله ».

لقد فشلت القوانين المادية فى إسعاد العالم ، وفى إلباسه أثواب الطمأنينة والراحة ، وفى أحضان هـذه القوانين ، شاهدنا الافلاس الروحى . والتحلل الخلقى ، والانهيار الاقتصادى والإلحاد الفكرى ، وتحت ظلالها شقينا بالحروب الطبقية ، والاستعمار والاسترقاق ، وصيحة الشيطان المدوية فى كل بقعة وزاوية من بقاع هذا الكوكب .

إن التشريعات والنظم والدساتير الأوربية القائمة اليوم ترجع أصولها إما إلى القانون الرومانى الذى ترعرع فى أحضان الوثنية ، أو إلى الثورة الفرنسية التى شبت فى كنف الجوع والظمأ ، والانتقام والأحقاد الطبقية الهوجاء . ومن هذا المزيج الغريب الذى التقت فيه الوثنية المادية ، بروح الحقد والانتقام الثورية ، انبثقت الأنظمة والمثل ، التى كونت الثقافات القانونية والدستورية ، والاجتماعية والاقتصادية لأوربا .

ولهذا انتفت من هـذه التشريعات الجوانب الخلقية ، والمثاليات الأدبية والأنوار الايمانية ، وكل ما يمت إلى الوجدان والضمير بنسب أو سبب . يقول (سبنسر) « . . . بعـد الثورة الفرنسية أخذ المشرعون الأوربيون فى تجريد القوانين من كل ما له مساس بالدين والأخلاق ، والفضائل الانسانية فاقتصرت رسالة القانون ، على تنظيم علاقات الأفراد الماديه ، وما يمس الأمن ، ونظام الحكم .

وقد أدى انعدام العنصر الخلقى فى القوانين ، وسيادة المذاهب النفعية والمادية إلى إفساد الارض ، وإباحة جنسية بشعة ، واستهتار مجنون بالقيم والمثاليات .

وعندما عجزت هذه القوانين والأنظمة والدساتير ، عن إرضاء الانسان وإسعاده ، وتنظيم شئونه وحياته ،وملء الفراغ الهائل الذى يحسه فى ضميره ووجدانه ، ماجت أوربا بالثورات والانقلابات والحروب ، والمذاهب الجديدة التى أرادت أن تنظم الحياة تنظيما أدق وأكمل . فزادت الحياة تعقيدا والتواء وقسوة واغراقا فى الشهوات والماديات والحروب .

من هذه الروح القلقة العاجزة الفاشلة ، انبعثت البربرية النازية بكل ما فيها من سطوة وجبروت ، ونقمة على الروح والأخلاق ، وانبعثت الجاهلية الفاشستية ، بكل ماتحويه من عبادة للفرد ، وتعصب للجنس ، وردة إلى الوثنية الرومانية الأولى ، وقامت الوثنية الشيوعية ، تملأ الدنيا سخرية من الأديان ، وتهكما بالإيمان ، وعبادة للشهوات ، واشعالا للخصومات ، وتلطخ وجه الحياة بصرخات الجسد الحيوانى الثائر المدمر .

وبذلك ازداد الروح الأوربى جموحا والحادا ومروقا ، وازداد العالم بؤسا وشقاء وحروبا .

* * *

ولقد ازدحم فضاء الدنيا بالدعايات الكاذبة ، ضد الاسلام وتشريعاته ونظمه ، دعايات قام بها الاستعمار ، كسلاح حاسم فعال فى قتل الروح الاسلامية ، وتمزيق مايحوطها من اكبار واجلال فى نفوس ابنائها .

وكسلاح حاسم فعال فى فرض سيادته ، الفكرية ، والثقافية ،

والقانونية والدستورية على الأمم الاسلامية ، وبذلك يحال بينها وبين دينها ، وهو مركز الثقل فى قوتها ، ومناط الأمل لعزتها ، والعنصر الفعال الحى فى مقاومتها للغزو الزاحف .

ومع كل هذا الدعايات الملونة البراقة ، استطاع هـذا الدين ، واستطاعت أنظمته أن ترسل شعاعاها وهناك ـ رغم الستار الحديدى المضروب عليها ـ شعاعا استطاع أن ينتزع صيحات التقدير الممزوجة بالذهول الحاد ، من ألد أعدائه وخصومه .

ولقد أصيبت المجتمعات الأوربية بدهشة رهيبة ، يوم عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى ، للقانون المقارن مؤتمرا فى عام ١٩٥١ م للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم ـ اسبوع الفقه الاسلامى ـ ودعت إليه عددا من المستشرقين ، وأساتذة القانون فى الدول الغربية والاسلامية ، وقد حاضر الأعضاء فى خمسة موضوعات فقهية ، حددها مكتب المجمع الدولى للقانون المقارن وهى : ـ

١ ـ إثبات الملكية . ٢ ـ المسئولية الجنائية .
٣ ـ الاستمساك للمصلحة العامة .
٤ ـ تأثير المذاهب الاجتماعية بعضها فى بعض .
٥ ـ نظرية الربا فى الاسلام .

وخلال المحاضرات وقف نقيب المحامين فى باريس فقال : « أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى ، وعدم صلاحيته ، كأساس للتشريع ، بنى بحاجيات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتها ، مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء » .

كما وقف غيره من رجال القانون الفرنسى ، ورجال الاستشراق وأشادوا بالفقه الاسلامى ، وأنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة .

وفى ختام المؤتمر ، وضع المؤتمرون بالاجماع القرار الآتى .

« ... نظراً لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التى أتاحتها المباحث التى عرضت فى خلال أسبوع الفقه الاسلامى ، وما دار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لامرية فى نفعها ، وأن اختلاف المبادىء فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية ، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة ، فإن أعضاء المؤتمر يعلنون رغبتهم فى أن يظل أسبوع الفقة الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة ... »

لقد أعلن رجال المؤتمر ، وهم أئمة التشريع العالمى ، وصفوة رجاله هذه الوثيقة التى تشع تقديراً واكباراً للتشريع الإسلامى الذى يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة المتطورة ، ورغبوا فى أن يظل أسبوع الفقه الإسلامى يتابع أعماله سنة فسنة . ليقدم إلى الإنسانية تلك الثروة الفذة من الأنظمة الدستورية والتشريعية والاقتصادية .

أعلن المؤتمرون هذه الوثيقة من جامعة باريس لا من الجامعة الأزهرية . . ؟ ولكن دوائر الاستعمار العالمى ذات البأس والسطوة ، أفزعتها الحقيقة المدوية وخشيت أن ينبه العالم الإسلامى إلى قوته ، وأن يعود الروح الإسلامى ، ممثلا فى هذه الأنظمة ، فيستيقظ العملاق الرهيب من رقدته ، ويفلت من سادته ، ليمسك بزمام العالم من جديد أجل فزع الاستعمار واضطرب ، فلجأ إلى أسلحته ليحول بها بين

هذه الدراسات والنور ، ومن ثم ، مات أسبوع الفقه الاسلامى ، ولم ينعقد مرة ثانية ولم تفكر القاهرة ، أو بغداد ، أوكراتشى ، أودمشق ، فى أن تحل محل باريس ؟!!؟

* * *

إن تفوق التشريع الاسلامى على النظم العالمية لم يعد مسألة من المسائل الوجدانية الحماسية ، التى يلجأ إليها المسلم فى ثورة من ثورات العاطفة ، بل غدت حقيقة علمية مقررة لدى رجال القانون والفقه الدولى ، حقيقة يساندها البرهان والمنطق والمقارنة الحية .

يقول الدكتور على بدوى عميد كلية الحقوق السابق (١) بعد مقارنة بين الشريعتين الاسلامية والرومانية ، وهى المصدر الأول لكل تشريع أوربى ، « إن القانون الرومانى يقوم على الشكلية التى تتطلب اجراءات رسمية ، وطقوساً معينة ، هى المحـــور فى جميع نظمه ، على حين أن الشريعة الاسـلامية ، تقوم على التجرد من الشكليات ، والبساطة فى التعامل ، ونية الفريقين فى التعاقد ، وعلى روح العدالة الفطرية بين الناس » ثم يقول : « ... وكذلك فى ناحية القانون الجنائى يتبين لنا استقلال التشريع الجنائى ، فى الفقه الاسلامى ، بل وتفوقه أيضاً على غيره من التشريعات القديمة والحديثة ، وذلك فى مواضع عدة ، ومنها .

(ا) نظام الحسبة ، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث .

(ب) نظام العقاب بالتعزير ، وهو أن يترك تحديد العقوبة ـــ نوعاً

---

(١) مجلة القانون والاقتصاد ، العدد الخامس من السنة الأولى .

ومقداراً — إلى القاضى ، فيحكم بما يراه تبعاً لما يظهر له ، من ظروف كل جريمة ، وحالة المجرم ونفسيته ، ودرجة ميله إلى الاجرام وهو نظام يمتاز به الفقه الاسلامى وحده ، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث ، حتى تكون العقوبة محققة للغاية من تشريعها

وبذلك يتحتم القول بان الشريعة الاسلامية تشمل من مبادىء العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق وتهذيب الفكرة عن أحدث المبادىء والنظم الوضعية ، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبة الرومانية »

ويقول الدكتور توفيق شحاته [1] « وإذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظم القانونية ، وجدنا التشريع الاسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير المبادىء العظيمة « ومنها مبدأ انتقال الملكية لمجرد الاتفاق ، ومبدأ سلطان الإدارة ، ومبدأ النيابة التعاقدية »

ويقول الدكتوران السنهورى . وحشمت [2] « ... لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها ، الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى ، فإن هذا القانون بدأ عادات كما قدمنا . ونما وازدهر من طريق الدعوى والاجراءات الشكلية ، أما الشريعه الاسلامية ، فقد بدأت كتاباً منزلا ، ووحياً من عند الله ، ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطق ، والأحكام الموضوعية ، إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا فقهاء الرومان ، بل امتازوا على فقهاء العالم باستخلاصهم أصولا ومبادىء عامة من نوع آخر ، هى أصول استنباط الأحكام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه »

---

(١) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة . الجزء الأول . ص ٢٠١

(٢) أصول القانون ص ١٣٢ .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى[1] « . . . إن القوانين الأوربية تنظر إلى الفرد باعتباره وحدة ، وباعتباره العنصر الأهم فى الحياة ، لا باعتباره جزءا من المجموعة ، وقد ترتب على شيوع هذه الفردية المطلقة التصرف ، أن أنهار العرف والخلق تحت وطأة الجموح الفردى ، وسر روح هذه القوانين ، أن الثورة الفرنسية وهى التى قام على أساسها القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م كان هدفها تحرير الفرد ، مما كان ينوء به من قيود وأثقال فى السياسة والقانون والحرية ، فجاءت الثورة لتقدس الحق الفردى ، وبذلك حطمت روح التعاون الاجتماعى وأثرت هذه الروح فى القوانين الأوربية كافة .

اما الشريعة الاسلامية ، فقد منحت الحرية الفردية ، ثم قيدتها بمصالح الجماعة » ثم يقول « . . فلكل نظام غاية يهدف لها ، فالقانون الوضعى غايته إستقرار المجتمع الذى وضع له هذا القانون بتنظيمه وبيان حقوق وواجبات كل فرد فيما يختص بعضهم ببعض ، وهى غاية نفعية محددة فالقانون مثلا يقضى بسقوط الحق بالتقادم ، كما يقضى لمن يضع يده على عقار لمدة خمس عشرة سنة بملكيته لهذا العقار ، حتى ولو كان غاصبا ، مجاوزا ما تقضى به قواعد الأخلاق فى هذا الخصوص .

وبذلك يبعد القانون عن قواعد الدين والأخلاق أما التشريع الاسلامى فشىء آخر ، فهو يرعى الفرد ، والمجتمع ، والانسانية عامة ، فالمصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة ، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، كما يقرر الامام الشاطبى .

فالتشريع الاسلامى وحدة منسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا ، يصدر

---

(١) الفقه الاسلامى ٨١ .

عن روح عامة ، واعية فاهمة ، فالاسلام يحرم المقامرة ، فترى هذه الروح سائرة ، فيحرم بيع ـــ الغرر ـــ وذلك كبيع الطير فى الهواء، والسمك فى الماء ، قبل صيده ، وبيع ما سينتج من الخضر ، أو الزرع من هذه الأرض أو الحيوان الضال ، كل ذلك نهى عنه الشارع لأن فيه مخاطرة أو مقامرة من البائع والمشترى على السواء »

ويقول الدكتور عبد الفتاح عبد الباقى[1] « . . . إن الجرائم فى القوانين يصحبها الجزاء إلا أن هذا الجزاء يكون دنيويا دائماً ، لأن واضع القانون لا يملك طبعا من أمر الآخرة شيئا ، ومن ثم لا جناح على من يستطيع الإفلات من هذا الجزاء » .

ويعقب الدكتور محمد يوسف موسى[2] فيقول « . . أما القانون السماوى وهو فى أسمى صوره الفقه الإسلامى فعلى غير ذلك فيما يختص بالجزاء أنه يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الدار الآخرة أيضا ، والجزاء الأخروى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى ، ومن أجل ذلك يحس المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل بأحكامه ، وإتباع أوامره ونواهيه ولو أمكنه التفلت من الجزاء فى هذه الحياة الدنيا ، وليس كهذا باعثا على أتباع التشريعات التى تستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتشريع الذى يستند إلى الدين هكذا ، يقصد صلاح الفرد والمجتمع وهذه غاية نفعية بلا ريب ، بيد أنه يريد بناء مجتمع مثالى نقى مما ينافى الدين والأخلاق ، ولذلك لا يمكن أن يقر شيئا ينافى شيئا منهما ، كما أنه لا يقصد فقط إلى بناء مجتمع سليم

---

(١) نظرية القانون ص ١٦ ـــ ١٧

(٢) الفقه الاسلامى ص ٦٩

جل إلى سعادة الفرد والمجتمع والبشرية كلها فى هـذه الدار وفى الدار الأخرى أيضا ، كما يهدف إلى إحسان قيام الانسان بواجبه نحو نفسه وأخوانه فى الانسانية ، ونحو الله تعالى بعبادته حق عبادته . . » .

* * *

ولا جدال فى أن التشريع الاسلامى لارتباطه بعقيدة سماوية يمتاز بأنه وحدة متسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا ، وحدة تهدف إلى غايات خلقية أو مصالح عامة ، تتسق مع عقيدته ورسالته . فالشريعة الاسلامية تجعل للعنصر الخلقى والجانب الروحى نصيبا فى كل نص تشريعى .

ولذلك جاءت تشريعاته معللة دائما بمكارم الأخلاق ، ومصالح جميع المسلمين والعباد .

والمتتبع للأحاديث النبوية المتعلقة بالتشريع ، يرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان دائما يتبعها بالعلة الموجبة لها .

يقول صلوات الله عليه « لايجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها ، إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

ونهى صلوات الله عليه عن إدخار لحوم الأضاحى ثم أباحها قائلا : « إنما نهيتكم عن إدخار لحوم الأضاحى لأجل ــ الدافة ــ ألا فادخروها »

والدافة جموع وفدت على المدينة فى أيام عيد الأضحى فرأى رسول الله أن يوسع المسلمون على ضيوفهم فحرم عليهم إدخار لحوم الأضاحى فلما أنصرفوا أباح لهم إدخارها .

وقال : لمن حلف على شىء ورأى غيره خيراً منه : « أحنث فى يمينك وافعل الذى هو خير ثم كفر عن يمينك » .

ولمـــا نهى عن بيع الثمر قبل أن يبدو نضجه ، علل نهيه بقوله عليه السلام : « أرأيت إذا منع الله الثمرة ، بما يأخذ أحدكم ماله » .

ولما حرم الاسلام الخمر والميسر ، ووصفهما بأنهما رجس، أردف موضحا بيان السر فى التحريم ، وهو أن الشيطان يريد أن يلقى بين الناس العداوة والبغضاء ، وهل يوقع الناس فى العداوة والبغضاء شيء أكبر من الخمر والميسر !! ؟

وحرم الزنا ، لأنه اعتداء على الاعراض ، واختلاط للانساب وتمزيق للأسر ، وإهدار لكرامة المجتمع .

وحرم الربا ، لأنه يمنع الفضل بين الناس ، ويبذر بذور الحقد الغضوب فى المعاملات .

وهكذا نلمس دائما الروح الكامن وراء كل تشريع ، روحا خلقيا نبيلا مدفعا ، يرمى إلى إقامة مجتمع نقى سليم طهور ، لا يعرف الشقاق ولا الاحقاد والتنابز بالألقاب .

إنه ليصوغ من المسلم قوة مثالية مهذبة أسمى ما يكون التهذيب ، متحابة أجمل ما يكون الحب ، متعاونة أوثق ما يكون التعاون .

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » .

« . . أن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين » .

« ولا خير فى كثير من نجواهم ألا من أمر بصدقة أو معروف أو أصلاح بين الناس » .

«...لاتحسسوا ولاتحاسدوا ولاتباغضوا وكونواعبادالله اخوانا».

« . . لايتناجى اثنان دون ثالث . . » .

« الله فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه » .

« لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .

« من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

« أيما أهل عرصة أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

يقول العلامة محمد الخضر حسين « . . . وتمتاز السماوية ، بأن معاملات الناس على طرائقها ، وتصرفهم على مقتضى حدودها من قبيل العمل برضا واجب الوجود ، بخلاف الوضعية فان الداخل تحت سلطانها إنما يكون سائراً بحسب إرادة بشر يماثله ، ولهذا لايمكنها أن تأخذ من إحترامات القلوب الموضع الذى تأخذه الشريعة .

وتمتاز السماوية بأنها تعززقوانينها بسلطة غيبية فتهدد المخالف بعقوبة آجلة ، أو بلاء ينزل به القدر فى هذه العاجلة ، وتبشر الطائع بنعيم خالد أوعيش طيب فى هذه الحياة ، ولايختص ذلك الانذار والبشارة بما هو حق لله خالص كالعبادات ، بل ورد أيضاً فى الاحكام الموضوعة لمصالح الخلق فى الدنيا ، وهذه السلطة المحتجبة هى التى تدعو النفس الزكية إلى احترام قانونها ولو فى المواضع التى لاتنالها يد السلطة الظاهرة .

وتمتاز السماوية بأنها توجب على الفرد اصلاح عمله ، وتنهاه عما يضر بشخصه ، وإن لم يسر منه الضرر إلى غيره ، فحجرت على الانسان أن يلقى بعضو من جسده فى تلف ، أو يرمى بقسط من ماله فى سرف ، والقوانين

الوضعية تقول : لايجب استعمال القانون بين الناس إلا لمنعهم من إيذاء بعضهم لبعض ، ولهذا عرفوا القانون بما يوضع للحكم بين الرعايا .

والسماوية تكلف الانسان برفع الضرر عن غيره وحمايته منه ، وقد تلقى عليه التبعة إذا إستطاع السبيل إلى خلاصه من أذى أو وقايته من خطر ، فمسك يده عن مساعدته ، وأعرض بجانبه متهاونا ولم تنظر القوانين الوضعية إلى هذا المطلب(١) .

يقول الدكتور « ايزيكو انسابانو » : إن الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الاوربية ، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا

ويقول العلامة الاستاذ « شبرل » عميد كلية الحقوق بجامعة ڤينا — فى مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ م « إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد — صلى الله عليه وسلم — اليها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون نحن الاوربيين أسعدما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد الفى سنة (٢)

* * *

وأخيراً نردد مع الدكتور السنهورى « . . . إن الاستقلال لايكمل إلا باستقلال التشريع . فالقانون هو أساس النظم التى يقوم عليها بناء الامة ، وليس من الرشد أن تقيم أمة نظمها على أساس مستعار من أمة أخرى ، وهو مع هذا لايتفق ودينها وماضيها وتقاليدها .

---

(١) مدارك الشريعة الاسلامية وسياستها ص ٦ — ٧

(٢) فقه الاسلام ص ٤٠٩ للاستاذ حسن الخطيب

النظام الاقتصادى الاسلامى

الصراع العالمى الذى يضطرم اليوم داخليا بين الطبقات ، ويثور خارجيا ملتهبا بين أكبر معسكرين شهدهما التاريخ ، إنما يرتكز ويستمد الحيوية والطاقة والحرارة من اختلاف الفلسفة الاقتصادية للنظم السائدة هنا وهناك .

والحوار والجدل بين الأفراد والجماعات ، والحوار والجدل بين الشعوب والأمم ، إنما يدور محوره أول مايدور ، حول التفاضل بين الألوان المختلفة للمذاهب الاقتصادية التى تحكم العالم ، وتهيمن على مقدرات أفراده وجماعاته .

ولعل أعظم كارثة أصيب بها العالم الاسلامى ، هى فناء روحه فى هذا الصراع وفقدانه لذاتيته فى هذا المعترك ، وخضوع تفكيره وحياته لمذاهب وفلسفات تضاد الروح الأصيلة لعقيدته وفكرته العامة عن رسالة الانسان ، وأهداف الحياة .

ولقد خدعتنا الحضارة الأوربية ببريقها وضجيجها وبأسها الغضوب حتى أنستنا أنفسنا وأنستنا ذاتيتنا ، فرضينا بأن نكون من الأذناب ، الذين يعيشون عالة على ما تفكر ، وعلى ما تؤمن ، وعلى ما ترسم من برامج ومناهج ، أيا كان لونها وصبغتها .

لقد نسينا فى وهج البريق ، والبأس الشديد ، أننا نمثل فى هذا الكوكب الأرضى ، القوة الربانية الإيمانية ، وأن من خصائص هذه القوة الربانية الإيمانية أنها لا تذوب فى غيرها من مذاهب الجاهلية ومناهجها ، وأن من خصائص هذه القوة أيضا ، أن كل شىء فى حياتها

يجب أن يتلون بألوان عقيدتها وان يسموسمو إيمانها ، وأن يخضع لمثلها الخلقية الصاعدة ، التى تحرص أول ماتحرص على تكوين مجتمع سليم ، من الحقد والتطاحن ، والصراع الطبقى ، مجتمع تتجلى فيه الرحمة ، وتسوده المحبة ، ويقوده التعاون ، ويرفرف عليه الاطمئنان والسلام .

نسى المسلمون كل هذا ، فأخذوا فى محافلهم وصحفهم يتخاصمون ويتجادلون لحساب قوانين أمم أخرى ، قد يكون فى تصوراتها عن الحياة ومثلها ، وفى تصوراتها عن صلات الأفراد والجماعات وحقوقها ، ما يضاد الروح الاسلامى وما يناقضه ويحاربه ، وينال من فلسفته ومثالياته .

بل إن الكثرة الساحقة من الجماهير الاسلامية التى تعيش وعلى آذانها دوى الطبول الأوربية الهائلة ، لا تكاد تتصور أن للاسلام أنظمة اقتصادية شاملة لكل شئون الحياة ، ومناهج اقتصادية شامخة ، تسامق المناهج الأوربية وتفضلها بما فيها من خير وتعاطف وتراحم لا يجعل الفرد فريسة للمجموع كما فى النظام الشيوعى ، ولا المجموع ضحية للفرد كما فى النظام الرأسمالى ، بل منهجا وسطا ، وميزانا قسطا لايميل ولايحيف .

حتى الجامعات الاسلامية ، من كراتشى إلى الزيتونة ، وقد تحررت أو كادت من رق الاستعمار الفكرى الأوربى ، لم تعن بدراسة هذا الاقتصاد ، ولم تلتفت إلى قوته وقدرته على حل معضلات حياتنا ، ورعاية شئون وجودنا .

لقد افترضنا أن النظام الأوربى بشبكته الهائلة التى صنع خيوطها العقل اليهودى بدهائه وخبرته ، وبشقيه اليمينى واليسارى ، هو أسمى

مما ابتدعته العقول ، وأرقى ما وصل إليه التطور الحضارى ، والتسلسل التاريخى ، وأن من الجمود والتزمت ، بل من الهوس والجنون ، أن يفكر مسلم يعيش على هذا الكوكب فى أن يتحرر من مناهجه ، أو يجرؤ على التفكير فى العودة إلى ماضى الاسلام يستهديه ويسترشده ، برامج إقتصادية تعيش فى عالم الذرة ، وفى دنيا الحضارة الزاهية الضاحكة المتحركة .

ومن العجيب أن رجال الفكر الأوربى أنفسهم قد ابتدؤا يفكرون فيطيلون التفكير فى أن العالم لن تهدأ مواقيد الحروب فيه ، ولن تسكن أحقاد طبقاته ، وصرخات جماعاته ، إلا بالعدول عن هذه البرامج الاقتصادية ، الرأسمالية والشيوعية ، إلى برامج . لاتنظر إلى الحياة على أنها كباش تتناطح ، وذئاب تتواثب ، وأقوياء يتلذذون بأكل الضعفاء ، ومضاربات تمزق الأسر وتحطم البيوت ، وسعار فى جمع المال يدفع إلى الكفر بكل قيم الوجود ومقدسات الأخلاق .

إنهم ليفكرون ويطيلون التفكير فلا يجدوا فى أيديهم سوى العودة إلى نظم الإسلام المالية بما فيها من تعاون كريم ، وتعاطف رحيم ، واعتدال مستقيم .

يقول العلامة « ج . و . ل داى » فى كتابه — حول الاضطراب المالى — (ومن العجيب أنه لاتوجد وسيلة ناجحة لإصلاح هذه الحال سوى أستلهام الروح الإسلامية فيما يسمى إقتصاداً على ماسنبينه بعد ، وهو علاج إقتصادى بحت مستقل عن الحزبيات السياسية ، ولا صلة

له بالحروب بين الطبقات ، بل هو على العكس يوفق بين مصالحها جميعاً كما هو شأن الإسلام فى كل قضاياه » .

بل إن الحركة الإصلاحية الديمقراطية فى ميدان المال التى قادها عباقرة المال الانجليز ، الميجور دوجلاس ، وهار جريف والماركيز تافستـــوك ، وبونامى دويرى ، تقوم كما يقرر ذلك الدكتور زكى أبو شادى[1] على هدى التعاليم الإسلامية المالية .

يقول سيادته : « وقد تفضل الماركيز تافستوك فكتب إلى على أثر ظهور رسالتى فى صحيفة المانشستر جارديان ، رسالة لطيفة فى صحبة كتابه « حول الخلاص من الفقر وزيادة الضرائب » وهذه الرسالة تقوم على الاعتماد الأهلى المالى وتبث من المبـادىء أشعة تألقت بها ديمقراطية الإسلام المالية الممثلة فى رغبته الحارة فى القضاء على الفقر ، ونشر العدل والمساواة .

وقد قضى الميجوو دوجلاس زمناً فى الهند فدرس النظام المـالى للهند الإسلامية خاصة ، وهو النظام الانسانى الذى أشارت إليه — مسز أنى بيزانت — فى رسالتها المشهورة « اشتراكية المستقبل » وهذا النظام الذى يدعو إليـــه هؤلاء المفكرون الانجليز والذى اهتمت بدراسته وتجربته مقاطعة البرتا فى كندا ، قد اجتذب إليه أناسا من طبقات شتى ، لأنه نظام لايفرق بين الطبقات ، ولا صلة له بالحركات السياسية الشاذة ، بل هو فى مصلحة الجميع ، لأنه يضمن السلامة للجميع بالقضاء على الربا والفوضى التى تحدث الاضطرابات الصناعية والمالية ثم تنتهى بالناس إلى الحرب ، ولو أنهم مع ذلك لايتأدبون ولا يتوبون

---

(١) عظمة الاسلام ص ١١٨ .

بدليل تكرر الأزمات الاقتصاديه فالسياسية التى تنتهى إلى الحرب ، وفى هذا يصدق قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » .

إنها الحرب التى أنذر بها الله ، الحرب التى تأكل أوربا ، وتأكل حضارتها وتهدد الجنس البشرى كله بالفناء نتيجة لهذا النظام العفن الربوى المهدر لكل القيم ، القائم على السحت ، الماشى بين الناس بالكراهية والبغضاء .

ولو تأملنا هذه القلاقل الطبقية التى تعصف بالانسانية ، وهذه الحروب التى تهدد بالفناء ، وهذا الاستعمار الجشع البغيض مصاص الدماء ، لرأينا السر المضمر وراء كل هذا ، هو النظام الرأسمالى الربوى اليهودى القاسى ، المتجرد من القلب والخلق والضمير .

لقد أصبح رأس المال الذى تضخم فى جانب ، وترك العوز والفاقة فى الجوانب الاخرى ، قوة مخيفة تلقى بظلها الرهيب على الأرض ، فهى التى تسير السياسة ، وتسير الحكم ، وتحرك الجماهير ، وتخلق الحروب وتتبنى الاستعمار وتفتح له الآفاق ، حتى أصبح السلب المنظم تحت ألفاظ مختلفة ، كالاحتلال ، والوصاية ، والمجال الحيوى ، ونحو ذلك حقا مشروعا مقدسا .

بل إن الشيوعية والفاشستية والنازية ، وكل الحركات الأوربية المضادة إنما انبثقت فى المجتمعات الأوربية تمرداً على هذا النظام وكفراً به .

ولأنها ولدت ثائرة بين الأحقاد ، وقامت على العنف والبغضاء فقد جاءت أقسى قلبا وعقلا ووجدانا وضميرا ، جاءت تتضح بالأنانية

القومية ، والعبودية الفردية ، كما تعالت فى غطرسة غليظة على كل خلق ودين ، وكل هدى يمت إلى الخلق والدين .

يقول مولاى محمد على[١] بعد حديثه عن النظام الاقتصادى لدول الغرب هذا النظام الذى انتهى إلى طرفى نقيض بسبب عجزه عن سد حاجات المجتمعات فهو إما حرب رأس المال ضد العمل — أى حرب البرجوازيين ضد الدهماء أوحرب العمل ضد رأس المال أى قتال الدهماء للبرجوازيين يقول :

« وإذا ما أردنا أن نوقف هذه الحروب إلى الأبد ، وجب علينا أن نتلمس الوسائل وطرق العلاج بين هذه الطبقات المتحاربة فى العالم أجمع — وما المسيحية كدين ، ولا المدنية المادية التى أنجبتها المسيحية — بمستطيعة أن تقدم مثل هذا الاصلاح المرجو . إذن فاقتراحات السلام فى هذه الحالة أيضا فى يد الاسلام مرة أخرى .

لأن النظام الاقتصادى الذى جاء به الاسلام وحده هو الذى يوفق بين رأس المال والعمل ،وهو الذى يقدم الاصلاح المنشود ، فيسود السلام الحقيقى الأرض قاطبة » .

ويقول العلامة (جيب) فى كتابه — حيثما يكون الإسلام — مايزال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغالبين المتقابلين فى دنيا الغرب ، فهو يساوى ويوائم بين الاشتراكية القومية الأوربية ، وشيوعية روسيا ، فلم يهو بالجانب الاقتصادى من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذى أصبح من مميزات أوربا فى الوقت الحالى ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضا .

---

(١) الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٥٨ .

فالاسلام هو الصراط المستقيم ، والنهج الوسط بين الرأسمالية وبين الشيوعية . ويقول العلامة «ماسنيون»[1] «إن لدى الاسلام من الكفاية مايجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليا ، المبادلات التى لاضابط لها ، وحبس الثروات . كما يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت إلى جانب حقوق الوالد والزوج ، ويشجع الملكية الفردية ، ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة أخرى ، مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية .

وعلى ذلك فالاسلام هو بمثابة خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة ، فلنظامه الاجتماعى خصائص لا نجدها فى غيره ، فهو لايدع العوامل الاقتصادية تشغل الذهن البشرى بحيث تنسيه القيمة العالية للحياة ، لأن من أول ما يتلقاه المسلم من الدروس هو أن واجب الله مقدم على كل واجب سواه ، وان عليه أن يترك العمل الذى يباشره مهما عظم إذا ما دعاه المؤذن للسجود لبارئه ، وهذا النداء لايجلجل فى البكور فقط ولا فى العشى عند مايأوى الانسان إلى فراشه ، بل يتردد أثناء انهماك الانسان فى عمله اليومى ، وإنه ليعلم أن عليه أن يركز كل انتباهه فى عمله ليكسب عيشه ، ولكنه يعلم فى نفس الوقت أن الانسان لايعيش بالخبز فقط ، وأن للحياة قيمة أعلى تتداعى أمامها كل قيمة مادية ، وما لم تعلم هذه الحقيقة فستجلب المنافسة الاقتصادية

---

١) الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٦٠

بين الأفراد والشعوب الويل والدمار ، بدل الهناءة وراحة البال .

نسيت الشعوب المتحضرة ، فى تسابقها من أجل المنافع الاقتصادية هذا الدرس ، ولذا فإن كلا منها يسعى لتدمير الآخر والقضاء عليه » .

الاسلام هو خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة ، ولنظامه الاجتماعى خصائص لانجدها فى غـــيره فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تستعبد الذهن البشرى وتسترقه ، بحيث تنسيه القيمة العالية لمثاليات الحياة .

ذلك هو الفيصل بين النظام المالى فى الاسلام والنظم الغربية على شتيت ألوانها وصورها .

إن الاسلام ليستهدف فى كل نظمه الأخلاق ، وكرامة الانسان ، وعدالة الايمان .

ولهذا لم يعرف الاسلام يوما ـــ حرب الطبقات ـــ وهى شعار الغرب الدائم ولا المجال الحيوى الاستعمارى ، وهو طابع الحضارة الغربية ، ولم يعرف تلك الرأسمالية المتحكمة السيدة ، ولا تلك الشيوعية الكافرة الجاحدة ، ولا هذا السحت الربوى المدمر المذل .

لقد أدار الاسلام نظامه المالى على هدى تعاليمه فارتكز صرحه أول ما ارتكز ، على أن المال هو مال الله « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

. . . المـال مال الله ، والفرد مستخلف فيـه ، وكلمة الاستخلاف هنـا عظيمة الدلالة ، محددة الغاية ، لأن الاستخلاف غير التملك ، ومن هنا تحددت علاقة المـال بصاحبه ، فهو مستخلف فيـــه لخير المجموع

وصالحه ، ولهذا فإن الصبي ، أو الرجل المبذر السفيه يحجر عليه ، ويمنع من التصرف فى ماله ، يقول الله تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » فأضاف الله جل جلاله ، مال السفيه إلى المسلمين باعتبارهم وحدة متماسكة ، ومنع السفيه من التصرف فيما يملك خوفا من إساءة إستعماله لما له ، كما منع الصبي لعدم إكتمال عقله .

وكنز المال أيضا لا يجيزه الاسلام ولا يعترف به ، لأن الواجب المفروض هو توظيفه وتداوله « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ويقول الامام ابن عقيل « إن حبس المال عن التداول فى كل مايعود على المسلمين نفعه ، ينطبق عليه الكنز ، لان العمل لخير المسلمين ، هو فى سبيل الله ، وهو الاصل فى المال » .

ومن هنا كان الاحتكار فى الاسلام يصاحب الكفر ، كما يقرر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لأن فيه التضييق على المسلمين ، وفيه الاستغلال والتحكم (١) .

فاذا وضحت تلك الكليات الكبرى فى أفق الاقتصاد الاسلامى ، وضحت تبعا لذلك رسالة المال فى الاسلام وضوحا يجعل المشرع الاسلامى يبنى تشريعه المالى على أعلى وأخلد النظريات الاقتصادية

---

(١) روى أبو داود فى سننه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله ، وبريء الله منه .

الرحيمة العادلة ، النظريات الاشتراكية الكاملة المبرأة من الظلم والجور.

المال مال الله ، فلا تفاخر به ، ولا تقاتل عليه ، ولا استغلال له ، ولا تهالك وفناء فى سبيل جمعه وكنزه ، وإنما هو أداة لغير المجموع وسعادة الأمة وعزتها ، وكل فرد من أبنائها فيما يملك إنما ينوب عن أمته .

والمال لا يجب أن يكنز أو أن يدخر ليتراكم فى الخزن والمصارف وإنما يجب أن يتداول فى الأسواق ، كما يجب أن يزكى وأن ينفق منه للفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وفى سبيل الله، وفى كل ما يعود على أمته نفعه حتى لا يكون المال — دولة بين الأغنياء فحسب — بل دولة بين أفراد الأمة جميعا .

ومن هذا الأفق وعلى هذا الضوء جاءت القواعد التى يرتكز عليها المشرع الاسلامى . فملكية الأرض مثلا تسقط إذا تركها صاحبها ثلاث سنوات دون إحياء « أى دون زرع » عملا بالحديث المأثور : « ليس لمتحجر حق بعد ثلاث سنين[1] ثم تأتى بعد ذلك القاعدة الأخرى من أحيا أرضا مواتا فهى له[2] » .

والاسلام لا يقر الملكيات الزراعية الواسعة التى يحتكرها صاحبها ويقعد فى بيته ويؤجرها لغيره الذى يكدح طوال حياته والثمرات تجبى للمالك .

---

(١) جاء فى كتاب الأموال لابن سلام أن عمر بن الخطاب قال : ليس لمتحجر بعد ثلاث حق .

(٢) وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحيا أرضا ميتة فهى له » ويقول الأحناف أن من أحيا أرضا مواتا صار مالكا لها .

عن جابر بن عبد الله قال : «كان لرجل منا فضول أرض ، فقالوا لو أجرها بالثلث فقال الرسول : من كانت له أرض — أي واسعة — فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه أو يكريها» .

وعن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أرض تهتز فروعا فقال لمن هذه الأرض : فقالوا : أكراها فلان . فقال: لو منحها إياه كان خيراً من أن يأخذ عليها أجراً معلوما» .

ثم تأتي الناحية الاجتماعية في دستور الدولة المالية وهو أعلى دستور إجتماعي تكافلي عرفته الحياة، فالدولة أولا مسئولة عن كل فرد من رعاياها .

يقول البلاذري «كان عمر بن الخطاب يفرض للدولود مائتي درهم فاذا بلغ زاده وكان إذا أتى باللقيط فرض له في مائه أو فرض له رزقا، ثم يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة إلى سنة ، وكان يوصي بهم خيراً ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال» .

وجاء في كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية[1] في باب وجوه صرف الأموال «ومن المستحق ذوو الحاجات فإن الفقهاء قد اختلفوا هل يقدمون في غير الصدقات والفيء وغيره على غيرهم ؟ على قولين : في مذهب أحمد وغيره ، منهم من قال يقدمون ، ومنهم من قال المال استحق بالاسلام فيشتركون فيه كما يشترك الورثة في الميراث، والصحيح أنهم يقدمون ، فإن النبي كان يقدم ذوي الحاجات كما قدمهم في مال بني النضير ، قال عمر : ليس أحد أحق بهذا المال من أحد وإنما

---

(١) رواية الامام مالك في سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٥٣ .

الرجل وسابقته ، والرجل وغناؤه ، والرجل وبلاؤه ، والرجل وحاجته ، فجعلهم عمر أربعة أقسام » .

لرجل وحاجته ، قاعدة أصيلة فى النظام المالى الاسلامى ، كل رجل لايملك شيئا ولا يجد عملا ، فالدولة كفيلة إما بإيجاد العمل له أو بسد حاجته .

وكتب والى العراق إلى عمر بن عبد العزيز ، بأنه قد اجتمعت عنده أموال عظيمة ، فأمره بأن يوسع بها على المسلمين وذراريهم فى أرزاقهم ، فكتب إليه : أنه قد فعل وحصلت أموال ،فأمره أن يزوج أبكار النساء ، أبكار الرجال فكتب إليه ، أنه قد فعل وحصل مال ، فكتب إليه أن يقوى أهل الذمة على العمارة ويجعله سلفا عليهم(١) .

ويقول ابن حزم فى كتابه المحلى « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات ولا فىء المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يقيهم من المطر والشمس وعيون المارة » .

ويقول عمر « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وقسمتها على الفقراء » .

ويقول على بن أبى طالب « إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء وما جاع فقير إلا بما متع به غنى » .

ومن مشورات خالد بن الوليد إلى أهل الشام « أيما شيخ عجز عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، إلا طرحة

---

(١) رواية الامام مالك فى سيرة عمر بن عبد العزيز .

جزيته إن كان ذمياً ، وطرحت زكاته إن كان مسلما ، وأعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله « أن أقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس وله الأثاث فى بيته ، فكتب عمر لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، ومع ذلك فهو غارم ، فأقضوا عنه ماعليه من الدين » .

وبجوار الواجب الحكومى يقوم الواجب العام المفروض على كل فرد من أبناء الأمة الإسلامية المتضامنة المتكافلة »

عن أبى سعيد الخدرى قال : « بينما نحن مع النبي فى سفر ، إذ جاء رجل على راحلة له ، قال : فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال الرسول ، من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضـــل من زاد فليعد به على من لازاد له ، قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل »[1] .

وروى البخارى فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو ، أوقل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموا بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إكسنى يارسول الله ، فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ، قال: بلى غير واحد ، قال : فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة » .

---

(١) رواه مسلم .

وفى الحديث القدسى « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا أبن آدم مرضت فلم تعدنى ، فيقول ابن آدم ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ، فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما أنك لو عدته لوجدتنى عنده ، يا أبن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ، فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا أستطعمك فلم تطعمه ، أما لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندى » .

تلك قطرة من البحار الإسلامية فى العدالة الاجتماعية ، وتلك إشارات لاتحقيقات ترمز إلى النظم المالية الإسلامية تلك النظم التى أنجبت أسعد المجتمعات العالمية وأغناها وأطهرها ، يقول الامام مالك فى سيرته عن عمر بن عبد العزيز ، رواية عن يحيى بن سعيد قال : « بعثنى عمر على صدقات أفريقيا فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخـــذها منى ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فاعتقتهم وولاؤهم للمسلمين » .

لقد أصبح كل فرد فى الأمة الاسلامية غنيا موفور الحاجيات ، حتى لا يجد المال من يرغب فيه أو يتهالك عليه .

ذلك فضل الله لمن اتبع رضوانه ، وقام على سبل السلام وعاش تحت ظلال دولة القرآن ؟

طه عبد الباقى سرور نعيم

١٤ / ١ / ١٩٥٦

محتويات الكتاب

	صفحة
حضارة وجاهلية	٥
هل انتهت رسالة الإسلام ؟	١٢
شبهات حول الإسلام	١٧
الإسلام وحضارة الغد	٢٦
المسلمون على مفترق الطرق	٣٩
دولة القرآن	٤٨
حكومة إسلامية لاحكومة دينية	٧٠
واجبات الحاكم فى الدولة الاسلامية	٨٤
سياسة الحكم فى الإسلام	١٠٨
هل الخلافة فريضة إسلامية ؟	١٢٣
الأمة مصدر السلطات	١٣٢
رسالة القضاء فى الإسلام	١٣٤
نظام الحسبة فى الإسلام	١٤١
من الصحف الأولى	١٥٧
شريعتنا الاسلامية	١٦٤
روح التشريع معلل بالمصلحة	١٧٠
حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله	١٧٤
التشريع الاسلامى يدور مع واقع الحياة	١٩٠
« « يقوم على الاجتهاد	١٩٩
الشريعة الإسلامية والقوانين العالمية	٢١٥
النظام الاقتصادى الاسلامى	٢٢٩

openkandil.com

كتب ظهرت للمؤلف

١ ــ الغزالى — مجموعة إقرأ — دار المعارف — طبعة ثانية
٢ ــ أبوعبيدة الجراح — مكتبة مصطفى البابى الحلبى
٣ ــ شخصيات صوفية — » — » — »
٤ ــ محي الدين بن عربى — » — الانجلو — طبعة ثانية
٥ ــ الشعرانى — » — نهضة مصر — طبعة ثانية
٦ ــ رابعة العدوية — » — دار الكتاب العربى
٧ ــ دولة القرآن — » — دار الفكر العربى

تحت الطبع للمؤلف

٨ ــ شهيد التصوف الاسلامى، الحلاج »
٩ ــ الجزء الثانى من شخصيات صوفية
١٠ ــ رسالة الإسلام العالمية
١١ ــ الجامعة الإسلامية فى المعترك الدولى
١٢ ــ حقائق التصوف الكبرى

openkanal.com